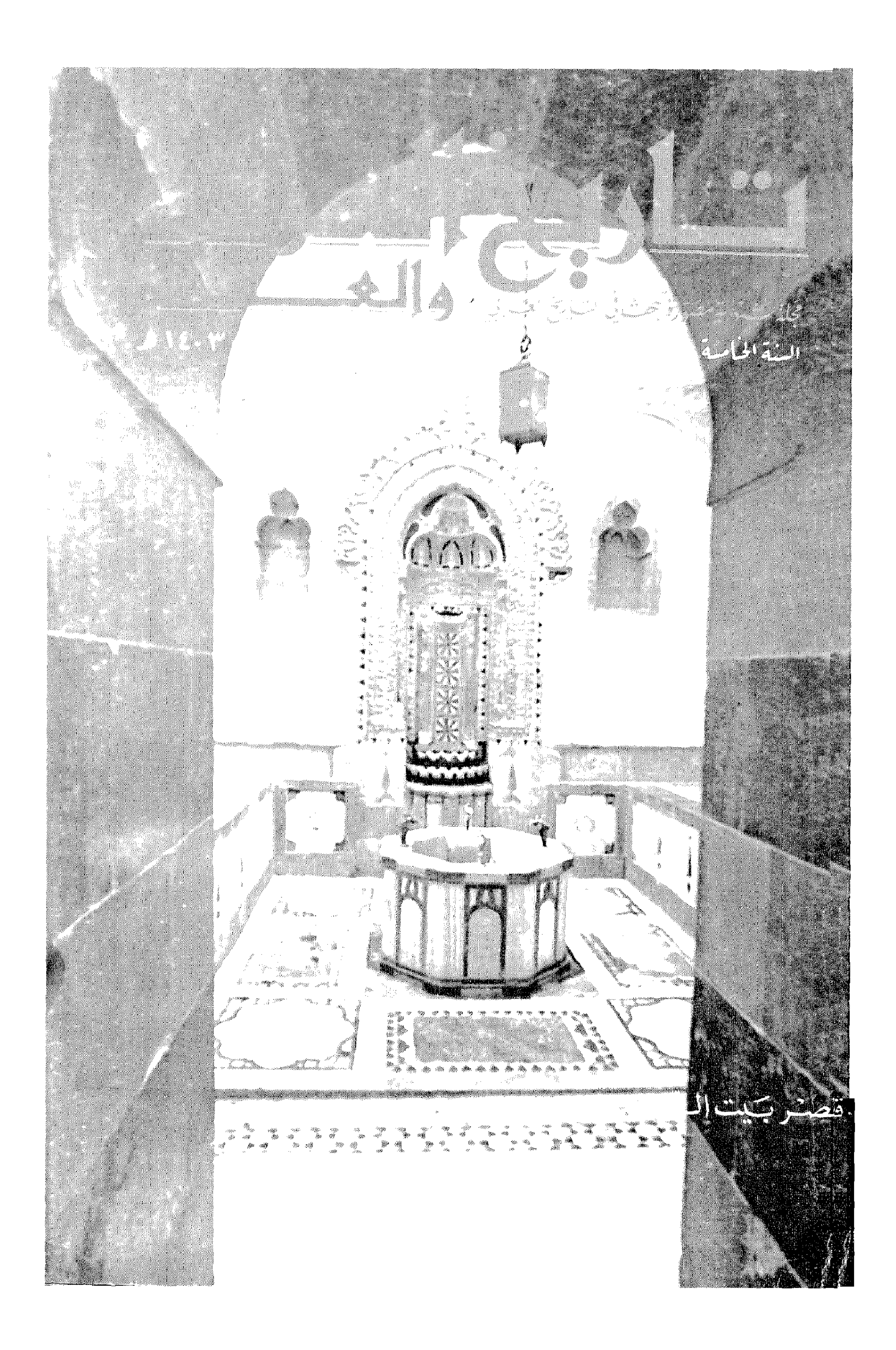
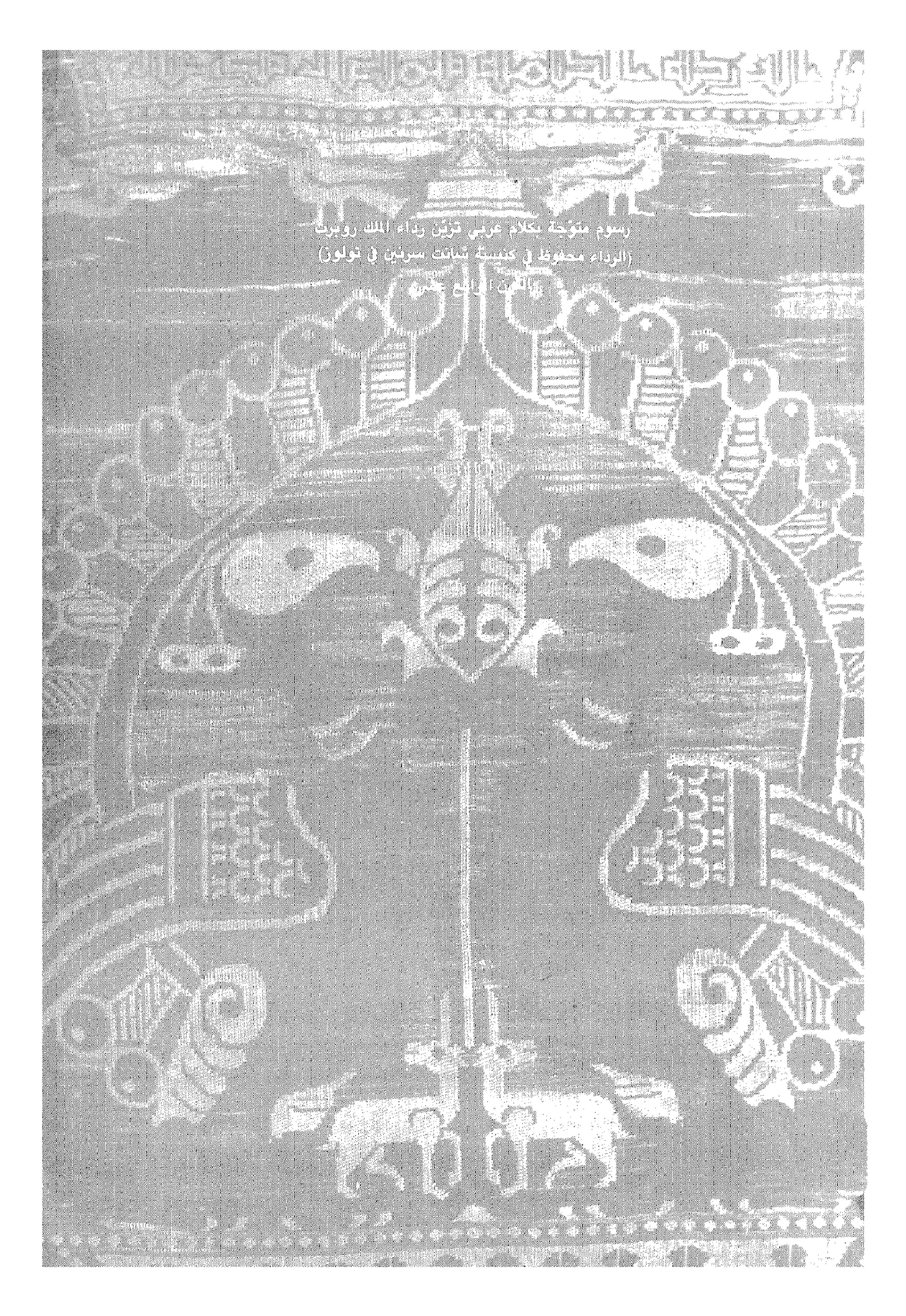

السنة الخامسة
١٤٠٣
قصر بيت ال



رسوم متوّجة بكلام عربي تزيّن رداء الملك روبرت
(الرداء محفوظ في كنيسة سانت سرنين في تولوز)
القرن الرابع عشر

تاريخ العرب والعالم

العدد ٤٩ ـــ تشرين الثاني ١٩٨٢

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. انيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

أمين التحرير : د. محمد أمين فرشوخ

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الاردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار

الاشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للافراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للافراد ١٢٥ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للافراد ٤٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولار
- تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب: ٥٩٠٥ ـــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ـــ تلفون: ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

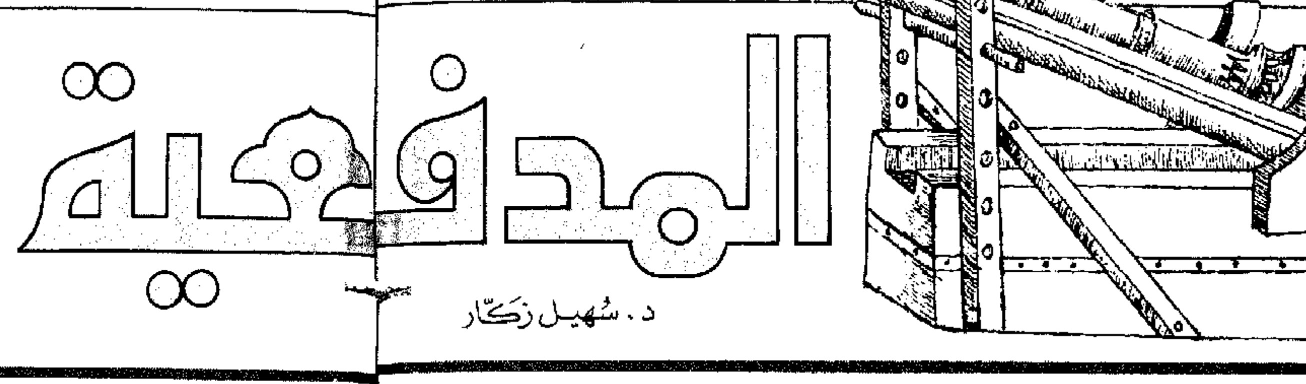
EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5. No. 49, NOV 1982

ANNUAL SUBSCRIPTION ; $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الالقاب الصفات العلمية فقط.■


صورة المدفع الأول

المدفعية عند العرب في أوائل القرن السابع عشر

د. سُهيل زكّار

أستاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق

قامت حضارات الانسان الأولى في الاراضي الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط واستمرت الحياة في هذه الاراضي، وصار البحر الابيض المتوسط بمثابة قلب وصلة وصل بين الاراضي المحيطة بمياهه، ونظرا لخطورة هذا البحر تصارعت دول التاريخ للسيطرة عليه وللتحكم بالملاحة فيه، وطمحت الامبراطوريات وكبار القادة نحو بناء قواعد استراتيجية تتحكم ببعض شواطئه او ممراته، ونظرا لتعدد الجزر داخل هذا البحر حدث صراع تاريخي مستمر في سبيل السيطرة على هذه الجزر.

وعلى شواطىء البحر المتوسط قامت اعظم الحضارات وتأسست اهم الديانات خاصة السماوية منها، ومن هذه الشواطىء انتشرت في بقاع الارض قاطبة.

ونظرا للأهمية القصوى لهذا البحر نلاحظ ان معظم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ وضع كبار قادتها في حسبانهم استراتيجية خاصة يمكن تسميتها «استراتيجية متوسطية»، وهذا ما نراه واضحا في اعمال الاسكندر المقدوني، وفي جذور اعمال الصراع بين قرطاج وروما، وفي هجرات الشعوب الجرمانية للقرنين الرابع والخامس م، وبعد هذا في القرن السابع للميلاد اثناء الصراع الساساني البيزنطي، فعندما احتل الساسانيون سورية واجزاء من آسية الصغرى قام هرقل ابن حاكم طنجة البيزنطي برحلة بحرية في المتوسط، تمكن خلالها من الاستيلاء على مقاليد السلطة في القسطنطينية ومن ثم أبحر على رأس حملة بحرية وقام بعملية انزال فطعن القوات الساسانية في جنبها واجبرها على الانسحاب من آسية الصغرى ومن الشام، ثم طاردها حتى التحم بها في معركة نينوى سنة ٦٢٧م. فهزمها هزيمة ساحقة، وتقابل سنة ٦٢٧م السنة الخامسة للهجرة، وقد كان المسلمون بقيادة نبيهم صلى الله عليه وسلم يرقبون هذا الصراع الدولي الدائر حولهم، ونتلمس صدى ذلك في سورة الروم، ولقد تعلم العرب دروس هذا الصراع، واستفادوا منها عظيم الفائدة في اعدادهم لخططهم القاضية بفتح العالم.

وكما هو معلوم كانت حدود شبه الجزيرة مرتبطة بكل من الاراضي التابعة لبيزنطة في الشام والاراضي التابعة للامبراطورية الساسانية في العراق، وعندما وضعت خطط الفتوح اخذ شأن البحر الابيض المتوسط بالاعتبار، وحيث انه لهذا البحر منفذين رئيسيين، واحد عند طنجة واخر عند القسطنطينية، فقد استهدفت هذه الخطة الوصول الى هذين المنفذين ومن ثم تملكهما.

ومن هنا نفهم الاسباب التي حدت بالخليفة ابي بكر الصديق الى ارسال ثلاثة جيوش لفتح الشام وواحد فقط لفتح العراق والاراضي الساسانية، فالاراضي الساسانية بلا حدود بحرية بينما أراضي الشام لها شواطىء طويلة على المتوسط ولها أراضي داخلية تصلها بالعراق وارمينية ثم اراضي امبراطورية الخزر، ولهذا نجد جيوش الشام: واحد منها يتولى امر قلب سورية وهو جيش شرحبيل بن حسنة، وتولى كل جيش من الآخرين مهمة على شاطىء المتوسط انطلاقا من فلسطين، فجيش زيد بن ابي سفيان كانت مهمته شمالية، وهو الذي سيتولى في مستقبل الايام غزو القسطنطينية، وجيش عمرو ابن العاص عهد اليه باحتلال شواطىء فلسطين ثم الاتجاه الى مصر، وهو الجيش الذي سيتولى في المستقبل احتلال شمال افريقية ثم الاندلس.

ان هذه الاستراتيجية الواضحة تعلل لنا اسباب اخفاق هرقل في الدفاع عن سورية وعدم اقدامه على عملية انزال بحرية كما صنع من قبل ضد الساسانيين، وهي تفسر لنا اسباب اقامة العرب الفاتحين لرباطات كثيرة على شواطىء المتوسط ثم شروعهم المبكر في بناء الاساطيل، وفي ايام عثمان بن عفان الخليفة الراشدي الثالث، سنة ٢٧هـ [٦٤٦م] صار لدى العرب أساطيل خاصة احتلوا بها قبرص وأخذوا يعدون العدة لغزو القسطنطينية.

وعندما نعود الى اخبار الفتوح الاولى، وبعد احتلال الشام، وسقوط الامبراطورية الساسانية نجد ان الخليفة الراشدي الثاني — عمر بن الخطاب — جاء سنة ١٧هـ [٦٣٨م] الى الشام وعقد مؤتمرا في الجابية [منطقة حوران السورية على مقربة من بلدة نوى] ضم كبار القادة، وفي هذا المؤتمر ادخل الفاروق تعديلات جوهرية على خطط الفتوح الاولى فقام بالغاء جيش شرحبيل بن حسنة، وقسم جبهة العراق الى جبهتين عهد بقيادة الشرقية منها الى البصرة وعهد بما وراء الجزيرة — أعالي بلاد الرافدين (Mesopotamia) — الى الكوفة التي كان لتوه قد اصدر امرا بتأسيسها وبضم عناصر جيش شرحبيل، وربما سواهم، اليها، وبهذا الشكل صار لدى العرب اربع جبهات

• دراسة وتعريف بكتاب العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع

تـأليف

الرئيس ابراهيم بن أحمد بن أحمد غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي

لفتح العالم او للسيطرة على آسية واوروبة وافريقيا.

وكما هو معروف ان وضع الخطط الاستراتيجية امر والنجاح في تطبيقها امر آخر، فلقد نفذت جيوش البصرة الى داخل الصين والهند، وسعت جيوش الكوفة الى خرق اراضي دولة الخزر فلم تصب نجاحات كبيرة، واحتلت مصر ثم اراضي شمال افريقيا وحوصرت القسطنطينية للمرة الاولى ايام معاوية بن ابي سفيان.

وبعد معاوية توقفت اعمال الفتوحات بسبب المشاكل الداخلية، وفي ايام الوليد بن عبد الملك تم استئناف هذه الاعمال، فتم فيما تم السيطرة عليه منفذ المتوسط الغربي من جانبيه وتوفي الوليد فقام اخوه سليمان وخليفته من بعده بإعداد حملة كبيرة استهدفت احتلال القسطنطينية.

وكان مصير هذه الحملة العربية الثانية شبيها بمصير الحملة الاولى حيث تمكن البيزنطيون من تحطيم الجزء الاكبر من الاساطيل العربية باعتمادهم على الاسلحة النارية التي عرفت باسم النار الاغريقية، وهي مواد محرقة قوامها الاسفلت والنفط وبعض الاصماغ السريعة الاحتراق مع عناصر اخرى، كان مهندس من اصل سوري قد قام باختراعها.

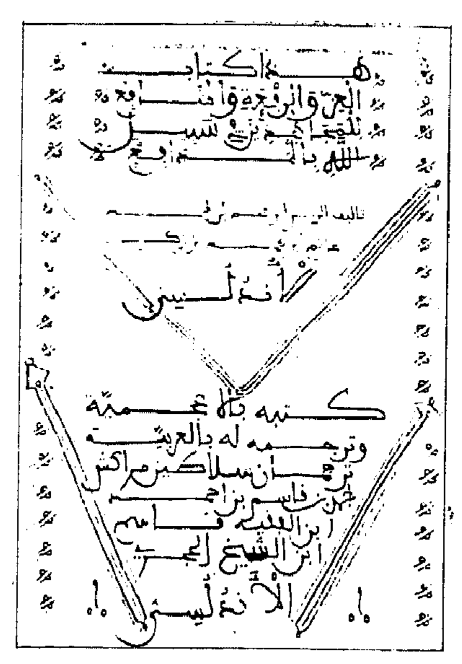
وأدرك العرب اهمية الاسلحةالنارية فأولوها عناية كبيرة، لم تمض فترات طويلة حتى صار في جيوشهم فرق متخصصة بالاسلحة النارية، كما ان معارفهم بالوقاية من النيران قد تعمقت، وقاموا بتطوير انواع الاسلحة النارية المعروفة وأبدعوا انواعاً جديدة تعتمد على مواد جديدة، ويستدل من بعض النصوص التاريخية ان العرب عرفوا منذ اواخر القرن العاشر للميلاد البارود واستخدموه في اسلحة تقذف باليد او بوسائل اخرى، وكان من جملة وسائل القذف المنجنيق واحيانا انواع من الاسطوانات المعدنية، وفي غالب الاحيان استخدمت هذه الاسطوانات من قبل المدافعين في الموانىء البحرية او وضعت على ظهور بعض السفن.

وفي اخبار تاريخ الحروب الصليبية نلاحظ استخدامات واسعة للأسلحة النارية، وكانت الحروب الصليبية كما هو معلوم من بعض الجوانب جهدا اوروبيا غربيا لفك الحصار البحري العربي على اوروبا، هذا الحصار الذي قام اثر نجاح حركة الفتوحات الكبرى، وحوادث الحروب الصليبية كان لها مسرح رئيسي في المشرق وآخر في الاندلس، وكان مسرح الاندلس أقدم من المسرح الشرقي وقد استمر حتى ما بعد سقوط الاندلس، وهو لربما لم ينقطع لانه ما زال متمثلا بالاستعمار بكافة أشكاله.

وقام الاندلسيون، خاصة في دولة غرناطة، بتطوير الاسلحة النارية واعتمدوا بشكل متنام على البارود، ويعتقد انهم ابدعوا اول انواع المدافع في التاريخ، هذا وهناك بعض المخطوطات العربية، (قسم منها محفوظ في دير الاسكوريال، قرب مدريد) التي تفيد ان عرب الاندلس وعرب المغرب استخدموا بعض الأنواع الاولى من المدافع منذ أوائل القرن الثالث عشر للميلاد.

ونسوق هنا مثالا شاهدا ذكره ابن خلدون في تاريخه (٣٨٨/٧) لدى حديثه عن السلطان المريني — أبي يوسف، وحصاره لمدينة سجلماسة (في المملكة المغربية في اقليم تافلالت او الراشدية) على طرف الصحراء في سنة ٦٧٢ هـ/ ١٢٧٣ م، قال ابن خلدون: «ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود، بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قدرة باريها».

وعن الاندلسيين والمغاربة اخذت اوروبا وسواها معارف استخدام المدافع والبارود وقامت بتطوير ذلك، ويذكر هنا ان الاسبان اعتمدوا على المدفعية في حروب الاسترداد، كما ان العثمانيين تمكنوا بقيادة محمد الفاتح من خرق أسوار القسطنطينية واحتلالها بفضل استخدام المدفعية، وسقطت الاندلس، وقامت دول اوروبا وعلى رأسها كل من اسبانيا والبرتغال بنشاط بحري استعماري كبير ادى الى اكتشاف اميركا والاكثار من الملاحة في المحيطات وجهدت كل من اسبانيا والبرتغال للسيطرة على طرفي ممر جبل طارق، وهكذا



غلاف المخطوط

وقعت معارك كثيرة بين عرب المغرب وأساطيل وجيوش هاتين الدولتين، ولعل أهمها معركة وادي المخازن ــ ١٥٧٨ ــ في المغرب ثم ما يعرف باسم حرب الثلاثمائة سنة مع الجزائر، وفي هذه المعارك كانت المدفعية هي السلاح الرئيسي والحاسم، ولقد ابدى عرب الشمال الافريقي تفوقا واضحا في استخدام هذا السلاح، حتى ليخيل للمرء ان دولة المغرب كانت بعد معركة وادي المخازن مهيأة للدخول في مرحلة تاريخية جديدة نظيرة لما عرف باسم عصر النهضة في اوروبا، انما تبديد طاقات هذه المملكة في افريقيا السوداء، وسيطرة زوايا الصوفية وتحكمها بعقول الجماهير الى قلة المعادن والاخشاب، مع اسباب اخرى ادى الى ضياع هذه الفرصة، وغرق البلاد في حمأة انحطاط العصور الوسطى.

ان ظهور سلاح المدفعية واستخدامات البارود قد ترافق في اوروبا مع بداية انتهاء عصر جيوش العصور الوسطى التي اعتمدت على قواعد النظام الاقطاعي، وقيام جيوش جديدة في تسليحها وفي أنظمتها، فلقد صارت صناعة الحرب في اوروبا الغربية حرفة وعلما، ولم تعد هواية، وكان من نتائج ذلك تصنيف بعض الكتب في الحرب والنظام مع التدريب على الاسلحة، واولت هذه الكتب سلاح المدفعية والبارود عناية خاصة، لكن يبدو ان ما من واحد من هذه الكتب تم وقفه كليا على موضوع المدافع والبارود.

وهذا الامر الذي لم يحصل في اوروبا تم انجازه في المغرب العربي من قبل احد الاندلسيين واسمه «ابراهيم بن احمد غانم بن محمد بن زكريا»، فقد اقدم ابراهيم هذا على تصنيف كتاب كبير مُنح اسم «العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع».

ولقد تحدث ابراهيم في مطلع كتابه عن حياته ثم بيّن حوافزه الى تأليفه فذكر انه ولد في قرية من قرى غرناطة بعد سقوط مملكتها العربية، وقد جاءت ولادته ربما في الربع الاخير من القرن الخامس عشر، ذلك انه لم يذكر تاريخها بالتحديد لذلك لجأنا الى تقدير ذلك استنتاجا.

وذكر انه ظل يعيش في منطقة غرناطة حتى اصدر ملك اسبانيا اوامره بنفي المسلمين الاندلسيين من غرناطة ومملكتها وتوزيعهم على الاراضي الاسبانية، ويبدو ان هذا قد حدث سنة ١٥٨٣ م، ونتيجة لهذه الاوامر توجه برفقة اسرته الى مدينة اشبيلية. وفي اشبيلية استهوته حياة البحار والملاحة، ويحدثنا عن هذا بقوله: «وتولعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مرارا، ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالغليونية بالاعجمية التي تأتي بالفضة من الهنود المغربية البعيدة (أي من اميركا) فكانت تمشي عمارة كما هي من عادتهم، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية، وكانوا يجتمعون مع اكابر القوم للكلام في تلك الصناعة، وتارة يأتوا بالكتب المؤلفة في ذلك الفن، وهي كثيرة، لأن العارفين بالعلم، المباشرين بالعمل، وغيرهم لما رأوا ان ملوكهم يعظمون اهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه، فتنوا به».

واهتم اثناء خدمته في الاسطول الاسباني بالبارود والمدافع اهتماما كبيرا جدا، وصار يلازم رجال المدفعية من الاختصاصين بالبارود ويحفظ بعض المعلومات وخلاصة المناقشات التي كانت تدور امامه، وبعد هذا كان يقوم بتطبيق ما حصله على الاسلحة ذاتها، ويستخلص من حديثه انه كان يجري بعض التعديلات ويقوم

بتطوير معارفه اعتمادا على ابداعه وعبقـريته الذاتية.

واثناء خدمته في الاسطول الاسباني كانت محاكم التفتيش الاسبانية نشطة جدا، تلاحق الاندلسيين وتنكل بهم، لذلك كان مؤلف كتابنا يجهد في سبيل اخفاء هويته، ويبدو انـه لم يفلح تماما، فألقي القبض عليه وأودع السجن، وظل فيه فترة لاندري قدرها، انما ليست قصيـرة بالتأكيد، وكانت له بعض العلاقات الخاصة مع واحد من كبار رجالات الاسبان، وقد افادته هذه العلاقة بحيث أطلق سـراحه، فغـادر اشبيلية وعاد نحو منطقة غـرناطة، يـريد الجـواز من الانـدلس الى الشمال الافـريقي، ومرة ثـانية اصطدم بالسلطات الاسبانية ومنع من مغادرة البلاد، وجهد في سبيل الخروج، فلم يفلح، فلجأ الى الرشوة، فحقق النجاح.

وهكذا غادر الاراضي الانـدلسية، وحـط به الركاب اولا في مدينة تونس، فوجد بها اعدادا كبيرة من الاندلسيين «من الاصحاب والاحباب»، ووصل خبره فـورا الى داي تونس فعينـه في جيشه وقدمه «على مائتي رجل من الاندلس» واعطاه خمسمائة قطعة نقدية، و «مائتين مكحلة ومائتين سكيناً ، وغير ذلك مما يحتاج اليه في سفر البحر وركبنا بأصحابنا في سفائن».

ولا يذكر عدد السفن التي غدت تحت امرته، ولا نوع المهمة التي كلف بها، ولا اسم المنطقة التي توجه اليها، انما يبدو انه عهد اليه بأمر اعتراض سفن الاسطول الاسبـاني لتدميـرها واغتنام حمولتها، ويذكر انه عاد بعد ستة أشهر الى تونس «بغنيمة قليلة» وكان مصابا «بجروح من حرب الاعداء».

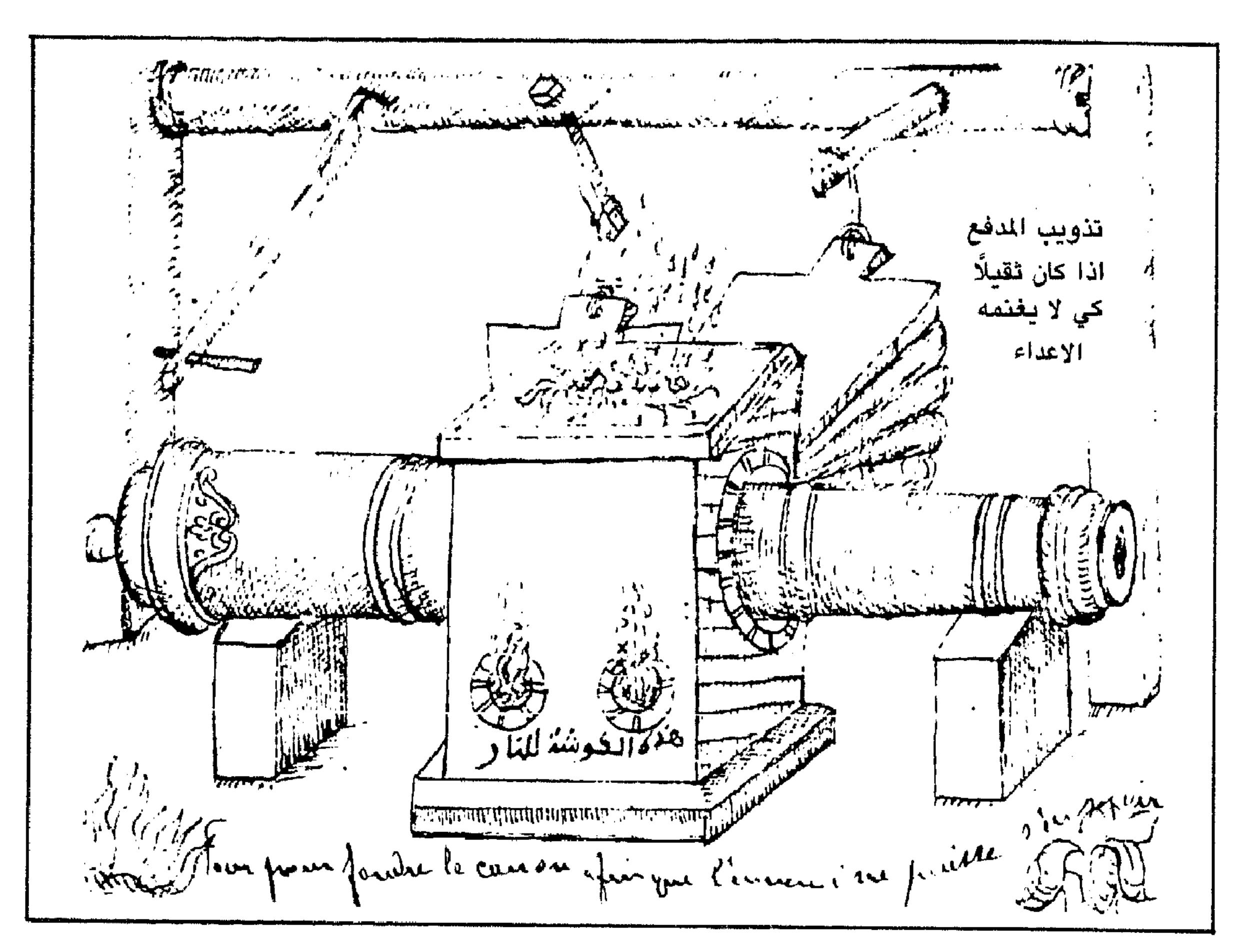
ويبدو ان جراحه كانت شديدة الى حد انه أشرف على الهلاك، ومكث في تونس حتى شفي من جراحه، ولا شك أن مكوثه كان لمدة طويلة، انما بعد ما برىء من جراحه ركب البحر ثانية.

وقد بين لنا هذه المرة مهمته ومنطقة نشاطه بقوله: «وسافرنا فيه ــ البحر ــ في طلب الكفار وأموالهم، ونحن بقرب مدينة مالقة، وهي على حاشية هذا البحر الصغير»، وجاء توجهه لمهمته هذه في الصيف حوالي شهر آب، وقرب مالقة التقى بعمارة اسبانية فيها احدى عشرة سفينة حربية، وكان البحر ساكنا «ولا شيء من الريح، ووقع الحرب الشديد، ومات من الجانبين خلق كثير، ودام الطراد الكبير حتى لم يبق منا الا القليل، وأسرونا وصح ان من الكفار اعداءنا مات في تلك اليوم أكثر من ستمائة رجل، كان بينهم أكثر من عشرين من أكابرهم، وأسرونا وأنا مثقل بالجراح».

وظل في الاسر مدة سبع سنوات، لا ندري اين أمضـاهـا ولا كيف، ولا نـوع المحن التي تعرض لها، فكل ما يـذكره ــ وهـو مصدرنـا الوحيد عن حياته ــ أنه نال حريته وعاد الى تونس، وهناك قام الداي بتكليفه «بـالقعود في حصن حلق الوادي» خارج مدينة تونس، وكان حصنا منيعا جدا، يتولى مهام دفع السفن التي كانت ترغب بغزو تونس.

ويبدو انه اعتبر الآن جنديا نظاميا من جنود داي تونس يتقاضى راتبا دوريا، وقضى في عمله الجديد ما لا يقل عن اربع عشرة سنـة، فيها ترسخت معارفه العسكرية، واخذ يعقد المقارنات بين اوضاع الجيوش الاوروبية خاصة الاسبانية منها والجيوش في بلدان شمال افريقيا، فساءه تدني مستويات المعارف الحـربية والتـدريبات والتمسك بالأنـظمة، وآلمـه جهل جنـود الداي وسواهم بفنون المدفعية وأسلحة البارود فقرر ايجاد علاج لكـل ذلك، ولنسمعه يتحـدث لنا بقوله: «وفيها (قلعة حلق الوادي) كملت معرفة الات المدافع بالاشتغال بيدي فيها، وبالقراءة في كتب الفن بالاعجمية، ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعيين المرتبين لا معرفة لهم بالعمل، وانهم لا يعمرون ولا يرون بما يقتضيه العمـل عزمت على تصنيف هذا الكتاب، لأن كل مدفع له قيمة مال وتعب في ايجاده، ثم يوكل عـلى تسخيره والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الاولى، او في الثانية والموكل عليه الذي يعمره ويرميه قريبا من الهلاك، فحملني على تصنيفه النصح له، ولمن وكله عليه.

نسـأل الله ان يقبل النيـة، انها ابلغ من العمل، وان ييسر لي من يعربه بالعـربية من الكـلام الاشبـانيـول، وهـو الكـلام العجمي المتصرف ببلاد الاندلس، ولا قصدت بـه نفعا دنيوياً بل الاخلاص لله تعالى بترجمته، لنكتب



منه نسخا ونبعثها ان شاء الله لبعض المواضع من بلاد المسلمين، ونذكر فيه مايحصل النفع من وجوه، وللمدافعين القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدروا اليه وتكلفوا به من خدمة امراء المسلمين، ويحصل لهم الاجر عند الله سبحانه بتفريج المسلمين باتقان اعمالهم وتخويف اعدائهم الكافرين».

ولم يكن مؤلفنا يحسن القراءة والكتابة بغير الاسبانية، وقد بين سبب ذلك وأعاده الى نشأته بين الاسبان ومطاردة هؤلاء لذوي الاصل الاندلسي، ويبدو من سياق حديثه انه شرع في تصنيف كتابه هذا سنة ١٦٣١م، اي منذ خمسين وثلاثمائة سنة خلت، وهو حين صنف كتابه هذا كان اول من نعرفه عالميا يصنف كتابا يقفه كله للحديث على المدافع والبارود، ويبدو أنه أطلق على كتابه هذا اسم «**المنافع بالمدافع**» وقد قام مترجم الكتاب فيما بعد بتعديل هذا العنوان بموافقته، وجعله «**العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**».

ونحن لاندري المدة التي احتاجها المؤلف لكتابة مصنفه، وانما يبدو ان ذلك لم يستغرق منه وقتا طويلا، وبعد انجازه لعمله هذا بعدة سنوات مر بمدينة تونس احمد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، وكان يعمل ترجمانا في مراكش عاصمة المغرب الأقصى. والحجري هذا اندلسي الاصل، هاجر الى المغرب في اواخر القرن السادس عشر ــ ربما سنة ١٥٩٩ ــ واستقر في مدينة مراكش حيث تولى مراسلات السلطان زيدان السعدي (ت ١٦٢٧م) الاجنبية وعمل ترجمانا له ولأولاده، وفي حوالي سنة ١٦٣٦م سافر من مراكش الى مدينة سلا ــ بجوار الرباط ــ ومنها توجه الى الحج والزيارة، وفي طريق العودة عرّج على مدينة تونس وهناك التقى بمؤلفنا احمد بن غانم، الذي تعرف عليه، وعرف عمله بالترجمة فطلب منه الاقدام على تعريب كتابه.

وكان الحجري اثناء عمله في البلاط السعدي قد عرف مدى اهمية سلاح المدفعية، ثم اثناء

قيامه بفريضة الحج تعرف الى صراعات الدولة العثمانية وحروبها مع أعدائها، ومدى فعالية سلاح المدفعية في هذه الحروب، وكان أندلسيا نفسه تتحرق وتجيش بالحقد على الذين حرموه من وطنه، لذلك استجاب وقرر الشروع بالترجمة، اسمعه يقول: «لما طالعت الكتاب العجمي الذي كتبه الرئيس مؤلفه بخط يده ورأيت نيته الصالحة أن الكتاب يكون فيه نفع للمسلمين وعون لهم على الكفار المشركين... عزمت على تعريبه وتوكلت على الله فيه ويسر لي الأسباب».

وعندما شرع بالترجمة أدرك صعوباتها، خاصة في نقل المصطلحات وتعريبها، فقرر الاقلاع عن تنفيذ المهمة، لكن الحاج المؤلف ثبته، ثم ان المؤلف قام بشرح كل مصطلح من المصطلحات، وبعمله هذا سهل عليه المهمة، وقد تم انجاز الترجمة سنة ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م.

وبعد عملية التعريب نُسخ من الكتاب عدة نسخ تم توزيعها في تونس والمغرب الاقصى وغيرهما، وفي تونس الآن نسختان خطيتان واحدة حسنة وأخرى متوسطة الجودة، كما يوجد في ليبيا نسخة واحدة وربما أكثر، كما يوجد في مصر نسخة في المكتبة التيمورية متوسطة الحال، ولحسن الحظ يوجد بين محتويات الخزانة العامة بالرباط نسخة المترجم الخاصة، أي ما يمكن ان نسميه النسخة الام من الكتاب، وهي نسخة تتألف من ٢٦٠ صفحة من الحجم الكبير خطها مغربي ممتاز، مزينة بالصور الملونة، والصور جاءت موزعة في ثنايا الكتاب لتشرح مواده وتساعده على فهمها وهذه الصور بحد ذاتها تحتاج إلى وقف دراسة مخصصة عليها تتناولها من الجوانب الفنية الجمالية البحتة ومن الجوانب الهندسية وسواها، وهذا غير ممكن تطبيقه بشكل علمي كامل الا بالعودة الى النسخة الخطية الاصلية، او بالحصول على صورة مطابقة للاصل تماما.

ولدى مطالعة نص الكتاب ندرك ان المترجم قد نجح في عمله نجاحا مثاليا، وانه كان متمكنا من الاسبانية والعربية بشكل جيد، كل ذلك رغم ما نجده في النص العربي من الاخطاء النحوية واللغوية الاخرى، فالمترجم له عذره، ذلك انه كان ابن عصره، يكتب بلغته ولابنائه ورجالاته.

وفي الحقيقة ان الباحث في نص هذا الكتاب يجد فيه محاولة رائدة لعمليات التعريب الحديثة، وعملية جريئة وأصيلة في اعتماد المصطلحات وهي مشكلة قائمة في الوطن العربي.

* * *

بعد هذا كله لنمسك الكتاب من اوله محاولين وصفه بشكل اجمالي والتعرف الى محتوياته:

جاء ترتيب الكتاب ترتيبا اندلسيا وذلك بافتتاحه بثبت فيه محتوياته، وهذه الطريقة المعتمدة الآن في اوروبا والمعتبرة طريقة علمية، تعلمها الاوروبيون من عرب الاندلس وعنهم نقلوها، وعقب ثبت المحتويات التي تدعى عند الأندلسيين باسم «برنامج الكتاب» ساق المؤلف مقدمة الكتاب.

وعندما نعود الى محتويات المكتبة الاندلسية المتأخرة منذ عصر ابن خلدون ولسان الدين ابن الخطيب وابن مرزوق نلاحظ طول المقدمة لكل كتاب واهمية موضوعها ومحتوياتها، حتى لكأنها كتاب قائم بذاته او نواة كتاب، وهذا الامر الذي نجد شاهده الاكبر في مقدمة ابن خلدون نلاحظه في كتابنا هذا، حيث حوت المقدمة حديثا معرفا بحياة المؤلف عبر مراحلها حتى تاريخ انجازه لكتابه، حيث لا نملك من المعلومات شيئا عن حياته بعد ذلك، وبالتالي لا نعرف سنة وفاته. وبعدما فرغ من التعريف بنفسه اخذ يتحدث عن اهمية الاسلحة النارية وتاريخ استعمالاتها وركز حديثه على البارود والمدفعية ثم بدأ بعد ذلك بسرد مواد الكتاب بابا تلو الآخر الى النهاية، وقد قام المترجم باضافة خاتمة للكتاب حوت حديثه عن اللقاء مع المؤلف ثم قيامه بالترجمة.

ولقد ساق المصنف مواد كتابه ضمن خمسين بابا، من المفيد سردها هنا كما جاءت في الأصل لتعطي القارىء صورة مبدئية عن هذه المواد، واجمالية توضح مدى اهمية هذه المواد.

* * *

الحمد لله، وهذا برنامج هذا الكتاب، وفيه خمسون بابا، وما صدر المؤلف من رحلته، وما ذكر ترجمان الكتاب من الاعجمي الى

العربي في اخره من رحلته، وفضل الجهاد، وغير ذلك:

الباب الأول: فيه وصيات، وتذكيرات للمجاهدين بآلات الحرب البارودية، ومما يحتاجه ليتقن صنعه وعمله.

الباب الثاني: في ذكر الآلات البارودية، ومما تركب المعدنية منها، وما يضاف للنحاس من القصدير عند تفريغها وتذويبها.

الباب الثالث: في ذكر آلات الحرب، ونتيجتها والمقصود بها، وذكر اختلافها بعضها عن بعض.

الباب الرابع: في ذكر تثليث المدفع الطويل، وسائر المدافع من نوعه وبه يعرف مافيه من الغلظ من معدن في قعرية الخزانة تحت البخش، وفي وسطه عند الاذنين، وعند رقبته، عند جبهة فمه، وصورته.

الباب الخامس: في تثليث النوع الثاني من المدافع، وهي التي ترمي كورا من حديد، وتسمى بمدافع التهديم والتهتك، لأنها مصنوعة لهدم الاسوار والحصون.

الباب السادس: في الأذنين التي في كل مدفع من سائر المدافع من الانواع الثلاثة، وذكر تثليث بعضها وما تختلف عن غيرها.

الباب السابع: في كيفية تثليث المدفع الرهيف، وهو من العمل القديم، وكانوا يفرغونه بقليل المعدن ليحمل في السفر، وفيه صورة للمدافع الثلاثة المذكورة في الباب.

الباب الثامن: في ذكر المدافع التي ترمي بكورة من حديد، ومنها الناقوصي وصورته، وذكر الرهيف.

الباب التاسع: في الوجه الخامس من اختلاف المدافع بعضها عن غيرها، وصورة بعضها، وذكر المخزنية وهي الخاصة في العمل.

الباب العاشر: في ذكر المدافع من النوع الثاني وأقسامها وأسمائها، وذكر المدفع العظيم القتّال بالنظر، والمدفع الصحيح، وذكر ما تختلف في الرمي، وكيف تعمر.

الباب الحادي عشر: في السبب الموجب لكافة المدافع البارودية لتكون على الحالة التي هي في طولها وعرضها، وعمارتها، وذكر تاريخ السنة التى استنبط الراهب عمل البارود، وذكر المدفع الطويل جدا، وكان يرمي قليلا حتى نشروا منه الثلث، ورمى كثيرا.

الباب الثاني عشر: في تقطيع صور المغارف من الكاغد للمدافع، وحسابها واختلافاتها بعضها عن بعض كما تختلف المدافع في أجرامها وأعمالها، وصورها مختلفة، وفيه كيفية التعمير.

الباب الثالث عشر: في ذكر الرمي بالقياس وما ينبغي للمدافع أن يعلمه من العمل بالآلات، وكيف يصل الى معرفتها، وذكر التربيع لاستخراج نقط اوساط ظهور المدافع ليأخذ القياس بالنظر عليها، وذكر الاشياء المانعة من الرمي المستقيم، وهي ثلاثة عشر مسألة.

الباب الرابع عشر: في ذكر السرائر للمدافع وصفة عملها في طولها وعرضها، وذكر أحسن خشبها وغير ذلك مما يختص بها.

الباب الخامس عشر: في ذكر العجلات من النوع الاول وحسابها، وذكر الوجه الأشهر في ذلك.

الباب السادس عشر: في ذكر سرائر النوع الثاني من المدافع وعجلاتها، وكيف تختلف من اجل الاماكن التي تكون فيه ومفارقها.

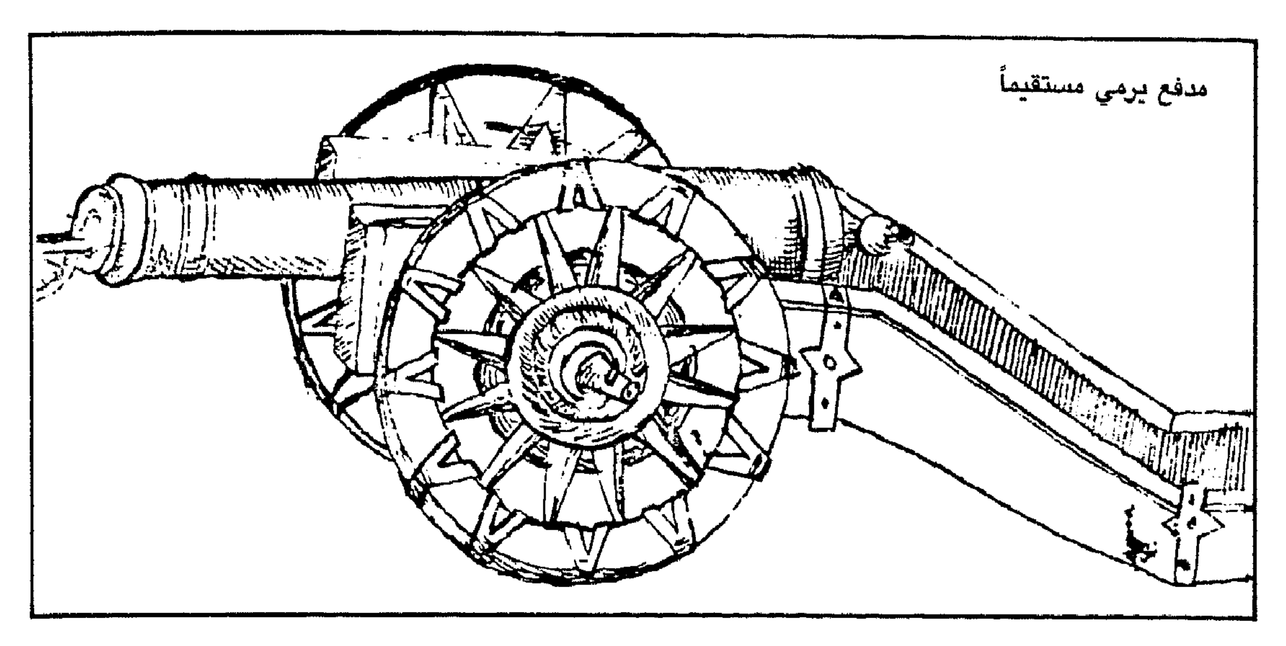
الباب السابع عشر: في ذكر المدافع الحجارة ونتيجة فعلها، وذكر مقادر كورها، وما يكون من ثقل المعدن بحساب كورته، وذكر طولها، وصورة المدفع المفروغ على ثلث ما تثقل الكورة من عمارة البارود، وايضا صورة المدفع الذي يعمر بالنصف ماتثقل كورته.

الباب الثامن عشر: في ذكر سرائر المدافع الحجارة.

الباب التاسع عشر: في ذكر العجلات للمدافع الحجارة.

الباب العشرون: في صفة تعمير المدافع الحجارة اما بالمغارف او بالقراطيس وذكر صفة المدكات والسلك اما بالمغارف او بالقراطيس، وذكر صفة ذلك.

الباب الواحد والعشرون: في كيفية تعمير المدافع به بسرعة وبالتأني، وكيف يقلب المدافع في باطنها، ومما يتحفظ عند التعمير، وبما تختلف بعضها عن بعض.


مدفع يرمي مستقيماً

الباب الثاني والعشرون: في اخذ القياس للرمي بالربع وعمله وتفصيله في كاغد، وصورته، وذكر مايرمي من الخطوات كل مدفع على النقطة الأدنى، وهو على خط مستقيم، ومايرمي الكورة من خطوات على النقطة السادسة، وهي درجة غاية الرمي.

الباب الثالث والعشرون: في ذكر معادن انواع المدافع، وبما تختص بعضها عن بعض، وذكر عمل كل واحد، وبما تتفضل القلبرينة عن غيرها، وذكر صفة أجرام المدافع في طولها، وصورة المدفع المهراس، وهذا من اطول البيان، وفيه ذكر الحيلات التي كانت القدماء تستعملها مثل المنجنيق وغير ذلك.

الباب الرابع والعشرون: في اختبار الآلات الجديدة الخارجة من التذويب، وكيفية تعمير كل واحد، وفيه ذكر التعمير بالقراطيس، وصورة القراطيس، وذكر الرمي على الخط المستقيم وغيره، وأنزل منه، وهو أطول البيان.

الباب الخامس والعشرون: في ذكر تربيع المدفع لاستخراج نقطة الوسط في اعلى ظهر المدفع الواحدة من وراء البخش، والنقطة الثانية فوق جبهته لأخذ القياس عليها، وصورة المدفع، وصورة مسطرة بشاقولين.

الباب السادس والعشرون: في ذكر الهواء الذي يكون لكل كورة، وذلك ماينقص من قعر فم المدفع من قعر الكورة لئلا تحصل في الجعبة، وذكر بعض الرميات يستعرضها الامير، ويأمر المدافعي بها، وفيها اثنا عشر وجهاً، مختلفة بعضها عن بعض.

الباب السابع والعشرون: لاستخراج كورة مصلبة، او محصلة في داخل المدفع، او بجوزة واستفراغ عمارة مزمنة.

الباب الثامن والعشرون: لنزع المسمار الذي يضعه العدو في بخش المدفع لتبطيله عن الرمي والتدبير عليه.

الباب التاسع والعشرون: في كيفية تبريد المدافع من كثرة الرمي بها من غير توقف، وكيف يرفق بها ويحفظها من الكسر.

الباب الثلاثون: في الرمي على الدرجة السادسة بالربع في فم المدفع، والآخر بالرمي على الدرجة الاولى، وهو الخط المستقيم، وصورة المدفعين.

الباب الواحد والثلاثون: في ذكر آلات المدافعي وكيفية مسطرتهم العدد، وهي من الآلات الأكيدة وبها يعرف ماتزن كل كورة، وهي من الاسرار العجيبة وصورتها.

الباب الثاني والثلاثون: لمعرفة البعد الذي يكون بين موضعين، او ارتفاع حصن او جبل او عرض واد وذكر عمل خط ثم اوغار تحت الارض لرفع حصن بما فيه في الهواء، وصورة المسطرة لأخذ الارتفاع او البعد او العرض.

الباب الثالث والثلاثون: في معرفة البارود، وهو من ألد الاشياء للمدافعي لان به يختم

العمل في الصناعة، ويقضي الغرض اذا كان جيدا.

الباب الرابع والثلاثون: في كيفية عمل البارود، ويليق بالمدافعي معرفة عمله من وجوه.

الباب الخامس والثلاثون: في ذكر كيفية اصلاح البارود حتى يكون كما كان اولا قبل فساده.

الباب الخامس والثلاثون: لاستخراج ملح البارود، وذكر المواضع التي يوجد فيها غير الاماكن المشهورة.

الباب السابع والثلاثون: في معرفة ملح البارود، هل هو خالص ونقي، وكيفية تخليصه.

الباب الثامن والثلاثون: في الكور المدبرة بالنيران المركبة من أعواد اذا عمله العدو لحرق السفن، ودفع الاعداء وهدم الاسوار.

الباب التاسع والثلاثون: في تقييدات التراكب التي توضع في الكور المدبرة منها: ترمي باليد ومنها بالمدافع، وهي على اربعة انواع، وفيها كورة مركبة من كور ترمى باليد، وكل واحدة معمرة ترمي صواعق مدبرة.

الباب الاربعون: في ذكر المواضع التي تكون فيها المدافع وتسخر وتخدم.

الباب الواحد والاربعون: في صفة عمل السلال، وتسمى عند بعض قراطل ليستتر بها المدافعيون من رمي الاعداء وصورتها.

الباب الثالث والاربعون: في ذكر القبرية بالعجم ويسمى لولب، وهو حبل لترتيب المدافع، وذكر يسمى مرتنه وصورتها.

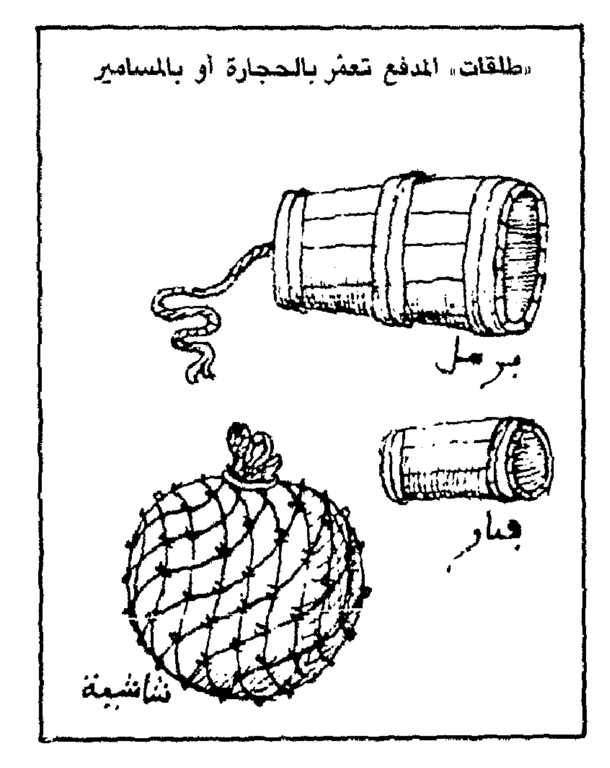
البار الرابع والاربعون: في ذكر حمل المدافع في البر اذا يجدر سفر لبلاد بعيدة.

الباب الخامس والاربعون: في عمل القناطر على الديدان لجواز الجيش والعدد وصورتها.

الباب السادس والاربعون: فيما يحتاج المدافعي من آلات لصناعته تكون عنده موجودة.

الباب السابع والاربعون: في شأن البارود، وذكر السبب الذي يخلق الله تعالى به التفرقع والحس القوي.

الباب الثامن والاربعون: في ذكر ما يحتاجه المدافعي للسفر في البر والبحر وآلات البارود لئلا يبطل من اجل شيء يخفه.



«طلقات» المدفع تعمّر بالحجارة أو بالمسامير

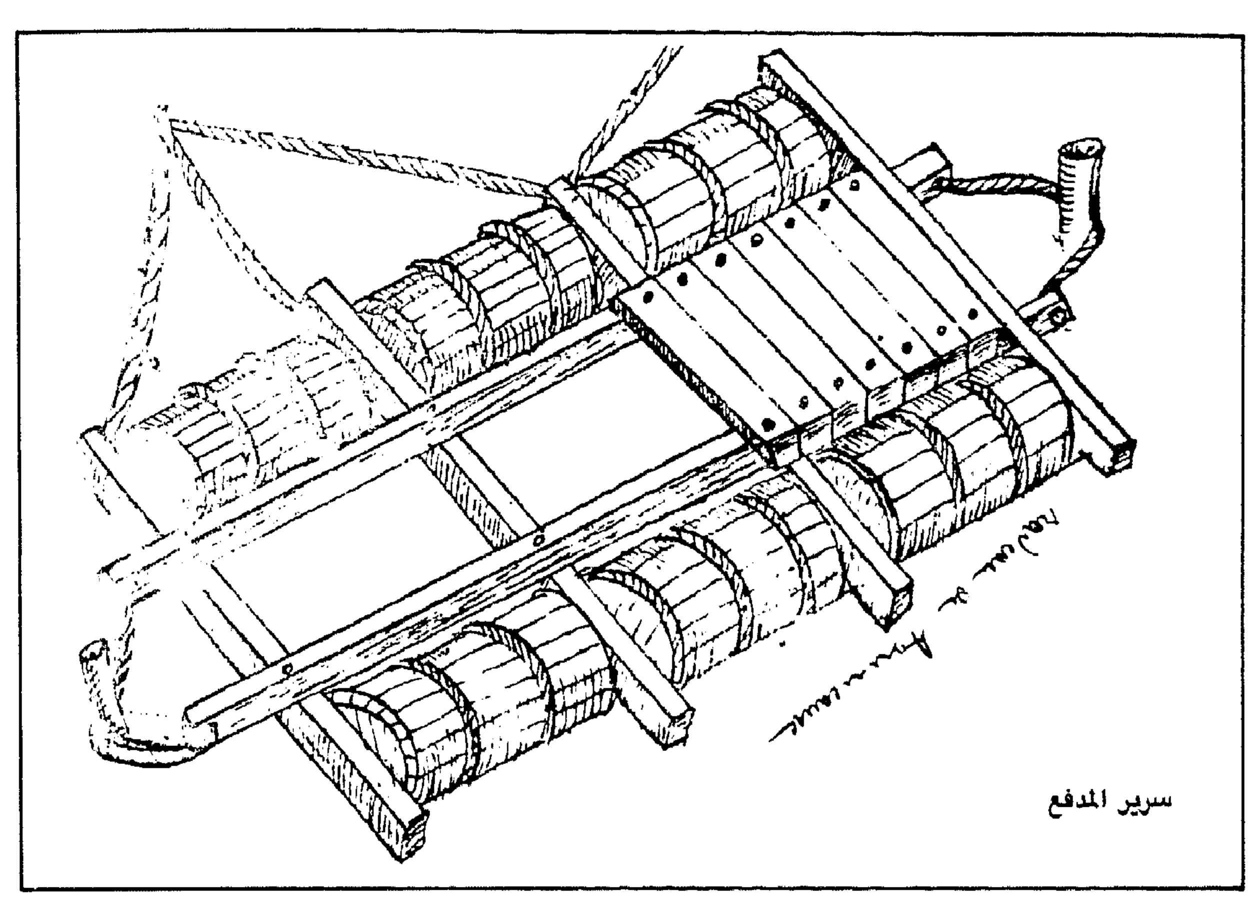
الباب التاسع والاربعون: في ذكر عمل ملح البارود من التراب في زمننا هذا، وذكر تخليصه بعد العمل.

الباب الموفي خمسون: في ذكر أحسن الوجوه لعمل البارود في زمننا هذا.

والحمد لله على قضاء الحوائج، وعلى كل حال، وصلى الله على سيدنا ومولانا، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

* * *

جاءت محتويات الباب الأول عامة انما وثائقية لها قيمة عالية، ففي البداية بيّن «ان صناعة الحرب هي من اشرف الصنائع واعلاها واحسنها، والتي يحتاج اليها في امور السياسة اكثر من غيرها وهذا القول ثابت برأي كثير من العلماء والحكماء من اهل الخير والذين انتفعوا بها، بل اتفاق ملل الدنيا كلها، وبذلك علمنا انها اعز ما يوجد فيها يكون القهر للخارجين، والجبارين، والمعتزلة والكافرين بما ينهبون منهم المسلمون ويأسرون، وهذا بيّن وظاهر ان جميع السلاطين لا أمن لهم الا بآلات الحرب، ولا دوام لهم في مراتبهم واهل طاعتهم وعامتهم الا بها، وليس هذا في بني ادم فقط بل هو ظاهر في الطيور والبهائم، فيظهر في الهواء شر الطيور والحرب بينهم، وقتل بعضها لبعض، وكل واحد



سرير المدفع

يعرف ويميز عدوه، وقد يرى مثل ذلك بين الوحوش الارضية من الحروب والشرور مثل بني ادم، وكل واحد يعرف ويميز عدوه، وكل واحد ينتفع بسلاحه وجنته، واخرون يقهرون اعداءهم بالمكر والخديعة، ويقصدون بذلك الظفر بالاعداء والسلامة لأنفسهم منهم».

وبعد هذا حاول ان يؤرخ للاسلحة النارية والبارود، فقدم في هذا المطلب معلومات جديرة بالدراسة والاعتبار والمناقشة، وبعد العرض التاريخي لاستخدامات الاسلحة النارية والمقذوفات في الماضي خلص الى القول: والخالص والاسنى والاشهر مما تقدم فهو: بالبارود والمدافع وآلاته. ولا ينكر نفعه، لان رأينا قليلا من الناس استفتحوا به سلطنة عظيمة واقطارا كثيرة، وانقادت لهم ملل وأقوام من الجبابرة، وكثير من الحصون التي كانت في غاية المنع، فهي الآن مفنّية ومهدومة بالبارود وآلاته.

وانتقل بعد هذا الى الحديث عن انظمة الجيوش في ايامه، ومادته هنا وثائقية من الدرجة الاولى وقد ذكر في هذا المقام ان بعض الجيوش تنقسم «الى قسمين، ومثالهم كالجسد: فالرماة فهو اليدان والفرسان هم الرجلان للخفة والانتقال، والرأس والاكتاف والجسد فهو التدبير للجيش لانه تحت امره... وقسم بعض العارفين الجيش على ثلاثة أقسام».

واستطرد بعد هذا ليبين ان هذه الاقسام الثلاثة تضم الجنود والفرسان والمدفعية وهنا اوضح ان «الجندي يرعى ما لزمه من العمل بمكحلته (اي بندقيته) وسيفه، والفارس ايضا موجود بحصانه، وكل واحد يرعى ما امر به ويمتثله، واما صاحب المدافع فكلفته اعظم، لانه موكل على مدفع واحد او على اكثر من واحد، فالرامي تكفل بمكحلته، والفارس بحصانه، والمدافعي تكفل بشيء عظيم، وركن اعظم من اركان الجيش، ولزمه ان ينظر لكثرة المال الذي ينفق في انشاء مدفع وتذويبه، وفي اخراجه من قالبه، ثم في تبريمه وتنقيته، ويرى ان قبل ان يتم عمله المذوّب، يجوز عليه الشقاء والتعب العظيم، وكم مرة يعودها للتفريغ بسبب ما يظهر فيها من العيوب، ثم تحمل المدافع على الارض بمشقة وتعب مسافة يوم او ايام، ولا يكون ذلك الا بانفاق ومال كثير وشقاء... واذا وكل بالمدافع

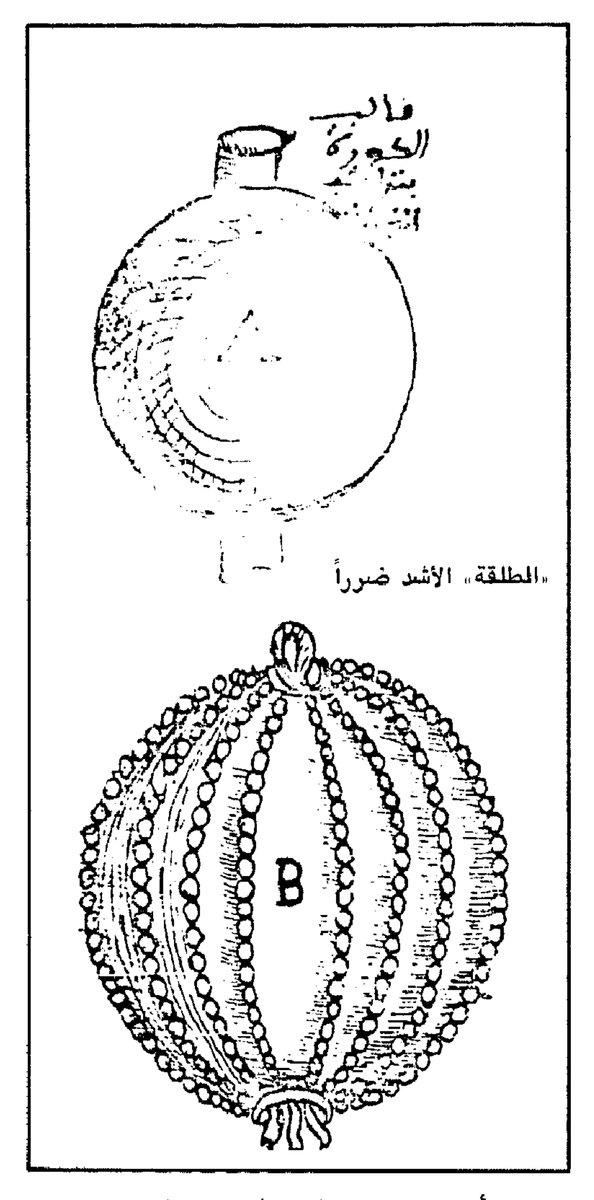
من لا يعرف الا مسألة واحدة، وهي انه يحكم ببصره ان لون المدفع المعدني (اي البرونزي) اخضر، والذي هو من حديد، فهو اكحل، [اي اسود]، ولا يفرق بين انواعها، ولا هل هو قلبرين (يقذف كتلا معدنية) او مدفع حجري، ولا بأي مقدار تكون عمارته من البارود، او يقطع القياس لمغرفته ـــ ومنهم من سماها قبشة ـــ ولا بأي نقطة من الربع يرمي عليها، اعني يأخذ القياس عند الرمي، ولا يعرف يأخذ مقدار السرير ليعطيه للنجار ليعمله، ولا لغير ذلك من الاشياء التي تتعلق بالصناعة» يكون ضرره عظيما. وبعد هذا وصف حالة سلاح المدفعية في تونس العثمانية وعقد مقارنة بين وضع هذا السلاح في اسبانيا والاراضي العثمانية وتألم لتدني مستويات التدريب عند قومه وعلومها عند أعدائهم، وهنا وصف طرائق التدريب على المدافع في اسبانيا، وهذا الوصف كبير الاهمية لان مادته وثائقية نادرة.

ومن خلال حديث المؤلف عن استخدامات المدافع نلاحظ ان المدفع قد حل في بداية استخدامه محل المنجنيق، والبارود قوة قاذفة لكتل كبيرة من الحجارة او المعادن، وليست هنا مادة مفجرة او حارقة، فالتهديم يتم بفعل الصدمة وليس بغير ذلك.

وعلى الرغم من هذا نلاحظ نوعا من التطوير بجعل الكتلة المقذوفة تقوم بوظيفة مزدوجة: تصدم وتحرق، او تفجر في نفس الوقت.

وانتقل بعد هذا الى الباب الثاني، وهنا بخلاف الباب السابق، نجد هذا الباب اكثر تخصيصا واقل عموميات، وقد تناول اولا مسألة صنع المدافع البرونزية فذكر ان كل عشرة أوزان نحاسية نقية يضاف اليها وزن واحد من القصدير، لكن اذا كان المدفع المنوي عمله سيعتمد فيه على قطع معدنية لمدفع قديم فهنا «لكل مائة جزء خمسة اجزاء من قصدير، واقل من ذلك يكفي».

ثم أوضح ان مهمة رجل المدفعية الاولى اصابة الاهداف وحتى يتحقق له ذلك عليه ان يفرق «بين المدافع في طولها وعرضها وغلظها، وهل هو في اجزاء تركيب معدنه على القانون ام خارجا عنه، وهل هو مستوي في باطنه ام هو في



«المطلقة» الأشد ضرراً

جانب أعرض من جانب اخر، وهل هو متين او رهيف، وهل هو صحيح في ظاهره وباطنه».

وأوضح ان انواع المدافع اثنان وثلاثون نوعا، وان على العامل بسلاح المدفعية ان يتقن جميع المسائل بأخذ المقاييس وتقدير مسافات الأهداف وانواعها، ذلك ان ما ترمى به الأسوار هو غير ما يحتاج اليه ضد السفن او ابواب القلاع.

وانتقل بعد هذا الى مسألة اخرى اعتبرها هامة تتعلق بنقل المدافع فأوضح أنه «ينبغي للمدافعي ان يعرف يعمل قنطرة لجواز واد، وصندلا او قاربا ليعبر بالآلات «التي تساعد على حمل المدافع، ثم عليه قبل السفر لأي مهمة ان

يكتب بيانا بجميع مايحتاج اليه «من البارود والرصاص والكور، وغير ذلك».

وختم بعد ذلك هذا الباب بالتذكير من جديد بأهمية المدافع وذلك بقوله: «واعلم ان صناعة الحرب البارودية هي الآن افضل من جميع الاسلحة الموجودة الآن للحروب التي هي يخاف الناس منها أكثر من غيرها».

ولقد وقف الباب الثالث للحديث على أنواع المدافع التي ذكر في الفصل السابق بأن عددها «اثنان وثلاثون»، وهنا اوضح ان الخلاف بين الأنواع اساسه طول المدفع وغلظه وان هذا يتحكم بطبيعة الوظيفة التي يمكن ان يقوم بها كل نوع، ولذلك على رجل المدفعية ان يعرف كمية البارود التي يحتاجها كل مدفع من المدافع، لأن الجهل هنا يؤدي الى كسر المدافع وايقاع الضرر بالصديق قبل العدو.

وانتقل بعد هذا الى الباب الرابع ليتحدث فيه عما دعاه باسم عملية تثليث المدفع، واوضح ان التثليث «يسمى بذلك لأنه يكيله في ثلاثة مواضع تجريبا للمدفع الاول عند زك [تقرأ: زج] المدفع، وهو موضع قعر الجعبة، والثاني عند أذني المدفع، والثالث في عنقه، واذا عرف غلظ المعدن الذي في تلك المواضع، عرف العمارة التي يحتاجها من البارود، لئلا ينقص ولا يزيد على ذلك».

وبعد هذا الشرح تحدث بشكل فني بحت عن تثليث كل نوع من الاثنين والثلاثين نوعا من المدافع، واستخدم الآن للمرة الاولى الصور الشارحة، والمدافع التي ذكرها هنا تستخدم مقذوفات حجرية، ولذلك وقف الباب الخامس للحديث عن تثليث المدافع «التي ترمي كورة من حديد» وهي «مصنوعة لهدم الاسوار والحصون»، و«تسمى بقنون (Canon) بالمعجم».

ولقد اوضح ان كثرة استخدام هذه الانواع تسبب سخونة السلاح، وبالتالي تعرضه لمخاطر التفتت وتجعل فاعليته قليلة، ولذلك ينبغي تبريده، ويكون ذلك «بخل او ماء».

وحيث ان كل مدفع مهما كان نوعه لا بد وان يحمل على قاعدة مناسبة بشكل متوازن تمكن من القيام بالرمي بشكل يفي بالغرض، فقد وقف مؤلفنا عند هذا الموضوع ودعا القاعدة التي تحمى المدفع باسم «السرير» وأوضح في الباب السادس ان نقطة الارتكاز والتوازن لكل مدفع على سريره هما «أذناه» فبدونهما «يكون المدفع اثقل من جانب واحد او يميل الى جانب دون اخر او يقع على فمه ولا يجلس الى ورائه».

ولتحديد مكان الاذنين لكل مدفع «يقسم المدفع على سبعة اجزاء، وتثبت الاذنين في اخر الثلاثة اجزاء، والابتداء للعد يكون من ورائه من جهة الخزانة، والاربعة اجزاء تكون الى جهة الفم».

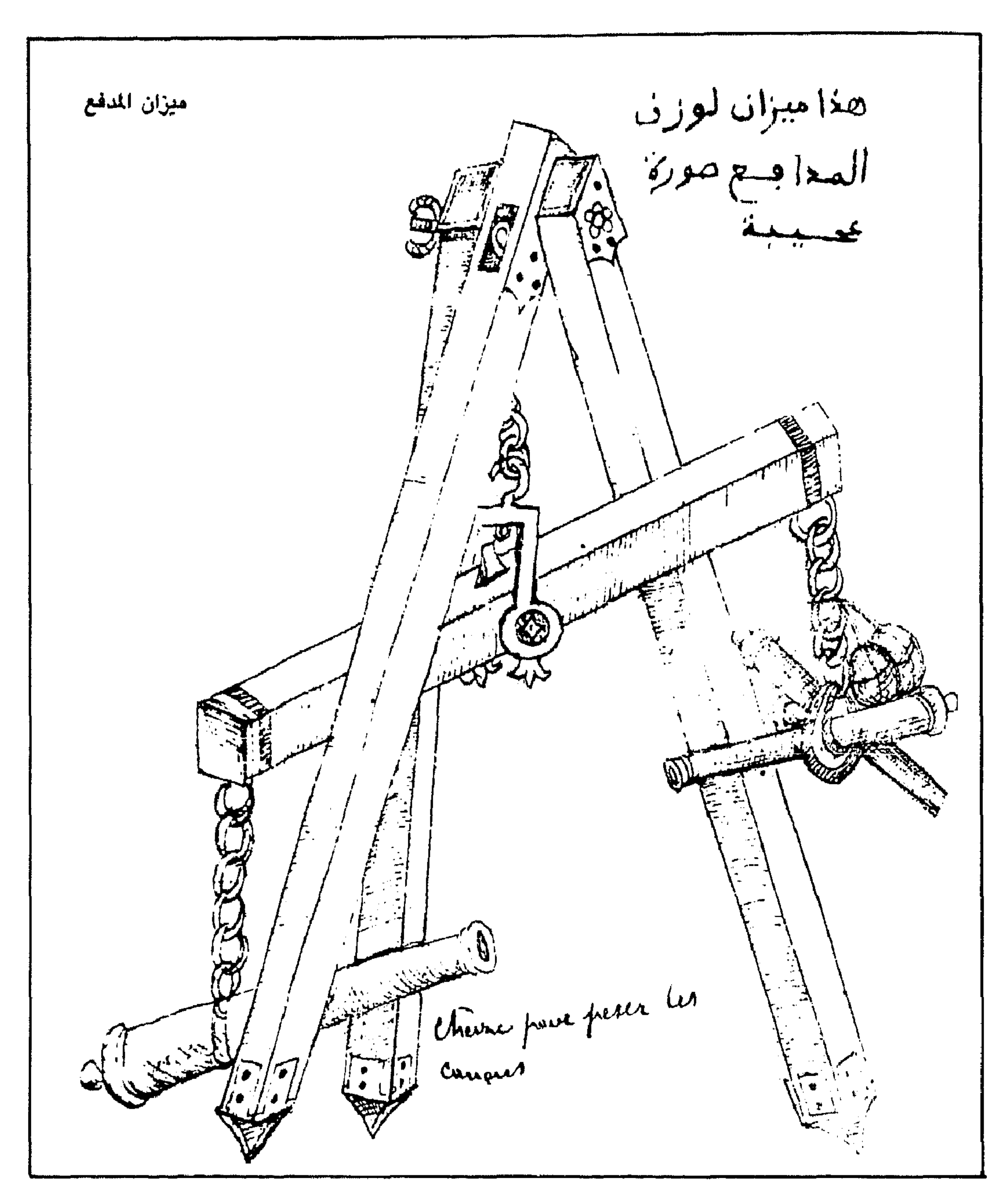
وقد جره الحديث عن الأذنين الى عقد مقارنة بين جميع انواع المدافع في ايامه وتبيان افضلها عند خبراء المدفعية الاوروبيين، وكان هؤلاء الخبراء يفضلون المدافع الطويلة على سواها، فقام مؤلفنا العربي بمناقشة آراء هؤلاء الخبراء على ضوء تجربته الخاصة فقال: «وظهر لي ان للمدفع الذي يرمي بكورة كبيرة اذا سقط له الثمن يبقى غاية في الجود».

وكرر بعد هذا بعض المعلومات السابقة واعتذر عن عملية التكرار، وحاول تسويغها بأن التكرار يثبت المعلومات ويفيد المطالع.

وقام في الباب السابع بالحديث اولا عن تثليث نوع خفيف من المدافع دعاه باسم «الرهيف» وبين ان هذا النوع كان مفضلا في القديم خاصة من قبل رجال الاساطيل البحرية، ثم تحول ليقف طويلا عند تحديد كميات البارود اللازمة لاستخدام هذا النوع وبين كيفية ذلك، وختم الباب بتقديم صور ثلاث لثلاثة أنواع رئيسية من المدافع.

وانتقل الى الباب الثامن ليتحدث عن نوع من المدافع يرمي مقذوفات معدنية فقد دعاه باسم «الناقوص» لان خزانته التي يوضع بها البارود على شكل ناقوس فمه المتسع الى الاعلى «وقدر ما تمر الى القاع تضيق الخزانة، وحيث هو موضع التعب للمدفع زادوا هناك شيئا من المعدن».

وشرع في الباب التاسع بالحديث عن نوع من المدافع دعاه باسم المخزنية (نسبة الى المخزن الدولة او الحكومة في المغرب) فذكر ان هذا النوع «أملس في داخله، وهو صعب للتعمير



ميزان المدفع

وقليل من يعرفـه، واذا كان في وقت الزحـام فيعمر بسرعة بسبب ان الخزانة هي ضيقة ولها حاشية في اولها في داخل الجو «الفراغ» للجعبة فيلطم طرف المغرقة فيها، ويظن المدافعي انه بلغ بها الى موضعها فيترك هنالك البارود».

واوضح هنا ان ابقاء خزانـة البارود غـير معمرة تماما يبقى كميات من الهواء في داخلها مما ينجم عنه تحطيم المدفع «لأن الهواء الذي عمر ذلك الفراغ اذا قام النار في البارود فيفر الهواء ويطلب الهروب من الذي هو وراءه، فيجد السد أمامه بالكورة... فبقوة النار وسرعتها من البارود المشعول، فلا يصبر الهواء على من هو قدامه يمنعه، فيهرس الجعبة في الحين، وهذا سببه، وبذلك قلت وأنذرت لمن هو ملازم لهذا النوعين من المدافع وهما الناقوصي والمخزني أن لا يغفل ويقطع لها مغارفها كما ذكرنا».

وتحدث في الباب العاشر عن نوع من المدافع هائل الحجم دعاه باسم «المدفع القتال بالنظر» ووصفه بأنه أقوى المدافع وأصبرها وافضل واحسن ماوجد في انواع المدافع الى الآن، وهو نوع لا يوجد الا القليل منه، وهو «يرمي كورة من حديد تزن مائة وخمسين رطلا» واحيانا مائتين «ويضعونه على خشب عظيمة اذا أرادوا الرمي به، او تحريكه من موضع الى اخر، وتارة يجعلونه على الأرض ويرمون به في وقت واحد، تخلي المدافع الكثيرة، ولا يخفى مايهدم من الاسوار، لانها تخربها وتردها ارضا دكا، وبالقليل من الرمي به يقضون غرضهم، وهذا فعله وهو خير ما ظهر في الدنيا، ولا يخفى ما ينفق في تحريكه من موضع الى موضع، فضلا عن انشائه وتفريغه وتوضع فيه عمارته بشقاء كثير لأن البارود يكون كثيرا لكل عمارة، فيحتاج اكثر من ستة مغارف، والمغرفة من نحاس والعصا فيثقل مثل ذلك، فاذا دخلوا البارود، فآخرون يجمعونه الى قعر المدفع بالمدكات، وكما ان نتيجة فعله عظيمة فكذلك شقاؤه وتصاريفه كثيرة».

ان الاستمرار في عرض ابواب الكتاب واحدا تلو الاخر، سيطيل حجم هذه الدراسة ويحولها الى كتاب قائم بذاته، لذلك سأقف عند هذا الحد من التسلسل واختار بعضا من الابواب المتبقية بحيث يمكن منها الخروج بتصور كاف لمحتويات الكتاب.

واستعرض الان محتويات الباب الرابع عشر، ففي هذا الباب تحدث عن صناعة اسرة المدافع، فبين اولا ان افضل انواع الاخشاب من «النشام والبلوط والجوز» ونصح ان تقطع الاخشاب من اشجارها في شهري كانون الاول وكانون الثاني «وبعد القطع فيجعلونها في صهريج ماء بحيث لا يضرها الريح ولا الثلج ولا العقد، فتكون أصبر ولا تعفن ولا تأكلها الدودة» ونصح بأن يكون طول الواح السرير بطول المدفع مرة ونصف «ليدوم السرير ويسهل تحريك المدفع من جهة الى اخرى» وقال بأن سماكة الألواح ينبغي ان تكون قدر قطر فم المدفع، ثم بين قدر عرض السرير وكيفية صنعه بشكل متين واسهب في هذا المجال اسهابا كبيرا يدل على فهم هندسي رائع.

واذا كنا قد رأينا مؤلفنا في الباب الرابع عشر مهندسا من الطراز الامثل، بارعا في صناعة القواعد ويفقه بصناعة الاخشاب، فاننا نجده في الباب الثالث والعشرين يحسن فهم صناعة المدافع بقدر مايعرف استخداماتها، فقد بين ان

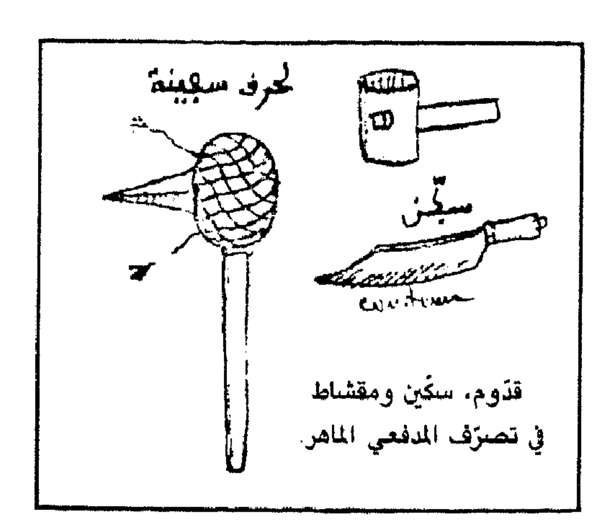
المدفع ينبغي ان يحوي من المعدن «ما يكفي ليصبر للبارود من الكسر لئلا يكون المدفع رقيقا وينكسر ولا غليظا زائدا مما يحتاج فيثقل عن التحريك» «وهنا اوضح ان أفضل المعايير ان «يعطي لكل رطل... من ميزان الكورة ستة وستين وثلاثمائة رطلا من معدن ولزيادة ايضاح ان للقلبرينة (أحد انواع المدافع) التي ترمي كورة من خمس وعشرين رطلا فيكون مدفعها اذا اتقن المذوب صنعه من احدى وتسعين قنطارا وخمسين رطلا، وهذا القناطير هي من ارطال كل رطل من ستة عشر اوقية، وارطال الكور كذلك واحترزت بهذا التبين مما يذكر بعض المؤلفين ان الرطل عندهم من اثني عشر اوقية».

وشرع بعد هذا بتعداد انواع المدافع وذكر وزن كل منها ووزن «كورته» ومما تحتاجه كل طلقة من البارود، وكان قبل ذلك قد نبه «على مسألة وهي ان أراد احد ان يعرف اي كورة من جميع المدافع هي تهدم في السور اكثر من سائر الكور، وتظهر قوتها ونتيجتها، وأقول ان ليس في جميع المدافع من يرمي كورة أقوى وأبعد، ويظهر نجابته ونتيجة فعله مثل المدافع القلبرينة التي ترمي كورة من خمس وعشرين رطلا، وهي اقوى وابلغ من المدفع الذي يرمي كورة ثلاثين رطلا من جنس القلبرينة ومن الذي يرمي اربعين وخمسين رطلا وستين، الا ان الكورة قدر ماتكون اكبر تهرس وتهدم اكثر وتوقع الحيطان، واذا كان الاشتغال بهدم سور ولا ان يكون الرمي بالمدافع التي ترمي من ثلاثين رطلا فأقل، لانها تخرب الاركان والاساس، ثم تخلي المدافع الكبار في دفعة واحدة، وتهدم جميع الحيط والسور وتوقعه، تتركه دكا».

ووقف المؤلف الباب التاسع والعشرين على كيفية تبريد المدافع من كثرة الرمي بها من غير توقف، «ويحتاج المدافعي يرفق بها لأن المدفع من كثرة الرمي يسخن من النار حتى يكون لونه كعنق حمام، لا سيما في عنقه لقلة معدنه، واذا شحن المدفع كثيرا تنقص قوته في الرمي ويتعرض للكسر، ولإصلاحه من هذا العارض ينبغي له... ان يبرده بماء بارد وافضل من ذلك بالخل ممزوج معه ماء، فتكون له سلكتين ام ثلاثة تدخل في اناء كبير الماء، ثم يغسل بها المدفع، ثم ينشفه في باطنه بسلكة ويكنسه بها من الوسخ الذي يكون فيه من كثرة الرمي ويجعل عليه بعض الحوائج من صوف... منقوعة في الماء ليبرد ويدوم عليه حتى يرجع الى اصله».

ولقد اوضح قانون الرماية هو «كل ساعة خمس رميات، واذا كان اليوم من اثنتي عشرة ساعة فيرمي بكل مدفع ستين مرة وتبرد كما قلنا، واكثر مايرمى في كل ساعة ستة مرات، وبعض المؤلفين الذين تكلموا بالعلم وبما ظهر لهم قالوا: ان في كل يوم يرمي المدفع مائة رمية».

ووقف المؤلف الابواب: ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ على «معرفة البارود» وتركيبه واستخراج مواده الأولية، وفحصه واختبار جودته واصلاحه بعد فساده والح على ان «معرفة البارود هي من اكد الاشياء للمدافعي لانه به يكون العمل، فان كان جيدا فيقضي الغرض وان كان دنيا فلا يقضي شيئا ولا يأمن احد للبارودي اذا قال «ويركب البارود من ثلاثة عناصر رئيسية هي ملح البارود والكبريت والفحم، وتكون نسبة التركيب «ستة اجزاء من ملح البارود وجزء من كبريت وجزء من فحم» ويستخرج ملح البارود كما يستخرج الملح العادي ويجمع من على سطح الارض ومن علاماته ان المواضع التي يكون فيها في زمن الصيف تكون الارض على لون عنق حمام، وفيه بعض اللمع كأنه أهرق فيها زيت، وفي الارض الذي يكون في الفحص غالبا منقوعا ويجري عليه الماء فلا يوجد هنالك ملح لأنه يذهب به الماء، ولو كان تحت كان اكثره ملح بارود، وايضا في بعض



قدّوم، سكّين ومقشاط في تصرّف المدفعي الماهر.

الغيران... وفي المواضع التي تستقر فيها الغنم لأن بقوة أبوالها يتربى فيها لاسيما اذا تبيت في الغيران او مواضع مغطية حيث لا ينزل عليها الشتاء».

وتعتبر محتويات البابين «الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين» من اهم واخطر ماجاء في الكتاب، ففيهما دلالة على تحول نوعي في استخدام قذائف المدفعية بصنع قذائف تنفجر فتسبب القتل والحرق او للاضاءة في القتال الليلي، وبابداع انواع من القذائف ترمى بواسطة اليد.

واثناء حديث المؤلف عن جميع هذه الانواع وتبيان كيفية صنعها وتركيب حشواتها لم يفته الحديث عن «النيران التي ترمى في ايام الفرح والمواسم التي تصعد في الهواء».

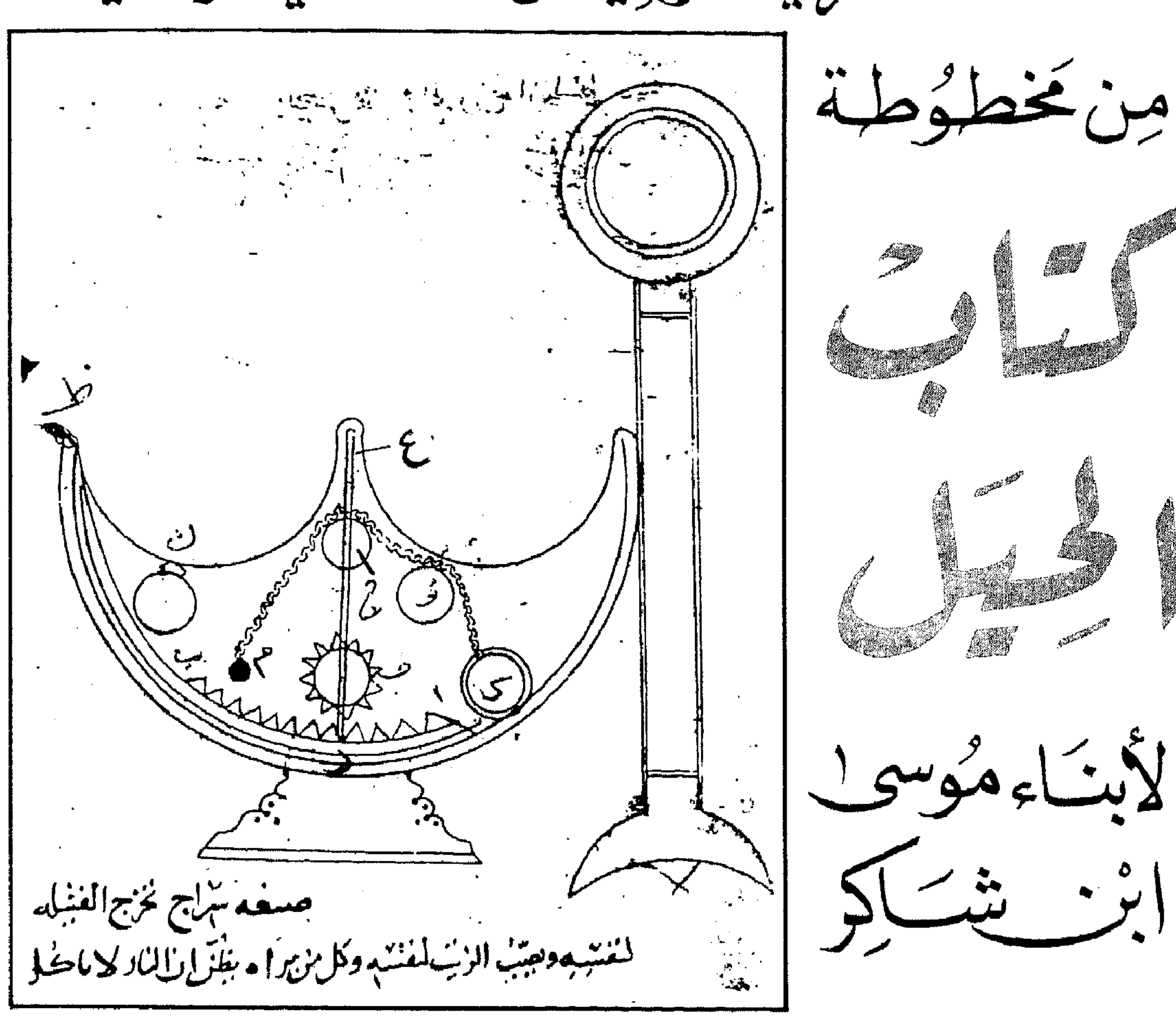
واذا كان كل ماذكره المؤلف حتى الان هو اصلا وسائل للقتال الهجومي، فاننا نجده لا ينسى وسائل الدفاع والتمويه، وهذا ماتحدث عنه في الباب «الواحد وأربعين» والحديث هنا له الصفة الهندسية، وفي الحقيقة نلاحظ أن هذه الصفة قد طغت على بقية ابواب الكتاب. هذا الكتاب الرائع الذي لا يوجد له نظير في قدمه ومحتواه في اية لغة اخرى، لذلك إن الحديث عنه في مقال واحد لا يكفي، وكل ما استهدفته حتى الآن مجرد التعريف الاولي، ذلك انه عندما ينشر نص الكتاب سيجد فيه المختصون العسكريون العرب وسواهم مادة مفيدة تعلن للدنيا ان هذه الامة التي كانت في الماضي سباقة في كل الميادين ليست فقط الان قادرة على اللحاق بركب الحضارة الحالي وانما على قيادته. ■

مُقتطفات طريفة وحيل مُسلّية ومُفيدة

مِن مخطوطة

كتاب الحِيَل

لأبناء موسى ابن شاكر



تحقيق د. مُنى سنجقدار شعراني

لكي نفي هؤلاء الأخوة الثلاثة حقهم في ميدان علم الحيل الميكانيكية، لا بدّ لنا من متابعة البحث في مخطوطتهم الشهيرة «كتاب الحيل» التي تحتوي على وصف لمئة حيلة متنوعة منها المفيدة المسلية السهلة التركيب ومنها الغريبة المعقّدة الصعبة التحقيق. ولكن جميعها إن دلّت على شيء، انما تدل على عمق في التفكير، وسعة في الخيال ودراية عميقة في المعلومات العلمية. حتى ان هؤلاء الأخوة استطاعوا تطويع النظريات العلمية وفقا لرغباتهم الشخصية وتبعا لأهوائهم فسرحوا بعيدا في خيالهم وحاولوا تحقيق ما تاقت اليه انفسهم من حيل وما راود خيالهم من تركيبات.

■ د. منى سنجقدار شعراني

ليسانس فيزياء من كلية العلوم ـ الجامعة اللبنانية استاذة في كلية التربية. دكتوراه من معهد الدراسات العليا في باريس. أسهمت باصدار كتاب «العلوم الفيزيائية ـ سنة أولى» الصادر عن الجامعة الاميركية ـ إدارة العلوم. اشتركت بعدة دورات تدريبية ومؤتمرات علمية في مختلف أنحاء العالم العربي.



هذا ابريق نستطيع ان نصب منه ومن فتحة واحدة تارة ماء حارا وطورا ماء باردا، وذاك ابريق آخر نحاول صبّ الماء فيه بصورة متواصلة فُيتقبل، اما اذا قطعت الصب واعدته مرة ثانية رفض استقبال الماء.

هذه جرة تحتوي عدة انواع من الشراب دون ان تمتزج وتستطيع ان تصب منها ومن فتحة واحدة النوع الذي تريده وتلك اخرى تصب منها مقدارا معينا من الماء ثم ينقطع الصب تلقيائيا ثم تصب ثانية نفس المقدار وهكذا حتى يفرغ كل ما فيها، دون اية حاجة الى مكيال معين.

هذا تمثال وحشي يرفض شرب الماء اذا لم تشرب الحيوانات الصغيرة وتلك آخر يزمجر غاضبا اذا حاولت بقية الحيوانات ان تشرب.

هذا قدح يخيل للناظر اليه بأنه فارغ واذا ما حاول الشرب منه روى ظمأه وهذا آخر تراه ملآناً ولكنك لا تستطيع الشرب منه.

هذه قنينة تمتلىء اذا صببت فيها قدرا معينا من الشراب، فاذا ما قلبتها قبلَت كمية اكبر من الأولى، وتلك اخرى يصب من رأسها الشراب والماء من موضع واحد فاذا قُلبت يخرج منها مقدار من المقادير شراب ثم ينقطع من نفسه فاذا اعيدت ووضعت على الأرض ثم حملت وقلبت ثانية انصب منها في القدح ماء بمثل ذلك المقدار وينقطع فاذا وضعت ايضا ثم حملت وقلبت خرج شراب وكذلك لا يزال فعلها حتى ينفذ الشراب والماء الذي فيها.

هذه جرة لها بزالان [١] وفيها نوعان من الشراب فاذا ما فتح البزالان سال من كل واحد منهما نوع معين من الشراب، وتلك اخرى لها بزالان ايضا مغلقان وفي عروتهما [٢] ثقبان صغيران خفيان. اذا صب فيها الماء والشراب ثم فتح البزالان فانه يجري منهما الشراب ممزوجاً بالماء، فاذا سد احد الثقبين وفتح الآخر يخرج من احد البزالين شراب ومن الآخر ماء.

هذه اجانة [٣] تصب فيها رطلا او رطلين من الماء وتستطيع ان تروي الف او الفي دابة وتلك اخرى يصب فيها الماء في فم تمثال فاذا اخذت منها مقدارا معينا من الماء صب التمثال من نفسه كمية مماثلة واذا اخذت كمية اكبر غضب التمثال ولم يصب شيئا.

وبعد هذه المجموعة الضخمة من الأباريق والجرار والقناني والاجانات انتقل ابناء موسى الى حيل اكثر حيوية فوصفوا فوارات [٤] على اشكال مختلفة. هذه فوارة على شكل ترس واخرى على شكل سوسنة [٥] ثم تطرّقوا الى وصف القناديل. فهذا قنديل يتغذى من نفسه ولا ينطفىء مطلقا وذاك سراج يخرج الفتيل من نفسه ويصب الزيت من نفسه وكل من يراه يظن ان النار لا تأكل الفتيل.

هذا مجمل ما وصفه ابناء موسى بن شاكر في مخطوطتهم «كتاب الحيل» الموجودة في مكتبة الفاتيكان تحت رقم ٣١٧.

قد يخيل للقارىء في بادىء الأمر بأن جميع تلك الحيل والتركيبات هي للتسلية فقط وليس لها من المنفعة شيء يذكر. لذلك لا بد لنا من التذكير بالعصر الذي عاش فيه هؤلاء الأخوة، انه القرن الثالث للهجرة حيث كثرة الحاجة لاستعمال الأواني في المجتمعات والمساجد والمنازل. منها ما كان يستعمل للشرب والوضوء، ومنها ما كان يحتاج اليه للدواب. وكذلك الأمر بالنسبة للنافورات والقناديل.

اذن فمن الطبيعي ان يهتم ابناء موسى بهذا النوع من الحيل الميكانيكية. والجدير بالذكر بأن قيمة البحث او الاكتشاف لا تقاس بالنسبة لعصرنا الحاضر، بل بالنسبة للعصر الذي عاش فيه الباحث او المكتشف فنعرف بذلك مدى عمق تفكيره وبُعد الأهداف التي يبغي تحقيقها.

هذا وان العصر الذي عاش فيه هؤلاء الأخوة كان عصرا ميتا بالنسبة للعلوم الميكانيكية، ولم يكن هناك من قاعدة يرتكز عليها في هذا الميدان سوى ما ورثه العرب من العلوم اليونانية، والمعلوم بأن اليونان اهتموا بالنظريات وكانوا بعيدين اشد البعد عن التطبيق العملي.

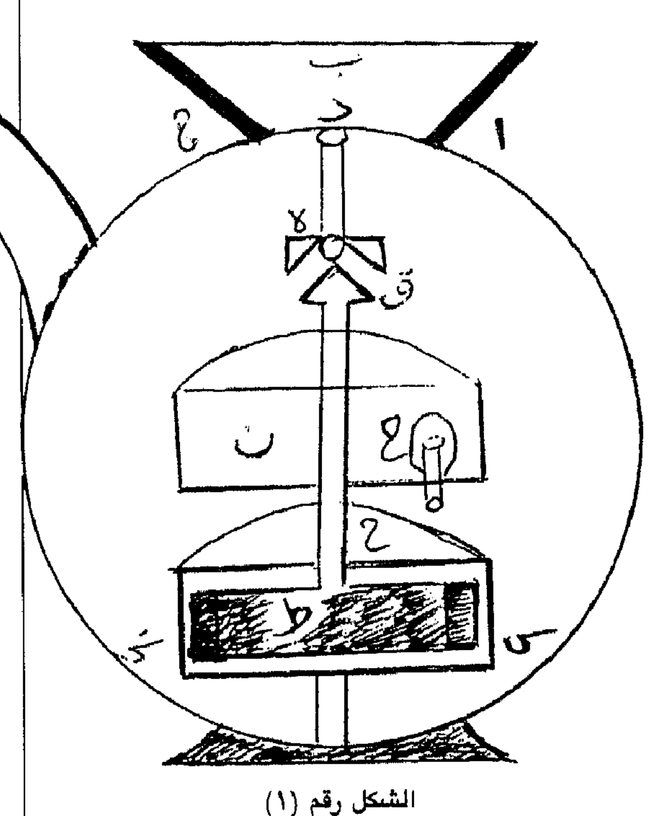
لكي نعطي فكرة واضحة عن تلك الحيل لا بد لنا من شرح بعضها. هذا واننا عمدنا الى نقل النص كما ورد في المخطوط مع ملحق قصير للتفسير.

اما بالنسبة للنماذج المختارة من المخطوط فمنها السهل الواضح ومنها المعقّد واننا نعتذر

مسبقـا من القـارىء الكـريم لاختيـار بعض النماذج المعقّدة ولكن الهدف من عرضها هو إظهار براعة الحيلة العلمية التي اعتمدها ابناء موسى بن شاكر.

نماذج في وصف الأباريق
النموذج الثاني في المخطوط

صنعة اخرى للابـريق الذي اذا صب فيه الماء صبا متصلا قبل مايصب فيه ومتى قطع عنه الصب ثم اعيد اليه لم يقبل ما صُب فيه. مثال ذلك (راجع الشكل رقم ١).



الشكل رقم (١)

ابـريق (آ ب ج)، ويلصق على رأس فـوهته او في بعض عنقه صفيحة كما فعلنا قبل وعليها (آ ج) ويثقب في الصفيحة ثقب عليه (د) ويخرج منه انبوب متصل به عليه (د ة) ويركب عـلى طرفه الذي عليه (ة) الأنثى من باب مطحون ويلصق الأنبوب لصاقا محكما وليكن حلقة الباب على مثال ما في الصورة ويكون الذكر من الباب عليه (ق) وليكن تحت هذا الانبوب حوض عليه (ن) وتحت هذا الحوض دبة عليها (ط) وليكن مساحة دبة (ط) مثل مساحة حوض (ن) او اقل منه بشيء قليل وليكن بين الدبة وحوض (د) قضيب قائم (ح) ملتصق عليهما جميعا وليكن في وسـط حوض (ن) ايضـا قضيب ملتصق بأسفله ويلصق على طرف هذا القضيب الذكر من الباب وهو الذي عليه (ق) وليكن دبة (ط) في حوض آخر عليه (س ش) وليكن مقدار هـذا الحوض بقدر مايصعد فيـه دبة (ط) وينـزل بحركة سهلة وليكن حوض (س ش) قائم على هـذا القضيب ثـابت لا يتحرك عن مـوضعه. ويعمل في حوض (ن) انبوب مثل انبوب يصب الى حوض (س ش) وليكن ارتفاعه بقدر ارتفاع حوض (ن) او قريب من ذلك. فقد يبين ممـا وصفنا ان الماء او غيره من الرطوبات اذا صب في ابريق (آ ب ج) نزل في انبوب (د ة) الى حوض فـاذا امتـلأ حـوض (ن) انصب الماء في انبـوب العمـل الذي عليـه (ح) الى حـوض (س ش) وحوض (س ش) يفيض منه الماء اذا امتـلأ الى ابريق (آ ب ج) فمتى قـطع الصب يفرغ كل شيء في حوض (ن) من الماء وارتفعت بذلك دبة (ط) ورفعت معها حوض (ن) لأنها متصلة به وينطبق الذكر الذي عليه (ق) على الأنثى عليها (ة) فمتى صب الانسان مرة ثانية لم ينزل منه شيء لأن طرف الانبوب الذي عليه (ة) مسدود وقد يبين مما وصفناه انه اذا قلب الابريق ثم صب فيه مرة ثانية قبل ايضا لأن الحوض (س ش) ينفرغ وتنزل الدبة ويكون كما كانت قبل ان يصب فيه شيء، وذلك ما اردنا ان نبين.

التحليل العلمي لكيفية عمل الابريق

في بادىء الأمر يكون الابريق فارغا تمـاما كذلك حوض (ن) وحـوض (س ش) لذلك فان الدبة (اي الفواشـة) تكون ملتصقـة بأسفـل حوض (س ش) ويكون بـذلك الباب المـطحون (Soupape) الموجود عنـد طرف انبوب (د ة) مفتوحا. عندما نصب الماء في ثقب (د) يمر في انبوب (د ة) وينصب مباشـرة في حوض (ن) حيث يوجد كأس العدل (ح). عندما يرتفع الماء في حوض (ن) يرتفع ايضا في كأس العدل حتى يبلغ اعـلى الانبوب الصغـير الموجـود داخله.

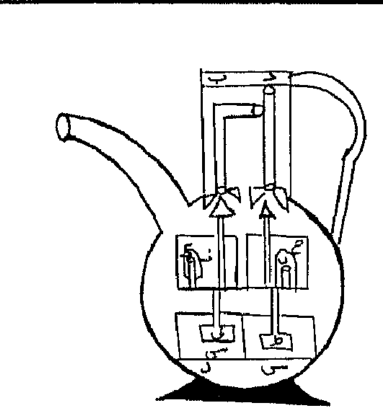
فيفعل ضغط الهواء المحصور داخل الكأس تنساب النقطة الأولى من الماء داخل الانبوب الصغير ويبدأ بذلك سيلان الماء الى حوض (سَ شَ). حيث ان الدبة كما وصفها بنو موسى هي بحجم حوض (سَ شَ) لذلك فان ضغط الماء الذي يصب من اعلى يمنعها من الارتفاع. لكن عندما نقطع الصب يتفرّغ حوض (نَ) دفعة واحدة فيفيض حوض (سَ شَ) وترتفع الدبة (طَ) مغلقة بذلك الباب المطحون الموجود عند (ةَ). لذلك فاذا اردنا إعادة الصب رفض الابريق استقبال الماء.

اذن ان ابناء موسى يرتكزون في هذا التركيب على قوة ضغط الماء من اسفل الى اعلى مطبقين بذلك مبدأ ارخميدس. (Pousseé d'Archimède)، ومن ثم يتبعون مبدأ المضخة المائية.

النموذج التاسع في المخطوط

نكتفي ان نعرض الصورة والوصف كما ورد تماما في المخطوط راجع الشكل رقم (٢).

الشكل
رقم (٢)



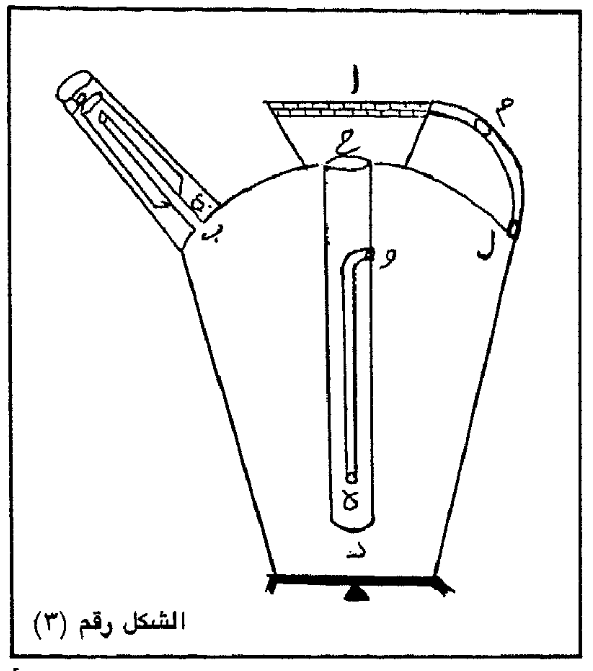
نلاحظ في الشكل بأن الابريق يعمل بطريقة متعاقبة بحيث انه عندما يكون الباب المطحون الذي يتبع الانبوب (دَ) مفتوحا، يكون الآخر مغلقاً. وهكذا فان الفواشتان (طوق) تعملان بنفس الطريقة المتعاقبة لذلك فان العملية المفروضة في الابريق السابق تتعاقب مرتين متتاليتين في الابريق الثاني.

النموذج رقم ١٢ في المخطوط

في هذا النموذج يصف ابناء موسى حيلة مضحكة ومسلّية، تحت عنوان: صنعة ابريق آخر يأخذه الغلام فيوضىء منه من احب ويمنع ذلك عن من شاء فلا يصب على يديه شيء من الماء، ويمكن ان يقول صاحبه انه انما يوضىء المؤمنين ولا يوضىء الزنادقة وما اشبه ذلك.

نعمل لذلك ابريق عليه (آدَ) ولتكن نقطة (آ) عند رأس الابريق ونقطة (دَ) عند الثقب الذي يخرج منه الماء الى البلبلة ويغطي رأس الابريق بصفحة مثقبة عليها (آ) ويلصق ايضا عند عنق الابريق عند نقطة (حَ) صفيحة فيها ثقب واسع عند نقطة (حَ) ونلصق على نقطة (حَ) انبوباً، عليه (حَ دَ) ويكون طرفه الذي عليه (دَ) مسدودا وينتهي الى اسفل الابريق او قريب من اسفل الابريق ويدخل في انبوب (حَ دَ) انبوب ادق منه ويكون اقل منه في الطول شيء يسير عليه (ةَ وَ) ويثقب في اعلى انبوب (حَ دَ) بالقرب من نقطة (حَ) ثقب ويلصق على هذا الثقب طرف انبوب (وَ ةَ) الذي عليه (وَ) ويلصق على الثقب الذي عليه (بَ) انبوب قدر اصبعين طوله او اقل من ذلك عليه (يطَ) في داخل البلبلة ونعمل فوق انبوب (يطَ) انبوب اوسع منه مثل الغلاف في داخل البلبلة ايضا عليه (حَ) وليكن طرفه الذي (حَ) مسدودا وطرفه الآخر مفتوح وليكن عند اسفل عروة الابريق في الموضع الذي يلصق فيه العروة ثقب واسع عليه (دَ) ويثقب في اعلى العروة عند نقطة (مَ) ثقب صغير خفي فاذا صب الماء في الابريق جرى اليه في انبوب (هَوَ) فاذا انقطع الصب واخذه الغلام يوضىء به فاذا ترك ثقب (مَ) مفتوحاً سال الماء فاذا سد الغلام ثقب (مَ) باصبعه لم يخرج الماء، اذا ميل الابريق، من انبوب (يطَ) الى البلبلة لأن الماء

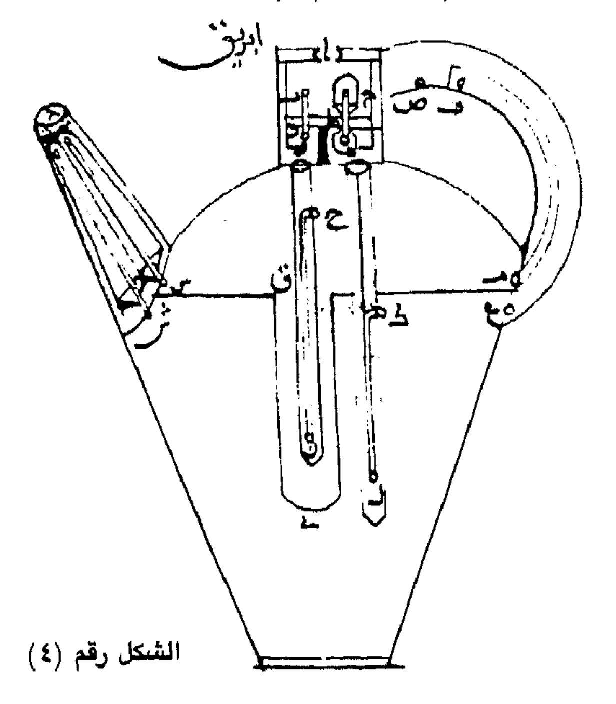
لا يخرج من الابريق اذا لم يكن للهواء سبيل الى ان يدخل الابريق فيكون في مكان الماء الذي خرج منه وذلك ما اردنا ان نبين.



الشكل رقم (٣)

في هذا التركيب يعتمد ابناء موسى على مبدأ واحد وهو ضغط الهواء وتأثيره على المواد السائلة.

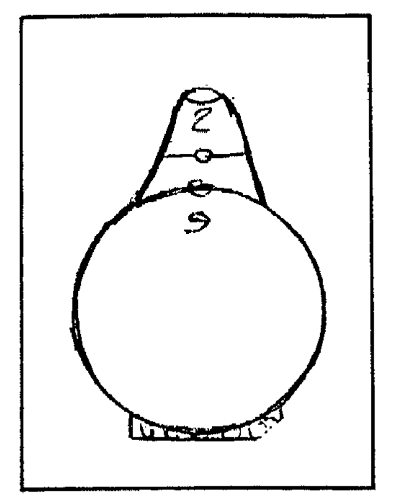
وعلى هذا المبدأ نفسه وبالاستعانة بكأس العدل يضيف ابناء موسى تركيبات اخرى اكثر تعقيدا لذلك نكتفي بعرض شكل إحدى هذه التركيبات. (الشكل رقم ٤).



الشكل رقم (٤)

نماذج في وصف السحارات
النموذج رقم ٢٧ في المخطوط

صنعة سحارة[٦] اذا غمست في الماء سمع منها صفير واذا رفعها الانسان عن الماء ليعمل بها يسمع لها ايضا صفير مثال ذلك (الشكل رقم ٥).



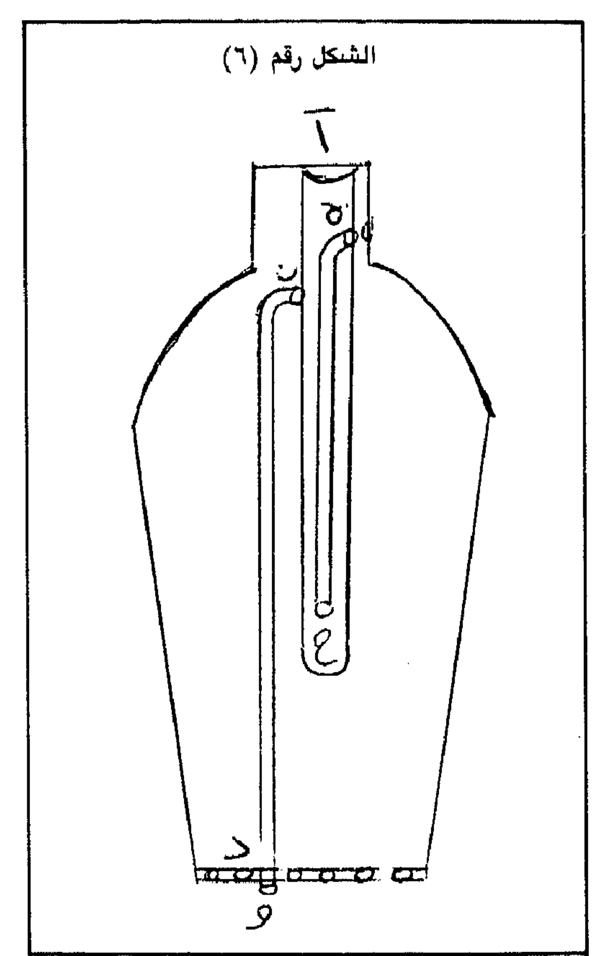
الشكل رقم (٥)

سحارة (حَ طَ) وفي رأسها ثقب عليه (حَ) وفي اسفلها ثقب عدة كما يعمل للسحارات وعليها علامة (طَ) ويلصق في عنق السحارة صفارة عليها (وَدَ) وعلى ثقبيها علامتا (وَدَ) فمتى غمست السحارة في الماء يدخل الماء في الثقب الى السحارة ويخرج الهواء الذي في السحارة في الصفارة (وَدَ) فيسمع لذلك صفير كما يسمع للصفارات اذا نفخ فيها ولو اردنا ان يكون مكان الصفير زمر فعلنا ذلك وذلك ما اردنا ان نبين.

نموذج رقم (٢٨)

صنعة سحارة ان اخذها الحاذق بعملها وغمسها في الماء واحب ان يكون اذا رفعها عن الماء تعمل مثل عمل السحارات ويجري في ثقبها الماء فعل ذلك وان احب ان يكون اذا رفعها عن الماء لا يجري منها شيء فعل ذلك. فنعمل لذلك مثال سحارة عليها (آدَ) وفي رأسها ثقب عليه (آوَ) وفي اسفلها ثقب عدة مثل مايكون في السحارات. ونلصق على الثقب الذي في رأسها انبوباً عليه (آحَ) ويكون طرفه الذي عليه (حَ) مسدود ويخرج من هذا الانبوب انبوب آخر

دقيق يرتفع من اسفله الى اعلاه ويخرج من اعلاه الى السحارة حتى ينفذ اليها وعليه (ح ة). ويخرج من ثقب من الثقب التي في اسفل السحارة وهو الذي عليه (ت) انبوب يرتفع الى اعلى السحارة وينفذ في انبوب (آ ح) وعليه (وَدَنَ). حتى يأخذها الحاذق بها ويغمسها في الماء واحب ان يكون اذا رفعها عن الماء لا يجري منها شيء فينبغي ان نفعل بها احد شيئين. اما ان نغمسها ضربة واحدة حتى يساوي الماء ثقب (نَ) فان الماء حينئذ يرتفع في انبوب (دَ) وينصب الى اسفل انبوب (آ حَ) فيغطي طرف انبوب (ح ة) الذي عليه (ح) فاذا غطاه الماء وارتفع في الانبوب فليس يمكن ان يدخل في السحارة شيء من الماء لأنه ليس الى إخراج الهواء الذي في السحارة سبيل لأن خروجه انما يكون في انبوب (ةَ حَ). فاذا يترك الانسان السحارة في الماء ما احب ثم رفعها فليس يخرج منها شيء على انه انما يكون فيها من الماء شيء يسير. وان غمسها ايضا قليلاً


الشكل رقم (٦)

قليلاً حتى تمتلىء ويدخل الماء ايضا الى انبوب (آ حَ)، ثم يرفعها فليس يخرج منها شيء لأن طرف الانبوب الذي يدخل منه الهواء الى السحارة قد غطاه الماء ومنع الهواء من الدخول الى السحارة. واذا احب ان يغمسها في الماء فيكون اذا رفعها عن الماء يخرج منها الماء مثل السحارات ينبغي ان يغمسها في الماء ولا تبلغ بها الى ان يساوي الماء موضع (نَ) فاذا رفعها عند ذلك يخرج منها الماء كما يخرج من السحارات وقد يقع هذا في باب الاختيار ايضا. وذلك ما اردنا ان نبين (راجع الشكل رقم ٦).

التحليل العلمي للنموذجين ٢٧ و ٢٨

إن النموذج رقم ٢٧ سهل التعليل لأنه من المعروف بأن الهواء موجود في كل مكان، وانه لا بد من وجود ضغط حيث يوجد الهواء. لذلك فان الماء عندما يدخل في الوعاء فانه يطرد الهواء من ثقب الصفارة لذلك يسمع الصفير.

اما النموذج رقم ٢٨ فان تعليله العلمي يعود الى ابعد من ذلك. وهناك تفسير لكل مرحلة من مراحل عمل السحارة.

اولاً: عندما نغمس السحارة بالماء ضربة واحدة يتعثر دخول الماء من الثقوب الموجودة في اسفل السحارة بينما يرتفع الماء في الانبوب (دَ نَ) ويصل الى طرف (نَ) لأن السحارة مغمورة كلها بالماء حتى مستوى (آ بَ). وذلك تبعاً للقانون الأول في الهيدروستاتيك (Hydrostatique). وعند ذلك يفيض الماء من ثقب (نَ) ليدخل في الوعاء الضيق (مَ حَ) فيغطي الماء طرف (حَ) ويمنع خروج الهواء من السحارة. اذن لا سبيل الى دخول الماء اليها.

ثانياً: اما اذا غمسنا السحارة في الماء ببطء فان الماء يدخل من الثقوب الموجودة في اسفلها طاردا الهواء الى الخارج من ثقب (نَ) وعندما يعلو مستوى الماء ويصل فوق ثقب (نَ) يعلو ايضا في انبوب (آ خَ) (وذلك تبعا لمبدأ الأوعية المتصلة) الى المستوى نفسه فيغطي بذلك ثقب (نَ) ولا يعود هناك مجال لوجود الهواء داخل السحارة، اذن لا سبيل لخروج الماء منها.

ثالثاً: اما اذا غمسنا السحارة في الماء رويداً رويداً ولم ندع مستوى الماء يرتفع كثيرا (بحيث لا يصل الى مستوى ثقب نَ) عند ذلك يخرج الماء بسهولة من السحارة اذا ما رفعناها، لأن في داخل السحارة كمية كافية من الهواء، وبفعل ضغط الهواء يخرج الماء من الثقوب الموجودة في اسفل السحارة.

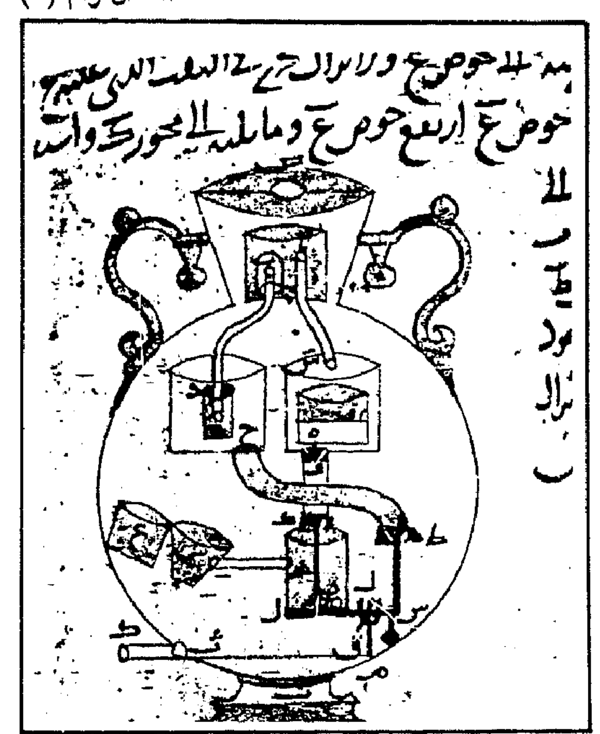
في هذا النموذج البسيط تكمن مقدرة ابناء موسى بن شاكر في إخضاع المبادىء العلمية وفقا لأهوائهم ولتحقيق اغراضهم.

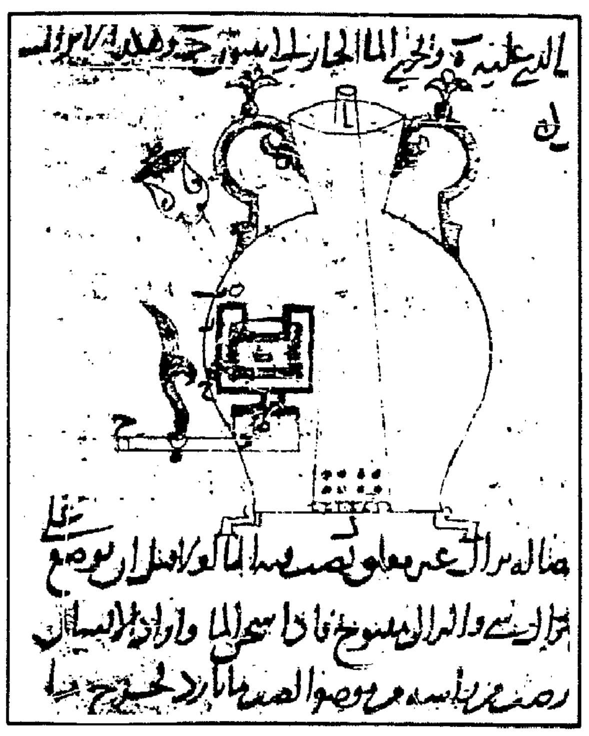
نماذج في وصف الجرار

بعد هذه النماذج السهلة البسيطة ينتقل ابناء موسى في مخطوطتهم الى وصف جرار اكثر تعقيدا تنفع في حفظ الماء حارا لمدة معينة او تحتوي على ماء حار وماء بارد وتستطيع استعمالها كيفما تشاء. وكل هذه التركيبات تعتمد على مبدأ ضغط الهواء او الماء. ثم ينتقلون ايضا الى وصف اجانات تصب الماء من فم تمثال بصورة متقطعة وبمقدار معين.

اننا اخترنا من هذه المجموعة صور النماذج كما وردت في المخطوط دون اي تعليق لأنها معبّرة تماما عن مدى تعقيدها. راجع الشكل رقم ٧ والشكل رقم ٨.

الشكل رقم (٧)

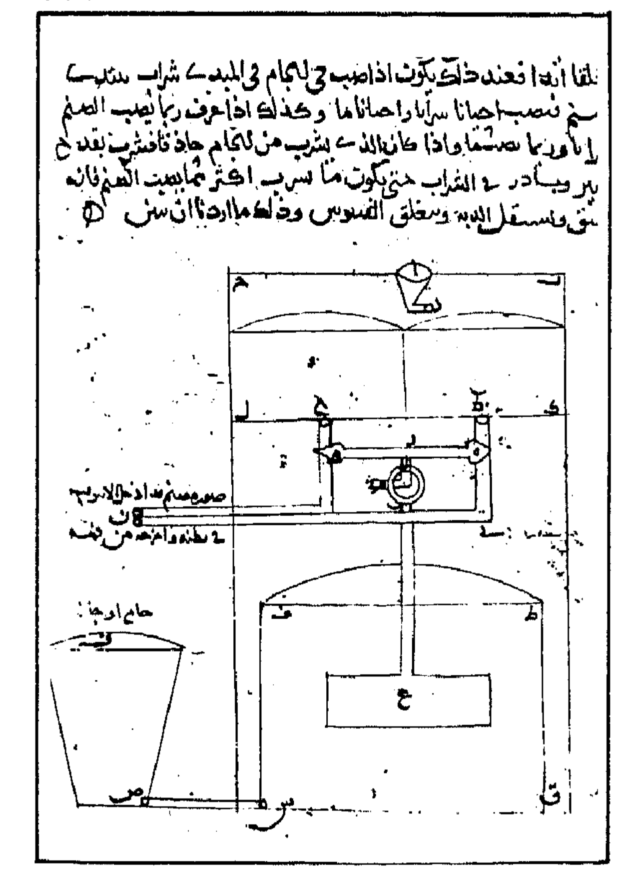




الشكل رقم (٨)

نموذج في الاجانات

الشكل رقم (٩)



نماذج في وصف الفوارات

في آخر المخطوط ينتقل ابناء موسى بن شاكر الى وصف نماذج من الفوارات نختار منها:

ـ النموذج رقم ٩٠:

صنعة فوارة يفور منها الماء كهيئة السوسنة وان احببنا جعلنا الماء يفور منها كهيئة الترس ومثال ذلك انا نعمل فوارة (آ ب) ونريد ان نجعلها أولاً تخرج سوسنة فنقطعها نصفين بصفيحة عليها (ة ق) ونجعل في الصفيحة انابيب كثيرة متفارقة عليها (ح) ولتكن على خط مستقيم على مثال ما صوّرنا. ونعمل شبيها بمخروط ينطبق قاعدته على صفحة (ة ق) ويكون رأسه عند اعلى مثال ما صورنا وليكن الماء اذا خرج من انابيب (ح) جاز في هذا المخروط فخرج متشكلا بشكله ونجعل مصب الماء في خزان (د). فقد يبينّ ان الماء اذا صب من ثقب (د) وخرج من انبوب (د ب) الى فوارة (آ ب) وخرج من انابيب (ح) الى مخروط (هوا) خرج الماء من مخروط (ة ق آ) متشكلاً بشكل (ة ق آ) وهو شبيه بشكل السوسنة وذلك ما اردنا ان نبين. (راجع الشكل رقم ١٠).

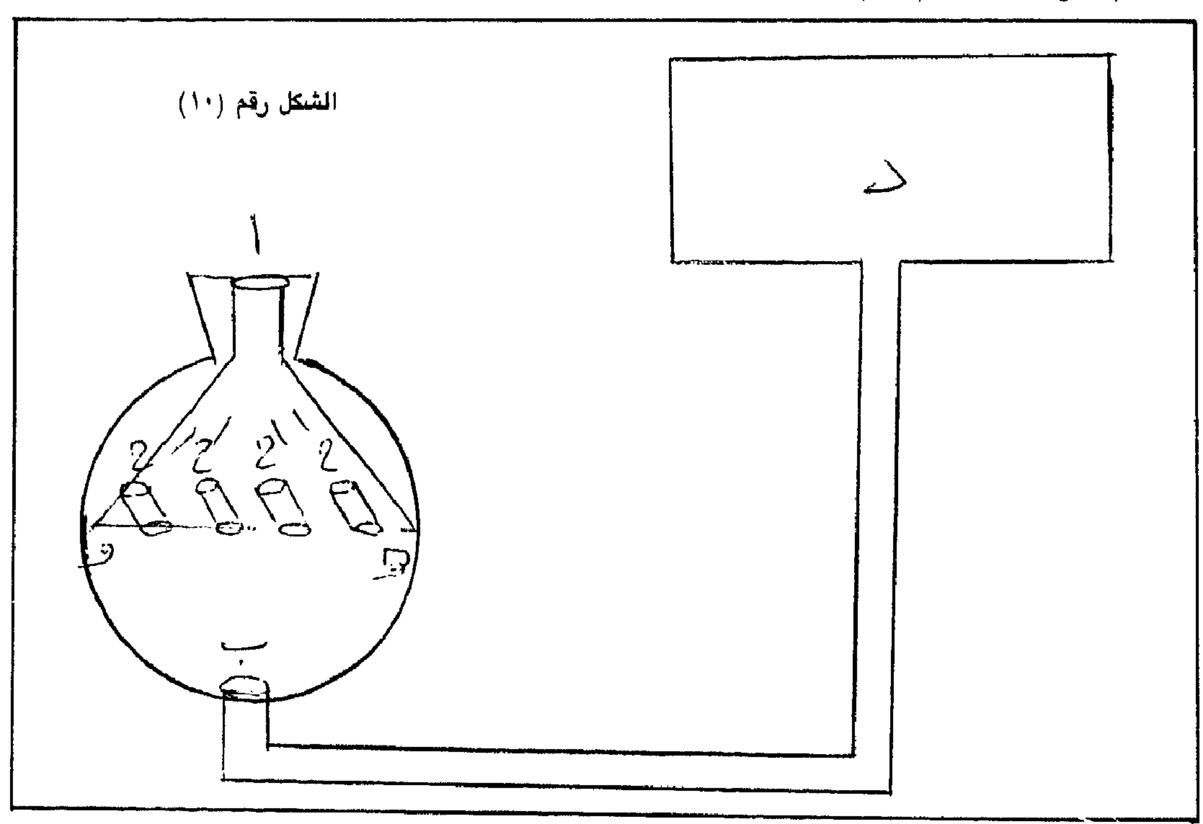
وان اردنا ان نخرج الفوارة على مثال الترس فانا نعيد صورتها كما كان ولا يعمل فيها المخروط ونركب على رأسها صفيحة ولا نلصقها برأس الفوارة، بل ندع بينها وبين رأس الفوارة فرجة كما تدور الصفيحة، وعلى هذه الفرجة (ق) ليكون الماء اذا خرج من انابيب (ح) دار في الفوارة وخرج من فرجة (ق) ونجعل فرجة (ق) ضيقة حتى لا يخرج الماء من هذه الفرجة (قبل ان يضرب بالصفيحة المدورة) حينئذ يخرج بشكل الترس، وذلك ما اردنا ان نبين والسلام.

التحليل العلمي

يعتمد ابناء موسى في هذا التركيب على ضغط الماء. لذلك نرى من الواضح في الشكل بأن خزان الماء اعلى من مستوى النافورة. ومن جهة اخرى ان الانابيب الضيقة تساعد على حصر الماء لتعطيه قوة اندفاع.

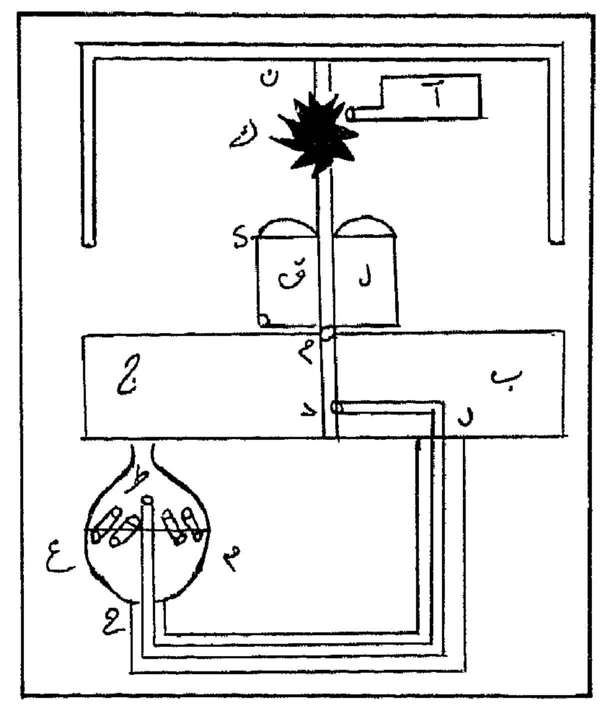
ـ النموذج رقم ٩٢:

صنعة فوارة مركبة في بعض المواضع يفور منها الماء مرة على شكل السوسنة ومرة مثل القناة ويكون عملها بالريح ما دامت تهب وتعمل ايضا بتجرية الماء.



الشكل رقم (١٠)

حيث ان الوصف في المخطوط معقّد لذلك نكتفي بعرض صورة الفوارة وشرح كيفية عملها. (راجع الشكل رقم ١١).



الشكل رقم (١١)

اجزاء الفوارة:

١ ـــ الفوارة (مَ عَ) الشبيهة بالنموذج السابق.

٢ ـــ حوض (بَ) متصل بانبوب (لَ حَ) بالفوارة.

٣ ـــ حوض (طَ) متصل بانبوب (دَ طَ) الى الفوارة ايضا.

٤ ـــ (لَ قَ) خزان ماء يدور مع دوران عمود (م ن).

٥ ـــ (كَ) دولاب ذو اسنان يدور بفعل الريح او بثقل الماء.

٦ ـــ (آ) خزان ماء ممتلىء دائما.

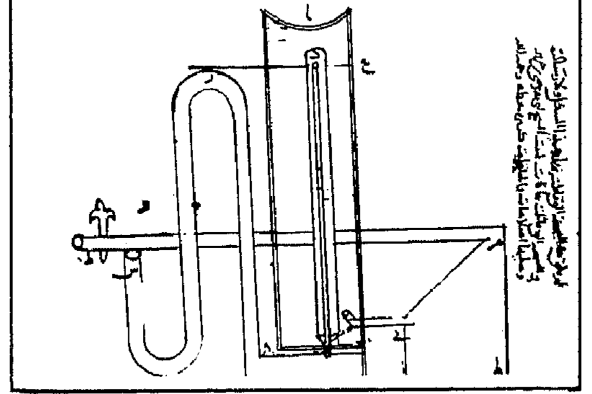
كيفية عمل الفوارة:

يصب الماء بصورة متواصلة في خزان (لَ قَ). وحيث ان هذا الخزان مركّز في عمود (مَ نَ) ويدور معه. فيتضح بأن ثقب (دَ) الموجود في اسفل الخزان يصب تارة في حوض (طَ) وطورا في حوض (بَ).

عندما يدور دولاب (كَ) بفعل الريح يدور حوض (لَ قَ) ويفرغ الماء الموجود فيه من ثقب (دَ) في حوض (طَ) في نصف الدورة الأولى. عندئذ يتسرب الماء في انبوب (دَ طَ) الى الفوارة فتعطي شكل الترس. اما في نصف الدورة الثانية فان الماء يصب في حوض (بَ) ومن ثم الى الفوارة مارا في انبوب (لَ حَ) فيفور الماء على شكل قناة. وهكذا يعاد عمل الفوارة طالما يدور الدولاب دورانا متساويا.

الجدير بالذكر بأن ابناء موسى أهملوا في هذا التركيب توضيح دوران الدولاب. لأن العمل لا يتم كما وصف إلّا اذا كان دوران الدولاب متساوياً.

ثم يتفنن ابناء موسى في عرض نماذج اكثر تعقيدا في الفوارات نكتفي بعرض واحدة منها. (راجع الشكل رقم ١٢).



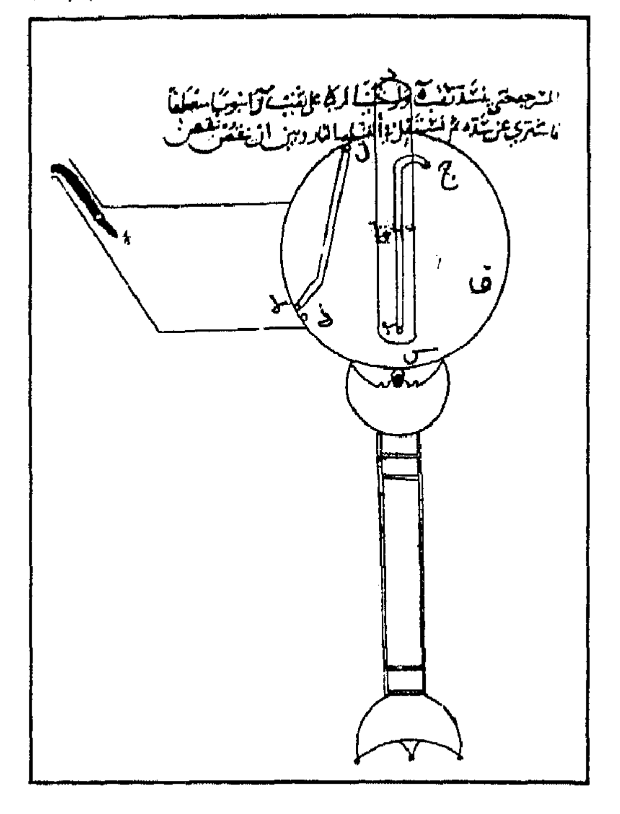
الشكل رقم (١٢)

نماذج في وصف القناديل

صنعة قنديل يتغذى بالزيت من نفسه.

ـــ النموذج رقم (٩٨)

الشكل رقم (١٣)



اجزاء القنديل

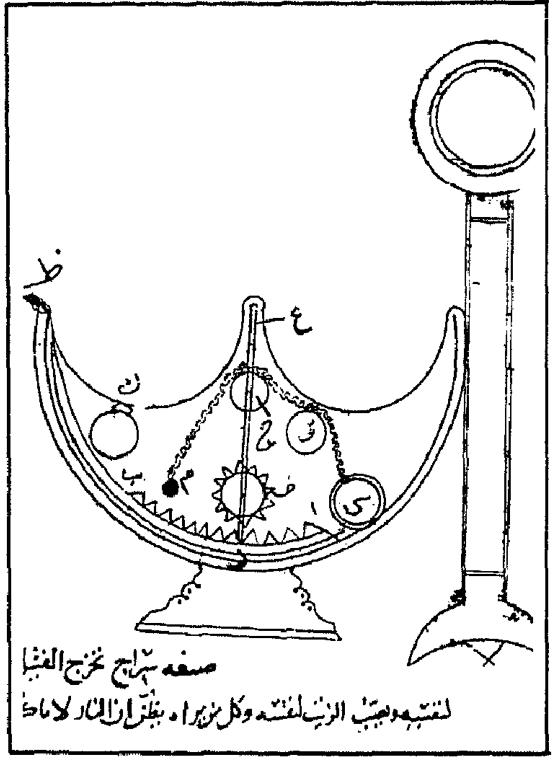
ـــ كرة (قَ) وتعتبر خزان الزيت.
ـــ انبوب (دَسَ) بصب فيه الزيت ثم يدخل في انبوب ادق (بَجَ) ليتفرغ في الكرة.
ـــ انبوب (حَ آ) ينتهي بفتحة (ثَ) حيث ينبت الفتيل.

كيفية عمل القنديل

نصب الزيت من الفتحة (دَ) يتجمع الزيت في انبوب (دَسَ) ويرتفع فيه حتى يغطي ثقب (بَ) فيرتفع حينئذ الزيت في الانبوب الدقيق (بَجَ) ثم يتفرغ من ثقب (جَ) الى داخل الكرة (ق). عندما يتجمع الزيت في اسفل الكرة ويصل الى موازاة ثقب (آ) ويكون الثقب (هـ) الذي يعلوه مفتوحا يتسرب الزيت الى الانبوب الذي يحوي الفتيل وذلك بفعل ضغط الهواء الجاري في انبوب (هـلَ). عندما نشعل الفتيل فتتناقص كمية الزيت. وحيث ان انصباب الزيت متتابع من ثقب (دَ) فمن الواضح بأنه من الممكن ان يرتفع مستوى الزيت الى الفتحة (هـ) فيدخل الزيت في الانبوب الدقيق ليتفرّغ من الفتحة المقابلة. فيظهر للناظر بأن القنديل يتغذى بالزيت من نفسه.

نموذج رقم ١٠٢ في المخطوط

صنعة سراج يُخرج الفتيل لنفسه ويصب الزيت لنفسه وكل من يراه يظن ان النار لا تأكل الفتيل. (الشكل رقم ١٤).



الشكل رقم (١٤)

اجزاء السراج وكيفية تركيبه

١ ـــ نأخذ نصف كرة معدنية ونعطيها الشكل المبينّ في الرسم (رقم ١٤) حتى تعطينا هيئة السراج. نثبت في اسفل الكرة وعلى موازاة انحنائها فتيلا قويا شديد الاشتعال، ونضع فوقه صفيحة ضيقة بعرض الأصبع ذات اسنان دقيقة تعمل على دفع الفتيل في اتجاه فتحة الاشتعال.

٢ ـــ نركز في وسط الكرة عمود (عَ دَ) ونثبت عليه دائرة (جَ) على شكل البكر ودولاب (فَ) ذا اسنان تتداخل في اسنان الفتيل لتدفعه الى فتحة الاشتعال عندما يدور الدولاب.

٣ ـــ نأخذ دُبة (اي فواشة) ونصلها بسلسلة تحمل بطرفها الآخر ثقلاً من الرصاص

(مَ) ومن ثم نحمل السلسلة بواسطة البكرتين (قـ) و(جَ)

٤ ــ نركز نصف الكرة ومحتوياتها فوق قاعدة معدنية ثابتة (صَ).

كيفية عمل السراج

نصب الزيت من فتحة (آك) حتى يغمر الدبة (سَ) عند ذلك ينقص وزن الدبة وذلك بفعل ضغط الزيت من اسفل الى اعلى. عند ذلك يشد الثقل السلسلة فتدور البكرة (جَ) ويدور الدولاب (قَ) ذو الأسنان بفعل دوران عمود (عَ دَ) المثبت عليه، بذلك تتداخل اسنان الدولاب بأسنان الفتيل وتدفع بالفتيل الى الفتحة ليشتعل.

بالاشتعال يتناقص الزيت، تعود بذلك الدبة (سَ) الى وزنها الطبيعي فيتوقف دوران الدولاب. عند ذلك تعود الى صب الزيت وتعود العملية الى سيرتها الأولى.

ويظن من يرى بأن الفتيل لا تأكله النار.

نكتفي بهذا القدر من النماذج من مخطوطة «كتاب الحيل» لابناء موسى بن شاكر. نأمل ان نكون قد اعطينا فكرة واضحة عن محتوى هذا المخطوط واهميته.

خلاصة القول: ان ابناء موسى بن شاكر اعتمدوا في وصف هذه التركيبات على اسس ومبادىء علمية صحيحة ورثوها من الدراسات النظرية التي وضعها اليونان في هذا المضمار. غير ان ابناء موسى لم يكتفوا بالنظريات بل حلّلوها واظهروها الى حيز الوجود بتطبيقها فعلا. لذلك حاولوا تركيب كل ما هو مهم ومفيد في حياتهم العملية، متوخين من خلال هذه التركيبات نقل المبادىء العلمية الى عامة الشعب. لذلك ان مخطوطتهم هذه الى جانب مخطوطة آلة الزمر تعتبر من اهم المخطوطات في علم الحيل الميكانيكية.

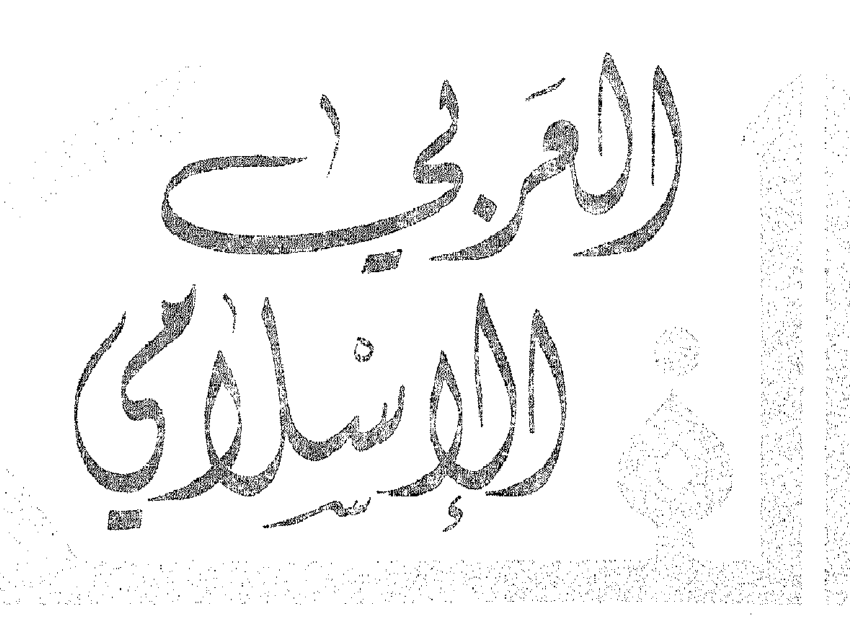
والجدير بالذكر ان هذا العلم بقي مهملا في الفترة الزمنية الواقعة ما بين الحضارة اليونانية والحضارة العربية. ورغم كل ما اعطاه بنو موسى من اهتمام لهذا العلم فان العلماء العرب اهملوه من بعدهم ولم تظهر دراسات في هذا المجال إلّا في القرن الثاني عشر ميلادي مع العالم الميكانيكي المشهور ابن الرزاز الجزري الذي ترك لنا كتاباً ضخما في علم الحيل تحت عنوان «**كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل**» لنا عودة لهذا الكتاب في دراسات اخرى ان شاء الله. ■

«الهوامش»

(١) البزال: انبوب يتصل بالجرة او الابريق لتسهيل خروج الماء فيه.
(٢) العروة: اليد التي تحمل بها الابريق او الجرة.
(٣) اجانة: وعاء كبير يستعمل غالبا لسقي الحيوانات.
(٤) فوارة: نافورة.
(٥) سوسنة: زهرة.
(٦) سحارة: وعاء مثقوب من اسفله يستعمل لغسل الخضار والفاكهة.



إن أعداد السنة الأولى من "تاريخ العرب والعالم" متوفرة، في كمية محدودة، لدى قسم الاشتراكات، وذلك في مجلدين أنيقين قيمتهما معًا ٣٠٠ ل.ل.



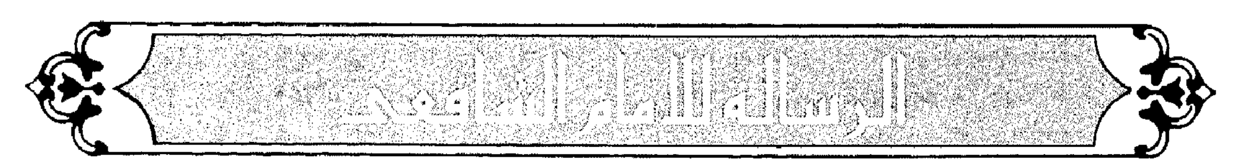
أعلاماً ومؤلفات

د. نقولا زيادة

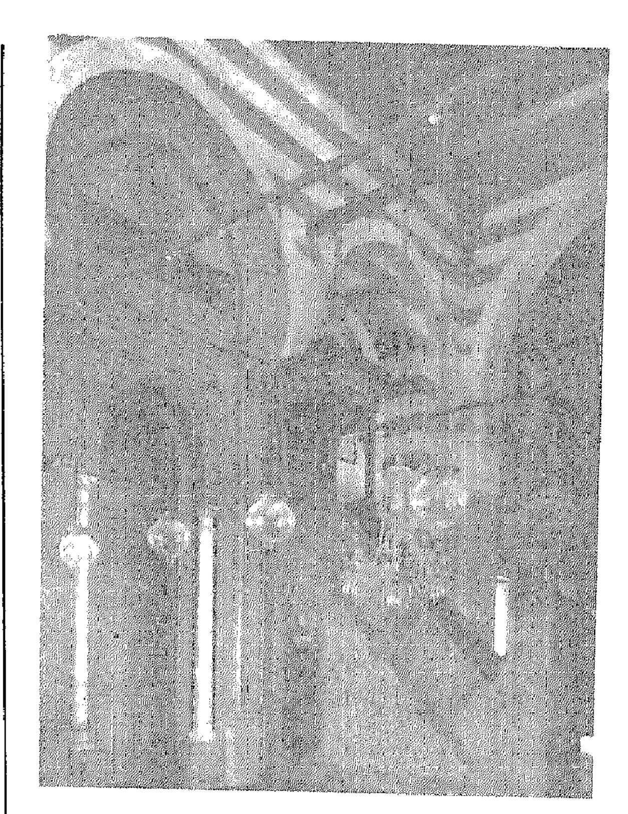
هذه السلسلة من المقالات تناول فيها كاتبها (نقولا زيادة) ثلاثة عشر مفكرا من العرب الذين كتبوا في مجالات الفكر العربي الاسلامي لاول مرة، فكان كل منهم رائدا في موضوعه. وقد ضم الواحد منهم الى اخرين من الذين عملوا في نواح متقاربة.

ثلاثة من اهل الفكر الفقهي وما اليه، كان اولهم (الامام الشافعي) اولَ من وضع اصول الفقه. فقبل الامام الشافعي (ر) لم يكن للناس قانون كلي في معرفة دلائل الشريعة، فاستنبط هو علم اصول الفقه. اما الغزالي فقد كان اول من وضع ترجمة ذاتية فكرية، اوضح فيها مواقع النواحي الفقهية والفلسفية في حياته وما آل اليه امره، كما يتضح من كتاب المنقذ من الضلال. وابن تيمية من اوائل من تصدَّى لنقد المجتمع السياسي على اساس عقلي فقهي شرعي.

فكل منهم دلَّ القراء على طريق، بعد ان فتح لهم الباب.



يتكون تاريخ الفكر العربي الاسلامي من جماع القمم الشوامخ التي خلفته على مدى عصور الازدهار في تاريخ العرب والاسلام الطويل. ولعله لم يتح لأمة من الامم التي سبقت ذلك التاريخ مثل ما اتيح للعرب والمسلمين من حيث عدد هذه القمم. ذلك بان الرقعة التي قامت فيها الدولة العربية الاسلامية، موحدة اولا وموزعة فيما بعد، لم يكن له مثيل في سعتها من قبل. فضلا عن ان التعلم والدرس كانا متيسرين لكل من اراد ان يأخذ منهما بنصيب، وذلك بفضل المؤسسات التعليمية المختلفة التي عرفت من المسجد الى المدرسة الى



جامع الشافعي في القاهرة

الجامعة. ولم يكن العلم محصورا بطبقة اجتماعية واحدة، ولا بعرق معين. ومن هنا فقد كان من اليسير على المجتمع أن يتيح للقوى الخلاقة فيه مجال الظهور والبروز.

ونحن لا نقصد ناحية معينة من نواحي الفكر العربي الاسلامي في هذه المناسبة، وانما نقصد الفكر بمجالاته المختلفة، في تشريعه وتاريخه وجغرافيته وفلسفته وعلمه الطبيعي والرياضي. فهذه النظرة الى الفكر تتيح لنا الانطلاق من المجال المحدود الى الآفاق الواسعة بحيث يكون الفكر شاملا جامعا مانعا.

ومن اول هذه القمم التي تقابلنا الشافعي، واضع اصول الفقه. ولنسمح لانفسنا، بادىء بدء، ان نلم بحياة الامام الشافعي المامة قصيرة قبل ان نعين مكانه في تاريخ الفكر العربي الاسلامي. ولا شك انه عندما نجمل حياة الامام الشافعي في هذه المناسبة فنحن قد لا نفي هذه الحياة حقها، ولكن هذا كل ما يمكن ان نفعله الان اذا كنا نريد ان نلقي نظرة واضحة على قيمة العمل الذي قام به في تاريخ الفكر العربي الاسلامي.

ولد محمد بن ادريس الشافعي في غزة بفلسطين سنة ١٥١ للهجرة الموافقة لسنة ٧٦٨ للميلاد. وهو قرشي من ذرية عبد المطلب بن عبد مناف. ولان والده توفي بعد مولده بقليل حملته امه «الى مكة خشية ان يضيع نسبه الشريف».

ولم يكن الشافعي اول من عمل في حقل الفقه الاسلامي. فقد سبقه الى ذلك ابو حنيفة الذي توفي قبل مولد الشافعي بسنة واحدة، كما سبقه مالك بن انس صاحب الموطأ الذي جلس الشافعي عند قدميه متعلما في المدينة، بعد ان حفظ الموطأ بكامله. ثم لازمه حتى وفاته. كما ان ابن حنبل تتلمذ على الشافعي فيما بعد.

وكان اول عمل قام به الشافعي، وكان قد شارف على الثلاثين من عمره، في اليمن. وبعد اعوام من ذلك، حمل الشافعي الى بغداد. وهناك اتصل بتلاميذ ابي حنيفة وتعرف الى وجهة نظرهم. فعن مالك اخذ الشافعي العناية بالحديث اصلا للفقه، وعن الحنفية اخذ قولهم بالرأي. ولكنه كان اخاذا نقادا مستقلا برأيه، اي انه كان يبيح لنفسه الخلاف والجدل.

عاد بعد ثلاث سنوات الى الحجاز حيث عمل في التدريس في الحرم المكي تسع سنوات. ثم انتقل الى بغداد ثانية ولكنه الان جاءها على انه صاحب فكرة خاصة في الفقه واصوله. وفي سنة ١٩٩ للهجرة (اي سنة ٨١٥ للميلاد) غادر بغداد الى مصر. ولم تكن مصر قد ظهرت فيها بعد اي من المدارس الفكرية او العلمية التي كانت بغداد والبصرة والكوفة ودمشق وغيرها قد عرفتها. ولكن شهرة الشافعي كانت قد سبقته فاستقبل هناك استقبالا حافلا. واقام في الفسطاط مدرسا ومؤلفا خمس سنوات حتى اعتلت صحته وقضى نحبه سنة ٢٠٥ هجرية (٨٢٠ ميلادية).

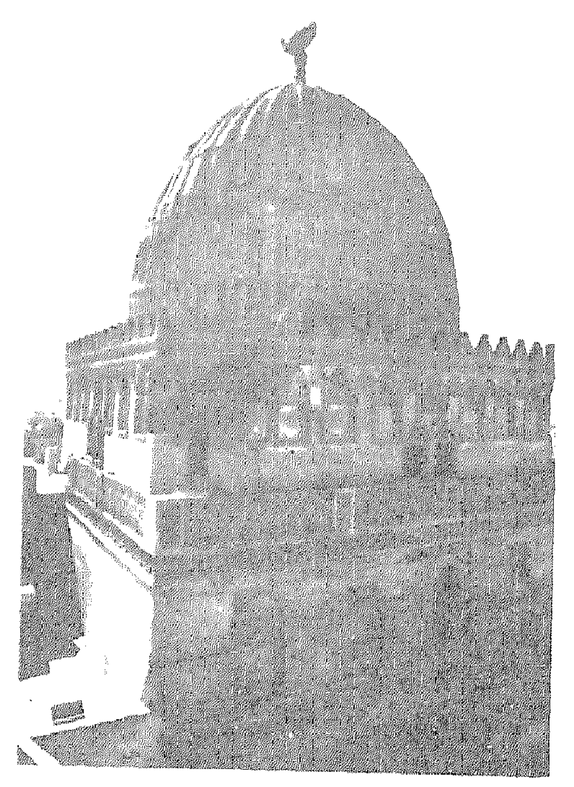
اثناء اقامة الشافعي الثانية في بغداد وضع النسخة الاولى لما عرف فيما بعد باسم الرسالة التي يعتبرها المؤرخون اول مؤلف في الفقه الاسلامي. وقد اعاد كتابتها فيما بعد وهو في الفسطاط. وقد سميت بالرسالة لانها وجهت لعبد الرحمن بن مهدي كرسالة في الواقع. وليست الرسالة المؤلف الوحيد في الفقه

الشافعي، بل له كتاب الام وابطال الاستحسان وجماع العلم. ولكن الرسالة تعنى بالاصول فيما كانت كتبه الاخرى تعنى بالاحكام الفرعية. وان كانت هذه، الام خاصة، يوجد في ثنايا احكامها الفرعية بيان لمسائل كلية.

ونحن اذا اخذنا الشافعي من حيث علاقته بالفقه، نجد انه يقسم علم الشريعة الى قسمين. وهو يقول في ذلك «العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله... مثل الصلوات الخمس، وان لله على الناس صوم شهر رمضان وحج البيت اذا استطاعوا وزكاة في اموالهم، وانه حرم عليهم الزنى والقتل والسرقة والخمر وما كان في معنى هذا...». وعلم الخاصة يقول عنه الامام الشافعي «ما ينوب العباد من فروع الفرائض، وما يخص به من الاحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في اكثره نص سنة، وان كانت في شيء منه سنة، فانما هي من اخبار الخاصة لا اخبار العامة. وما كان يحتمل التأويل ويستدرك قياسا... وهذه درجة من العلم ليس تبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة. ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة ان يتموها. واذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن تركها ان شاء الله، والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها».

وفضل الشافعي في مجال الفقه يمكن ان يلخص في امرين: الاول انه جعل للتعابير الفقهية معاني محددة بعد ان كان اطلاقها متسع المدى، وهو الذي حد اصول الاستنباط وضبطها بقواعد عامة كلية. والامر الثاني هو انه وضع اصول الفقه الاسلامي من حيث المصادر التي يمكن ان يعول عليها. وقد اجمل الشافعي نفسه ذلك بقوله «العلم وجهان: اتباع واستنباط. والاتباع اتباع كتاب فان لم يكن فسنة، فان لم يكن فقول عامة من سلف لا نعلم له مخالفا. فان لم يكن فقياس على كتاب الله عز وجل. فان لم يكن فقياس على سنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم . فان لم يكن فقياس على قول عامة من سلف لا مخالف له».

يعتبر الامام الشافعي الكتاب والسنة النبوية في مرتبة واحدة في العلم بالشريعة. بل



ضريح الامام الشافعي

يعتبرهما في واقع الامر المصدر الوحيد لها. لان غيرهما محمول عليهما. فما الذي حمل الشافعي على اعتبار السنة في مرتبة الكتاب؟ للشافعي في ذلك تفسير يتلخص في ان الكتاب والسنة كلاهما عن الله. اذ ما كان النبي — صلى الله عليه وسلم — ينطق عن الهوى. فكلاهما عن الله ولكن طرقهما كانت متفرقة. والسنة ملحقة بكتاب الله. «فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سننه بفرض الله طاعة رسوله على خلقه، وان ينتهوا الى حكمه. ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل، لما افترض الله من طاعته فيجمع القبول لما في كتاب الله ولسنة رسول الله القبول لكل واحد منهما عن الله، وان تفرقت فروع الاسباب التي قبل بها عنهما».

والاصل الثاني الذي قبله الشافعي لعلم الفقه ووضحه ونظمه «قضية الاجماع». وقد عرف الاجماع قبل الشافعي ولكن لم يكن له معنى محدود. فهل كان معناه اجماع المسلمين أجمعين ام اجماع فئة منهم؟ ام كان الاجماع ورأي الفقهاء كافة ام رأي الغالبية منهم. والذي

انتهى اليه بعد امعان النظر هو ان الاجماع «هو الرأي الذي يقره اهل العلم بالاجماع... اي المبدأ الذي يتقبله الفقهاء على انه امر واقع متفق عليه».

وقد اقر الشافعي مبدأ القياس المشروط، على نحو ما ذكرنا قبلا. ولعل اهم شروطه هو النظر في العلة او السبب الذي يكمن وراء النص او السنة.

يقول فخر الدين الرازي في فضل الشافعي في وضعه الحدود والرسوم وضبط القواعد والموازين في شؤون الفقه ما نصه «إعلم ان نسبة الشافعي الى علم الاصول كنسبة ارسطو الى علم المنطق، وكنسبة الخليل بن احمد الى علم العروض. وذلك لان الناس كانوا قبل ارسطو يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون في كيفية ترتيب الحدود والبراهين... فلما رأى ارسطو ذلك... استخرج علم المنطق... وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن احمد ينظمون اشعارا، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخرج الخليل علم العروض... فكذلك ها هنا الناس قبل الامام الشافعي، رضي الله عنه، يتكلمون في مسائل اصول الفقه، ويستدلون ويعترضون. ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة في كيفية معارضتها وترجيحاتها. فاستنبط الشافعي، رحمه الله تعالى، علم اصول الفقه، ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب ادلة الشرع».

واذا نحن تذكرنا ان الفقه وما يتصل به هو العلم العربي الاصيل، الذي لم يتأثر بالعلوم الدخيلة. واذا تذكرنا انه علم هام بالنسبة الى حياة الملايين من الناس، ادركنا اي قمة من قمم الفكر الشوامخ يتبوأ الشافعي.

○

المنقذ من الضلال للغزالي

ولد الامام الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للميلاد) وتوفي فيها سنة ٥٠٥ (اي سنة ١١١١).

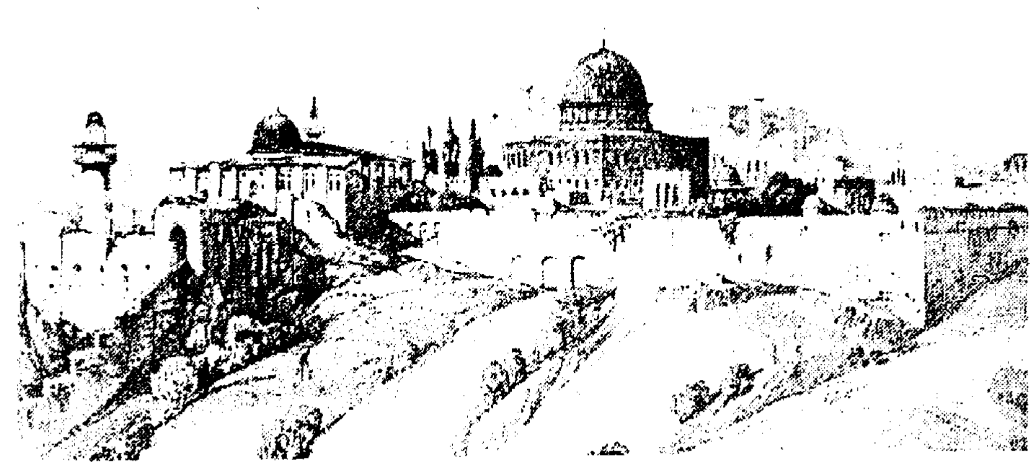
وبين هذين التاريخين عاش الامام الغزالي حياة مليئة بطلب العلم والتأمل فيه والمشاركة العقلية ودرس الفلسفة والعناية بالفقه واتباع التصوف. وهي تجارب روحية عقلية من اغنى ما عرف. وكانت نتيجتها عددا كبيرا من الكتب، قد يكون احياء علوم الدين اهمها. ولكن نود ان نقصر حديثنا هنا على المنقذ من الضلال وهو من اصغر كتبه حجما.

والفترة التي عاش فيها الغزالي كانت فيها تقلبات سياسية كما كانت آثار اتصال الفكر الاسلامي بفلسفة اليونان وغيرهم قد بدت واضحة. وفي ايامه كان التصوف قد ازدهر وانتظمته فرق وفلسفات. وعلم الكلام كان قد نضج. وكان التقليد في امور اللغة قد استقر امره.

تلقى الغزالي علومه الاولى بطوس ثم انتقل الى نيسابور ولازم الجويني، امام الحرمين، حتى وفاة هذا. وعندها انضم الى نصحاء نظام الملك الوزير السلجوقي ومستشاريه. وعهد اليه الوزير بالتدريس بالمدرسة النظامية التي انشأها ببغداد، فعمل فيها اربع سنوات، حتى بعد اغتيال نظام الملك.

لكن الغزالي كانت تعتريه ازمة نفسية، فكان من اثرها انه اعتزل التدريس وخرج من بغداد فقضى سنتين في دمشق والقدس واداء فريضة الحج وعاد بعدها الى بلاده. وانضم الى نظامية نيسابور بناء على طلب فخر الدين بن نظام الملك. فلما اغتيل فخر الملك اعتزل الغزالي العمل وعاد الى بلده طوس حيث قضى السنوات الخمس الاخيرة من عمره في تأمل وتعليم واشراف على زاوية الصوفية الى ان تغمده الله برحمته سنة ٥٠٥ (١١١١).

طلب الى الغزالي ان يوضح لصديق له غاية العلوم واسرارها، وغائلة المذاهب واغوارها، وان يحكي له ما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق. فكان المنقذ من الضلال تلبية لهذا الطلب. وبدأ الغزالي الكتاب بتبيان الازمان



منظر للقدس القديمة (رسم روبرت).

التي مر بها، ثم عدد للسائل أصناف الطالبين للمعرفة في رأيه. وهم اربع فرق: المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية. وقد وصف تجربته مع كل من هذه الفرق. وكان قد بدأ بعلم الكلام درسا ثم تدريسا ووجد ان كلامهم لم يبلغ الغاية القصوى في البحث عن الجواهر والاعراض. واخذ الغزالي نفسه بقراءة الفلسفة. ووجد ان الفلاسفة او بعضهم على الاقل، قد آمنوا بالله، ولكنهم جحدوا اليوم الآخر، وانهم لم يقبلوا بحشر الاجساد. وبعضهم قال بان الله يعلم الكليات دون الجزئيات. كما قالوا بقدم العالم وازليته. «واذن فهم على كثرة اصنافهم يلزمهم الكفر والالحاد». واهتم بالباطنية ووضع خمسة كتب في الرد عليهم، ومقارعتهم الحجة واخيرا، كما يقول، «نفض اليد عنهم».

واتجه الغزالي الى الصوفية راغبا في ان يتعرف الى العمل الذي يكتسب بالذوق والسلوك. ودامت خلوته معهم نحو عشر سنين. وقد وجد ان الصوفية هم السالكون لطريقه تعالى «فان جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به»». ووجد ان طريقتهم هي استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وقد ينتهى الامر ببعض الصوفية الى حيث يتخيلون الحلول والاتحاد والوصول. وقد بان للغزالي من ممارسة الصوفية حقيقة النبوة وخاصيتها. وحري بالذكر ان الغزالي لما اقبل على الصوفية كان انتهى الى «ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر». فالصوفية لم تزعزع ايمانه. بل ان الامر انتهى به الى رد الصوفية الى حظيرة النبوة.

بعد رحلة دامت ثلاثا وثلاثين سنة في مجالات الفكر الشرعي الفقهي الفلسفي الصوفي، مع ما رافق ذلك من ازمات نفسية، وصل الغزالي الى الحقائق التالية التي نجدها في المنقذ.

١ — ان جوهر الانسان، في اصل الفطرة، خلق خاليا ساذجا لاخبر معه من عوالم الله تعالى. وانما خبره من العوالم بواسطة الادراك.

٢ — ان وراء العقل طورا اخر تتفتح فيه عين اخرى يبصر بها الغيب.

٣ — ان الناس ضلوا السبيل واختلطت عليهم الامور.

كتاب المنقذ من الضلال سيرة ذاتية عقلية روحية للامام الغزالي صاحب النفاذ. ومع ان الغزالي لم يفصل الدقائق، فالواقع انه في الذي كتبه عن نفسه وعن مواقفه من طلاب العلم وفئاتهم يوجد الكثير من النظر الثاقب العميق، والشعور القوي العنيف والمعاناة التي لا يعرفها الا الذين امتحنوا بها. ولنصغ الى الغزالي يصف حيرته قبل ان ترك بغداد الى دمشق والقدس والحجاز. قال «فلم ازل اتفكر فيه مدة، وانا بعد على مقام الاختيار، اصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوما، واحل العزم يوما، واقدم فيه رجلا واوخر عنه اخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، الا ويعمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام، ومنادي الايمان ينادي: الرحيل الرحيل، فلم يبق من العمر الا قليل، وبين يديك السفر الطويل. وجميع ما انت فيه

من العلم والعمل رياء وتخييل. فان لم تستعد الان للاخرة فمتى تستعد؟ وان لم تقطع الان هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار...فلم أزل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمئة. وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار. اذ اقفل الله على لساني عن التدريس. فكنت اجاهد نفسي ان ادرس يوما واحدا تطييبا للقلوب المختلفة الي، فكان لاينطق لساني بكلمة واحدة، ولا استطيعها البتة. حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب. فكان لاينساغ لي في العلاج».

كان الغزالي في كتبه المتعددة، سواء كان يبني نظرية او يقيم هيكلا او يحاج فئة من الناس، يضع المخطط والبينات ويعرض التفاصيل. ويتابعه القارىء مخططا بانيا محاجا مقارعا معلما. لكن المنقذ شيء آخر. فالغزالي لم يكن معلما هنا، فلم يهتم بالتفاصيل. كان يتناول القضايا الاساسية لارائه والقواعد التي تبنى عليها نظريات الاخرين لينقضها.

والغزالي في المنقذ، الذي وضعه وله خمسون سنة من العمر، اي قبل وفاته بخمس سنين، يتصور نفسه وقد خرج من كل ما مر به ويصفها، ولو انه يقول انه يصف العالم الحقيقي، وقد خلصت لله، بقوله:

«ان العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة، ولايكون مصرا على المعاصي اصلا. اذ العلم الحقيقي مايعرف ان المعصية سم مهلك، وان الاخرة خير من الدنيا. ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو ادنى منه.

«وهذا العلم لايحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها اكثر الناس. فلذلك لايزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله تعالى. واما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفا ورجاء. وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات. وذلك لا يدل على ضعف الايمان. فالمؤمن مفتن ثواب، وهو بعيد عن الاصرار والاكباب.

«نسأل الله العظيم ان يجعلنا ممن اثره واجتباه، وارشده الى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لاينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه».

كتب الغزالي الاخرى ــ الكبيرة والصغيرة ــ تظهر لنا علم الرجل واراءه ونظرياته. ولكن هذا الكتاب يظهر لنا الرجل نفسه دون قناع. وحبذا لو كتب الكثيرون من اهل الفكر مثل هذه الترجمة الشخصية، اذ ان حياتنا الفكرية نفسها تكون اغنى واثمن. ○

ابن تيمية وسياسته الشرعية



ان الفترة الواقعة بين منتصف القرن السابع ومنتصف القرن الثامن للهجرة (اي منتصف القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر للميلاد) فترة شهدت تبدلا سياسيا واجتماعيا كبيرا في الرقعة المتوسطة من ديار الاسلام، اي في العراق والشام ومصر وما اليها، ففي مطلعها قامت دولة المماليك في مصر التي ورثت الدول الايوبية فيها وفي ديار الشام. وفي الوقت ذاته على وجه التقريب اغار المغول على العراق واحتلوا بغداد وقضوا على الخلافة العباسية. وفي هذه الفترة كان الاتراك العثمانيون ينشئون دولتهم الفتية في آسية الصغرى لكن اتجاههم كان نحو اوروبا. وكان الصليبيون لايزالون يحتلون القسم الاكبر من السواحل الشامية. واستمر المغول، بعد استيلائهم على بغداد، في الزحف غربا نحو الشام فخربوا ودمروا، ولكن المماليك وقفوا في وجههم مع ماكان لهم من الجيوش المصرية والشامية. كما ان المماليك، بقيادة الملك الظاهر بيبرس والناصر قلاوون والاشرف خليل بن قلاوون، استطاعوا ان يخرجوا الصليبيين من السواحل الشامية، فانتقل هؤلاء

الى قبرص، الا ان خطرهم على بلاد الشام ظل هاجسا في المنطقة.

وكانت عناصر تركية مختلفة قد انساحت في المنطقة منذ ايام العباسيين والسلجوقيين وكانت قبائل تركمانية قد استقرت في ديار الشام، وجاء المماليك الآن يفيدون من هذه العناصر فيقيمون جاليات غزية وتركمانية على الشواطىء السورية واللبنانية بقصد الدفاع عن تلك المناطق فيما لو هاجمها عدو من جهة قبرص. واذا تذكرنا ان المماليك انفسهم كانوا الى درجة كبيرة، اتراكا، وانهم استكثروا من الجنود الاتراك والشراكسة ادركنا مدى دخول هذه العناصر في تكوين السكان. ويضاف الى هذا ان جماعات من البدو انتقلت في تلك الفترة من مشارف الحجاز وغيرها من انحاء الجزيرة واستقرت في فلسطين ومناطق الشام الاخرى.

والدولة المملوكية التي كانت تتحكم في شؤون مصر والشام في هذه الفترة والى مدة قرن ونصف القرن بعد ذلك، كانت دولة عسكرية سلاطينها وحكامها وضباطها والعمدة من حلقات الجيوش فيها اتراك او شراكسة، والادارة عسكرية بطبيعتها وتصرفها. وان كانت قد تركت الكثير من الوظائف الديوانية وجميع الوظائف الدينية لاهل البلاد. لكن يد الحاكم كانت قوية.

قبل فترتنا بنحو قرنين كان نظام الملك السلجوقي قد انشأ المدرسة النظامية في بغداد التي اصبحت نموذجا للمدارس الاسلامية في شرق العالم الاسلامي وغربه. وهذه المدرسة كانت رسمية بمعنى أن الدولة كانت تشرف عليها، وكانت دينية في برامجها بمعنى انها كانت تدرس القرآن الكريم والحديث الشريف والتفسير والفقه واللغة وما الى ذلك، لكنها كانت قد انتزعت من برامجها الكثير مما كانت المدارس تعنى به قبل القرن الخامس للهجرة (اي القرن الحادي عشر للميلاد). وكانت الغاية من هذه المدارس ان تهيء للدولة الموظفين الذين تحتاجهم كما كان ينتظر منها ان تؤيد مواقف الدولة الرسمية.

ومع ان الدولة الفاطمية كان قد قضي عليها قبل نحو قرن من ابتداء الفترة التي نتحدث عنها، فلم يكن معنى ذلك ان الاسماعيلية والفرق الشيعية قد انتهى امرها. وكانت الدولة المملوكية ترى في هذه كلها خطرا عليها، اذ انها كانت سنية. ومن هنا كان من واجب المدارس المختلفة ان تؤيد السنة وتوضحها. ومما فعله المماليك في سبيل تأييد وجودهم وتوكيده هو انهم احيوا الخلافة العباسية في القاهرة لتكون لهم درعا روحيا دينيا. ومما يلفت النظر ان هذه الفترة والعقود التي سبقتها شاهدت احياء للمذهب الحنبلي اخذ يتركز حول دمشق. وقد هاجر كثير من الحنابلة من حران في جزيران ابن عمر الشامية ومن فلسطين مثل بني قدامة وحتى من بغداد الى دمشق.

في هذه الفترة عاش ابن تيمية. وهو سليل بيت علم ماجد فقد كان جده وابوه فقيهين مرموقين ومدرسين قديرين. وكانت الاسرة مستقرة بحران وفيها ولد احمد بن عبد الحليم ابن تيمية سنة ٦٦١ للهجرة (اي سنة ١٢٦٣ للميلاد)، وذلك بعد سقوط بغداد على ايدي هولاكو بخمس سنين. ولما رأى أبوه ان المغول اخذوا يغيرون على تلك المنطقة انتقل باسرته الى دمشق، وكان عمر احمد يومها ست سنوات. ولولا ان مَنَّ الله على هذه الاسرة بالسلامة لكان جيش المغول ادركها في الطريق.

في دمشق نشأ ابن تيمية وترعرع. وكانت مدينة دمشق من مراكز العلم الكبرى، فقد كان فيها ما لا يقل عن ثلاثين مدرسة يطلب فيها الناس العلوم الشرعية واللغوية. وقد تعلم ابن تيمية الخط والحساب وحفظ القرآن وانتقل الى الفقه والعربية وبرع في النحو ثم اقبل على التفسير اقبالا كليا واحكم اصول الفقه، وهو لم يبلغ العشرين من عمره. بل انه افتى حتى وهو دون هذه السن. وتوفي والده وسنه واحد وعشرون عاما، وكان قد عرف واشتهر فقضى في دمشق حياته كلها الا سبع سنوات قضاها في مصر. وفي هذه السنوات السبع سجن مرتين الاولى بسبب تحامل العلماء المصريين عليه، والثانية بسبب تهجمه على الصوفية.

وفي دمشق سجن ابن تيمية في القلعة مرتين، الاولى كانت قصيرة الامد والثانية دامت سنتين وبعض السنة. وهذه الاخيرة سبقت وفاته. وفي سجنه كتب ابن تيمية قسما كبيرا من رسائله

ومؤلفاته. ولكن في الشهور الاخيرة من سجنه الاخير اخذت السلطات منه كتبه ومنعت عنه الورق والحبر لانها ارادت ان تحول دونه ودون توضيح آرائه». وقد اغتم لذلك كثيرا ومرض وانتقل الى رحمة ربه سنة ٧٢٨ للهجرة (اي سنة ١٣٢٨ للميلاد).

كان ابن تيمية فقيها عالما وكان يصدر فتاويه في كل شأن سئل عنه. لكن المهم في الرجل ليس علمه وفقهه فحسب، بل جرأته في الحق. وقد نصب نفسه خصما لكل ما من شأنه ان يمس جوهر الاسلام وكل من يقول بذلك. فالفلاسفة والباطنية والصوفية والمشبهة والمجسمة كانوا في رأيه مؤذين للامة الاسلامية فخاض ضدهم حربا عوانا، بقلمه ووعظه وتفسيره ومجالسه العلمية.

لكن ابن تيمية لم يكن ناقدا سلبيا، بل كان في اعماله بنّاء ايجابيا. والقاعدة التي انطلق منها ان الامة وجدت لكي تتمم ارادة الله. وارادة الله اظهرها وحيا في القران الكريم وحديثا على لسان النبي. واذن فالنص والسنة هما ما يجب ان يتبع بالنسبة الى جماعة المؤمنين. وتشدد ابن تيمية في قضية التوحيد والوجدانية تفسيرا وارشادا. ذلك بأن بعض الفرق التي كانت موجودة في الشرق العربي وقتها كانت فيها دعوة الى الحلول او الشرك او الوساطة، فكانت دعوته الى الوحدانية قوية حارة.

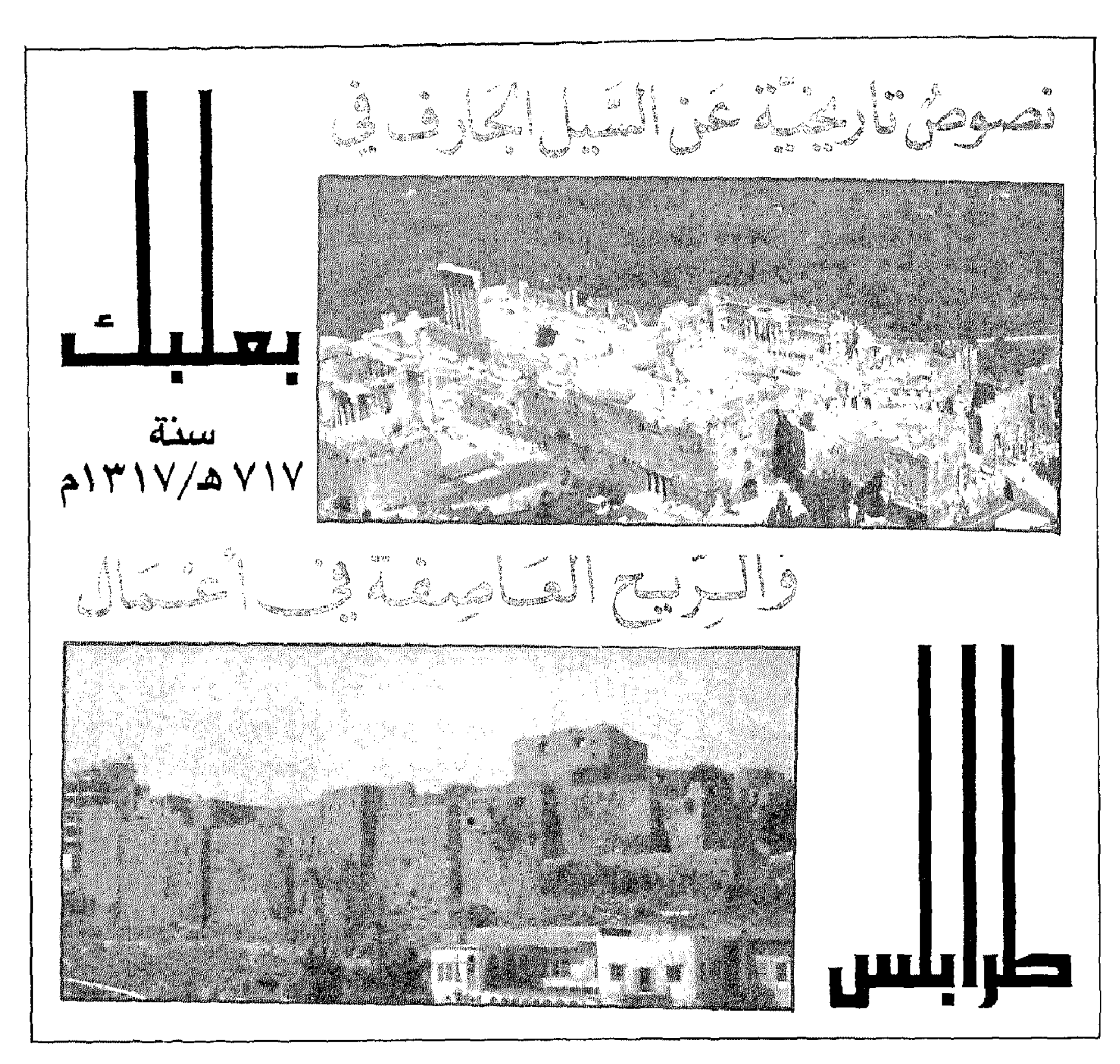
وكان ابن تيمية يدعو الى نشر العدل والوقوف ضد الظلم، ولم يخف هذه الدعوة بل جهر بها، وهذا ما عرضه للنقمة امام اصحاب السلطان والنفوذ، لكن ابن تيمية لم يكن يهتم بهم قط.

واذا كانت كتب ابن تيمية الفقهية والكتب المتعلقة بالعقيدة، وخاصة الفتاوى، كبيرة، فلابن تيمية رسائل صغيرة هي في القمة من علم السياسة العملي مع الحفاظ على الاسس الاسلامية. ونذكر على سبيل المثال رسالته في السياسة الشرعية ورسالته في الحسبة. فابن تيمية كان يرى انه لابد للمجتمع من رئيس يتولى امره. وفي ذلك يقول: «يوجب ان يعرف ان ولاية امر الناس من اعظم واجبات الدين، بل لاقيام للدين الا بها. فإن بني ادم لاتتم مصلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس... ولان الله اوجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل واقامة الحج والجمع والاعياد ونصر المظلوم واقامة الحدود. وكل هذا وما اليه لايتم الا بالقوة والامارة... وهكذا تكون اقامة الحاكم الاعلى للامة امرا ضروريا لخير المسلمين في الدنيا والاخرى ويكون العمل على توليته قربة يتقرب بها الى الله تعالى. ويجب عندئذ حياطته بالنصح اذا لزم الامر. فان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال: الدين النصيحة، الدين النصيحة، قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

ويضيف ابن تيمية و«يجب على ولي الامر ان يولي على كل عمل من اعمال المسلمين اصلح من يجده لذلك العمل... وليس له ان يقدم رجلا لانه طلب الولاية... وقد دلت سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ان الولاية امانة يجب اداؤها... والولاية لها ركنان القوة والامانة... والقوة في كل ولاية بحسبها. فالقوة في امارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب والى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، فان الحرب خدعة، والى القدرة على انواع القتال... والقوة في الحكم بين الناس ترجع الى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، والى القدرة على تنفيذ الاحكام... فالواجب في كل ولاية الاصح بحسبها. فاذا تعين رجلان احدهما اعظم امانة والاخر اعظم قوة قدم انفعهما لتلك الولاية. فيقدم في ولاية الحرب القوي الشجاع وان كان فيه فجور فيها على الضعيف العاجز وان كان امينا كما سئل الامام احمد بن حنبل عن الرجلين يكونان اميرين احدهما قوي فاجر والآخر صالح عفيف، مع ايهما يغزي. فقال اما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه. واما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزي مع القوي الفاجر».

ابن تيمية كان سلفيا، لكنه كان سلفيا مصلحا قويا في دعوته، شديدا في الحاحه على الحق والعدل، متشددا في ان يكون الايمان صحيحا صريحا خاليا من الشوائب. لقد كان امام السلفيين.

○



نصوص تاريخية عن السيل الجارف في بعلبك سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م والريح العاصفة في أعمال طرابلس

د. عمر عبد السلام تدمري

في عهد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» سلطان دولة المماليك في مصر والشام، وبالتحديد، في يوم الثلاثاء ٢٧ صفر سنة ٧١٧هـ./١٠ أيار سنة ١٣١٧م. حدث سيلٌ جارف في مدينة بعلبك أوقع فيها خراباً ودماراً، وخلّف كثيراً من الغرقى والقتلى. وقد استأثرت هذه الحادثة الرهيبة باهتمام المؤرّخين المعاصرين واللاحقين، فأفردوا لتفصيلاتها سطوراً وبعض صفحات في مُصَنَّفاتهم، نستعرض فيما يلي سبعة نصوص لسبعة مؤرّخين، نُوردُها حسب تتابع تواريخ وفيات مؤرّخيها، مع إجراء التحقيق والتصويب لبعض الألفاظ المبهمة، ومراعاة إيراد النصوص بألفاظها كما وردت في لغتها الركيكة.

ونشير إلى أن هذه الحادثة دُوّنت تفاصيلها في محضر شرعي على يد أحد أعيان المدينة، ويلقب بـ«بدر الدين بن معبد البعلبكي»، وكان مقيماً بدمشق، فاعتمد المؤرخ «المقريزي» ــ البعلبكي الأصل أيضاً ــ على ذلك المحضر وأثبت إحصائية بالخسائر في كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك»، غير أن مؤرخاً لبنانياً من مدينة عاليه هو «حمزة بن أحمد بن سباط»،

□ د. عمر عبد السلام تدمري، استاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية ــ كلية الآداب ــ فرع الشمال.

حفظ لنا النص الكامل للمحضر الشرعي في تاريخه الذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن، وننشره هنا لأول مرة.

ـ النّصّ الأول

لأبي بكر بن عبد الله المعروف بابن أيبك الدّواداري، صاحب صَرْخَد، المتوفى سنة (٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م).

«نكبة حدثت في هذه السنة بمدينة بعلبك بالشام. وذلك لما كان سابع[١] شهر صفر من هذه السنة [٧١٧ هـ] وقت العصر، جاءت بعلبك غمامة سودا نظروا في وسطها عمود نار طوله من السماء إلى الأرض حيث أدرك البصر، وأرعدت رعداً عظيماً ما عهدوا مثله في طول الأعمار، حتى سقطت لهوله الحوامل. وتبع ذلك صواعق متداركة. ثم مطرت عليهم مطراً كأفواه القرب. ثم جاهم بعد ذلك سيل عظيم من شرقيّها حتى لطم البلد وسورها، فاقتلع من السور برجاً عظيماً. ثم احتمله وجره على وجه الأرض في الماء، واستصحب معه بدنة من بدنات السور، وحذفها مقدار خمس ماية ذراع، وتفسخ البرج، وكان دوره أربعين ذراعاً. ثم دخل السيل الجامع حتى وصل القناديل، وغرّق كل من كان فيه. وإنّ ابن الشيخ الحريري طلع إلى المنبر فانقلب به وغرق. وأخرب السيل الحايط الشمالية، ولم يسلم من الذين كانوا بالجامع غير إنسان واحد، حمله الماء الى رأس عمود كان هناك، فتعلّق به فنجا. وأخرب تقدير خمس ماية دار ما عاد عُرفت ولا أساسها. وهذا ما اختصرته من هذه الكاينة»[٢].

ـ النّصّ الثاني

لأبي الفداء تقي الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب، صاحب حماه. المتوفى سنة (٧٣٢ هـ/ ١٣٣٢ م).

«وفي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، الموافق العاشر من أيّار من شهور الروم، كان السيل الذي خرّب بعلبك، فإنه جاء من شرقيها بين الظهر والعصر، فسكره السور، وقوي السيل، وقلع بُرْجاً وبعض النثتين اللتين على يمين البرج وشماله، وسار بالبرج صحيحاً يخرّب بالبلد ويخرب ما يمر به من الدُّور مسافة بعيدة، قيل إنها خمسمائة ذراع. ودخل السيل الجامع وغرق به جماعة، ورمى المنبر، وخرب بعض حيطان الجامع، وبلغ السيل إلى رؤوس العمد. وكذلك دخل السيل المذكور الحمامات وغرق فيها جماعة. وذهب بذلك للناس أموال عظيمة، وخرب دوراً وأسواقاً، وغرق عدّة كثيرة من الرجال والنساء والأطفال، وأتلف كتب الحديث والمصاحف، وكانت مضرته عظيمة»[٣].

ـ النّصّ الثالث

لشمس الدين محمد بن أحمد المعروف بالحافظ الذهبي، المتوفى سنة (٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م).

«وجاءت الزيادة العظمى التي لم يسمع بمثلها ببعلبك في صفر، فغرق فيها بداخل المدينة مائة ونيف وأربعون نفسا، وهدمت من سور البلد بُرجاً وبدنة، وهي من الصخر المحكم، فخرق من السور مساحة أربعين ذراعا مسيرة خمسمائة ذراع، ثم تفسخ بعد وانْدَك. وهدم السيل ما مر عليه إلى أن ملأ الجامع فخرق حائطه الغربي، وأذهب الأموال، وخنق الرجال والأطفال، ثم أسرع الى الخندق الذي للقلعة فخرق من سور البلد ـ يقال ـ مساحة خمسة وعشرين ذراعاً، وانحط إلى البساتين، وكان منظراً مهولاً، وظن أنها القيامة، وتواترت الأخبار بذلك، وما الخبر كالعيان والذي انهدم من البيوت والحوانيت ستمائة موضع.

وحدّثني القاضي شمس الدين بن المجدي[٤] أن السيل دخل بيته وأغرق كتبه، وحماته فرمى بهما الى الأرمينية[٥]، فماتت الأم ودفع السيل الزوجة فألقاها فوق عقد باب الأرمينية. ثم أُنزلت بعد بسلم، وحمل الماء رأس عمود حتى ألقاه على ركن بحذاء العمود في ارتفاعه. وهذا من أعجب ما سمعت»[٦].

ـ النّصّ الرابع

للشيخ عمر بن الوردي، المتوفى سنة (٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨ م)

«في صفر كان سيل بعلبك، خرب سور البلد وحائط الجامع، وذلك مع رعد عظيم، وخرب فوق ثلث البلد، وعدم تحت الردم خلق كثير، وعظم الندب والعويل في أقطار البلد. ومن لطف الله تعالى مجيئه نهارا. ووجد الشيخ علي بن

محمد بن الشيخ علي الحريري غريقاً في الجامع مع خلق. وكان يوماً عظيماً.

ولقد أخبر الثقات أنه نزل من السماء عمود عظيم من نار في أوائل السيل، ورُؤي من الدخان، وسمع من الصرخان في الأكوان أمر عظيم كاد يشق القلوب، فقلت:

سَيْلٌ طغا في بعلبكَّ وراعد
ولهيبُ نارٍ ثار للتعذيب
فَلَئِنْ تركَّبَ ثم مَازَجَ سُورُهُ
فلبعلبكَّ المزْجُ في التركيب[7]

ـ النّصّ الخامس

للحافظ أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المتوفى (٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م).

«..إنه قبل ذلك جاءهم رعد وبرق عظيم معها برد ومطر، فسالت الأودية، ثم جاءهم بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال شرق مقدار أربعين ذراعاً، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجاً صحيحاً ومعه من جانبه مدينتين. (كذا. والصواب: بدنتين) فحمله كما هو حتى مر، فحفر في الأرض نحو خمسمائة ذراع، سعة ثلاثين ذراعاً، وحمل السيل ذلك الى غربي البلد، لا يمر على شيء إلّا أتلفه. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فأتلف ما يزيد على ثلثها، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوي على حائطه الغربي فأخربه وأتلف جميع ما فيه: الحواصل، والكتب، والمصاحف، وأتلف شيئاً كثيرا من رباع الجامع، وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وغرق في الجامع الشيخ علي بن محمد بن الشيخ علي الحريري هو وجماعة معه من الفقراء، ويقال: كان من جملة من هلك في هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربعة وأربعون نفساً، سوى الغرباء، وجملة الدور التي خربها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمائة دار وحانوت، وجملة البساتين التي جرف أشجارها: عشرون بستاناً. ومن الطواحين: ثمانية، سوى الجامع، والأرمينية. وأما الأماكن التي دخلها وأتلف ما فيها ولم تخرب فكثير جداً»[8].

ـ النص السادس

لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المتوفى سنة (٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م).

«قدم البريد بمحضر ثابت على قاضي بعلبك بنزول مطر في يوم الثلاثاء سابع[9] صفر، ببعلبك، عقبه سيل عظيم أتلف شيئاً كثيراً، وهدم قطعة من السور، وغرق المدينة، وتلف بها شيء كثير، ومات ألف وخمسمائة إنسان، سوى من مات تحت الردم، وانهدم منه ثمان مائة وخمسة وتسعون بيتاً، ومائة وأحد وثلاثون حانوتاً، وأربعون بستاناً، وثلاثة عشر جامعاً ومدرسة ومسجداً، وسبعة عشر فرناً، وأحد عشر طاحوناً، وهدم برجا من السور ارتفاعه ثمانية وثلاثون ذراعاً، ودوره من أسفله ثلاثة عشر ذراعاً، ذهب جميعه»[10].

النص السابع

لحمزة بن أحمد بن سباط العاليهي الفقيه، المتوفى سنة (٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠ م).

«وفي هذه السنة كان دخول السيل العظيم إلى مدينة بعلبك لم يعهد مثله، حتى أن السيل دخل الجامع ووجدوا به الشيخ علي بن الحريري غريقاً به ومعه جماعة كثيرة، ثم توجه من دمشق الأمير بدر الدين ابن معبد الى بعلبك لرؤية الحال وكشف الأمور، فرجع ومعه كتاب نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: (وَمَا نُرْسِلُ بالآيَاتِ إلَّا تَخْوِيفاً)[11].

وقال تعالى: (إنَّ فِي ذَ لِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الابْصارِ)[12].

فمن لمح هذه الواقعة العظيمة بعين الاعتبار وشاهدها بقلب الافتكار حَمَد الله تعالى كيف أراده بخيره، وجعل عِبْرَةَ نفسه بغيره. (إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ[13] شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ[14]).

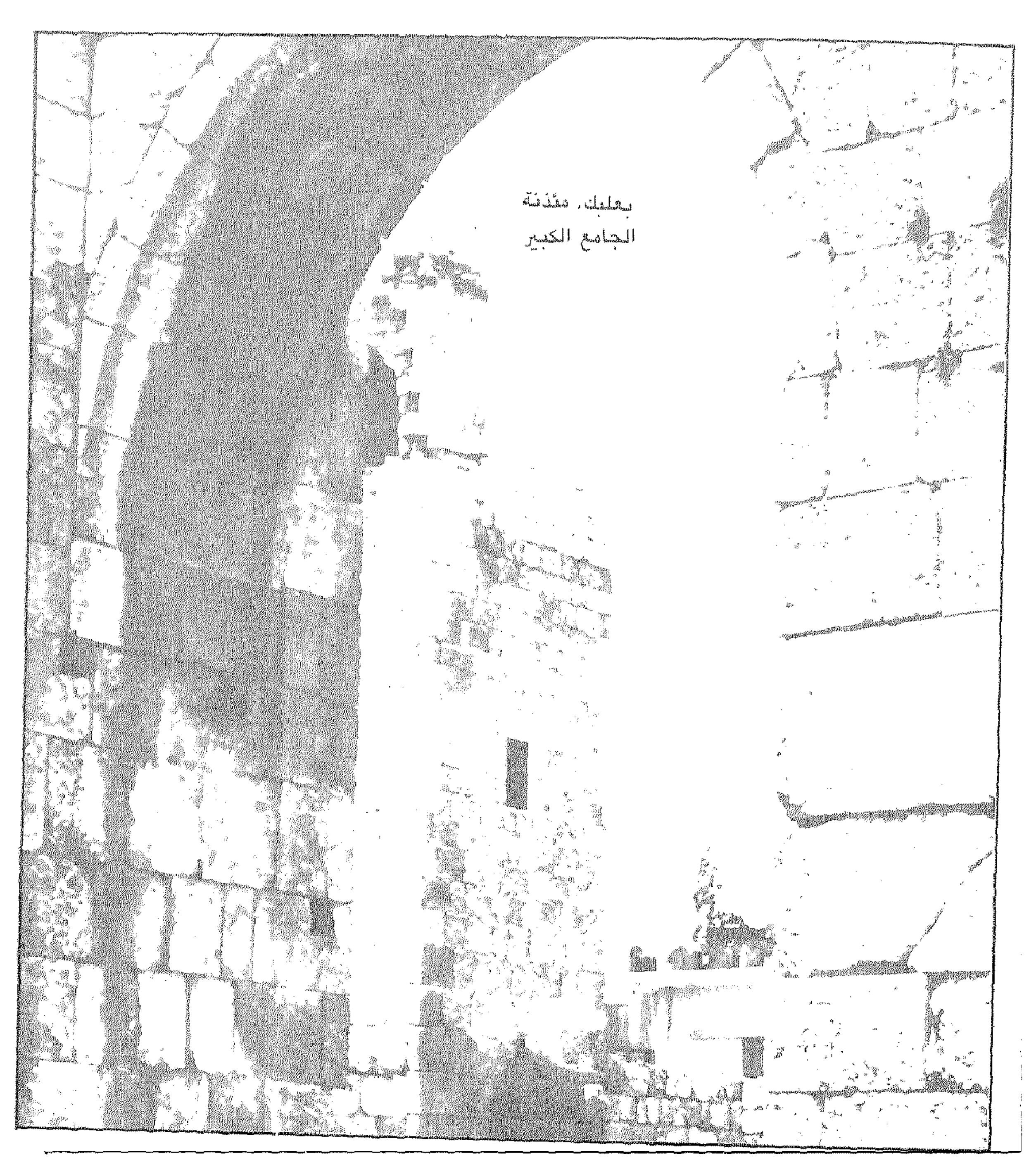
ولما كان بين الظهر والعصر، والسابع والعشرون من سفر، (كذا) سنة سبعة عشرة

وسبعماية، أرسل الله سبحانه وتعالى سحابة عظيمة ذات رعد، وبرق، ومطر غزير، وبرَد، سالت منها الأودية شرقي بعلبك المحروسة، وحملت ما مرّت عليه من أشجار العنب وغيره، وانفرقت على البلد فرقتين فرقة في الناحية الشرقية بقبلة، سالت حتى انتهت إلى النهر، وبحرت بحرة عظيمة على السور حتى كادت تبلغ شرفاته ارتفاعاً، وتزايدت عظماً وإفزاعاً، فلطف الله تعالى وثبت السور، وتصرفت مع جريان النهر ولم يحصل — بحمد الله تعالى — كثير أمر ولا فساد.

والفرقة الثانية ركب البلد فيما بين باب دمشق وباب نحلة شرقي البلد بشمال،وانزجرت هناك على السور نحو من ذلك المنوال، فلما اجتمعت ونقلت خرقت من سور البلد ما مساحته في الطول أربعين دراعاً، مع انه محكم البنيان، شايد الأركان. وحصل مما يليه الصدع مع أن سمكه خمسة أذرع، وأخذت برجاً على التمام والكمال وبعض بدنة عن اليمن (كذا)، وبعض بدنة على الشمال. وهذا البرج درعه من كل جانب خمسة عشر دراعاً فحمله الماء وهو على حاله لم ينقض حتى مر على فسحة عظيمة نحو خمسماية دراع من الأرض. وأخذ السيل في البلد إلى جهة الغرب جارياً، فما مر على شيء في طريقه إلا جعله خاوياً، ولا شاخص البناء ولا غيره إلا جعله للأرض مساوياً، فخرب المساكن وأذهب الأموال، وغرق الرجال والحريم والأطفال، وأثكل الأمهات والآباء، وأيم الأزواج ويتم الأبناء. ثم لم يزل حتى دخل الجامع الأعظم والمدرسة التي تليه فانجزر بها حتى كاد يطلع روس العمد في تناهيه، فأتلف ما فيها من المصاحف والربعات وكتب العلوم والأحاديث والنبويات، وسرح فيها، وخرب وغرق ما أزعج القلوب وأقلق، وانفجر بالجدار الغربي من الجامع فهدّمه، وأخذ ما أمر عليه من البنيان وهذا شاهد بالعيان، حتى بلغ خندق القلعة المنصورة، فخرق من سور البلد الغربي الملاصق لها ما مقدار خمسة وعشرون دراعاً، وخرج من البلد فما مر على بستاناً (كذا) إلّا وأجابته أشجاره سرعاً، وما قيل: (يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقْلعي)[١٥] حتى صارت دور المساكن على الطرقات، وأصحاب الأموال يستحقون الصدقات، وتهدم المساجد، ثم تعطلت الصلوات.

ولقد جرى في هذه اليوم (كذا) من العجايب ما لا يعد، ومن الغرائب ما لا يحد، حتى أخبر الثقات أنه نزل من السما عامود عظيم من نار، من أوايل السيل، ورأى من الدخان، وسمع من الصرخات في الألوان يضعف الحيل ويزيد الويل. ووجد في الأماكن المستغِلة من الغرقى خلق كثير، وتعطلت[١٦] الطواحين والحمامات، وتشعثت المارستان[١٧]، وأفضت المرضى فيه الى الممات. وما دفع الله كان أعظم وأكبر، وما بقي من العامر والأحياء فهو أكثر، وحصلت الشهادة الموجبة للجنان للأموات، والموعضة المودية الى رضا الرحمن للأحياء في جميع الجهات، ويشهد بذلك خط الحاكم بأعاليه، وشهادة من يضع شهادته فيه، وخط الحاكم ثبت عندي مضمونه، وعاينت بعض ذلك، وكتبه أبو بكر الخابوري[١٨] ومن شهد به: الشيخ قطب الدين اليونيني[١٩]، وابن أخيه محيي الدين[٢٠]، وشمس الدين[٢١]، ومحيي الدين ابن الخطيب[٢٢]، وغيرهم من الأكابر، وكتب أوراق تشتمل على ما هدم السيل بمدينة بعلبك المحروسة بتاريخ نهار الثلاثا سابع عشرين صفر سنة سبعة عشرة وسبع ماية، وسعته كما تذكره الجامع المشهور المعمور بذكر الله تعالى، والمساجد المعمورة، وما يذكر من السور من الجانبين، والدور، والحوانيت، والحمامات، والطواحين، والاصطبلات، وما عدم فيه من الرجال، والنساء، والأطفال، والخيول، والدواب، وغير ذلك لمن لبيت المال منه نصيب، وذلك ما أمكن ضبطه من المعروف خارجاً عن الغرباء الذين كانوا بالجامع والمساجد والطرقات لم يعرفوا ذلك بمقتضى التذكرة الواردة على يد الجناب الكريم، العالي، المولوي، الشيخ، الإمامي، العالمي، العلامي، الكمالي، وكيل بيت المال المعمور بالشام المحروس.

وجرى ذلك جميعه بمباشرة وكيل المال ببعلبك، ومن ندب معه من العُدُول الواضعين خطوطهم، والمباشرين بالديوان المعمور، بحضور الجناب الكريم العالي، نايب السلطنة المعظمة ببعلبك المحروسة وأعمالها[٢٣]، والجناب العالي،



بعلبك، مئذنة
الجامع الكبير

القضـــاء الكمـالي، وذلك خـــارج عن الكـــروم والبساتين ظاهر المدينة، بحكم أنه لم يقف عليها أحد، ما عِدَّتُه:

ـــ رجال ونساء وأطفال، خارجاً عن من عدم في الجامع والطرقات ولم يُعرفـوا: مايـة [و] سبعة وأربعين نفر.

ـــ ببوت: ثمانماية.

خمسة وتسعون خراب.

أربعمايه وخمسين مشعّثة.

أربعمايه وأربعة عشر (؟).

ـــ حوانيت: ماية [وو] أحد وثلاثين.

خراب منها: أربعة وخمسين.

مشعّثة: سبعة وسبعين.

ـــ بساتين: أربعة وأربعين.

ـــ الجامع المعمور.

ـــ والمدارس والمساجد: ثلاثة أعشر. (كذا).

ـــ أفْرنة: سبع أعشر (كذا).

ـــ قِني خراب للسبيل: أربعة.

ـــ طواحين: أحد عشر.



طرابلس، صحن الجامع الكبير (٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م).

والذي عـدم فيهـا من الآدميـين: سبعـة وأربعين».

«وفي هذه السنة ثار ريح عظيم بين أرض الركيل[٣٤] وتل زبيد، وعاصف من جهة البحر وتكوّنت عموداً أغبر متصلا بالسحاب صورة تنّين، أخربت بيوت التراكمين وما تركت شيئاً من البيوت ولا من الاناث (كذا) ولا من أهل الزّوق غير ثلاثة عشر نفراً، وتجرّح منهم ثلاثة من ملاقات الأخشاب والحجارة، وخطفت الريح جملين وارتفعت بهما في الجو مقدار عشرة أرماح وغابت بهما عن العيون، وذهبت بقُدُور النحاس والصاجات، وكان إلى جانب الزوق عَرَب، خطفت الريح منهم أربع جمال، وارتفعت بهم وألقتهم في البحر، ثم وقع بعد ذلك مطر وبرد كبار، وتقدير البردة ثلاث أواق على هيئة أشكاف الحجارة، منها مثلّث ومربّع، فهلك من الزرع والغلات شيء كثير.

وكتب بـذلك محضر وثُبّت عنـد قـاضي طرابلس[٣٥] ووضع خطه عليه، وسيره نـائب طرابلس[٣٦] إلى دمشق»[٣٧].

* * *

وحادثة الريح التي ذكرها «ابن سباط» في حوادث سنة ٧١٧ هـ/١٣١٧م جرت في السنة التالية لها (٧١٨هـ/ ١٣١٨م) حسب روايات المؤرخين المتقدمين أمثـال: «النويـري» و«ابن الوردي» و«ابن أيبك» و«الفيومي» و«اليافعي» و«ابن بهادر المؤمني»، و«المقريزي» و«العَيْني».

ونكتفي بإثبات النصين التاليين:

١ ـ النص عند شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري، المتوفى سنة (٧٣٣ هـ / / ١٣٣٣م).

«في [يوم] الأربعاء ثاني صفر سنة ثمان عشرة وسبعماية، ثارت ريح شديدة وقت صلاة الظهر بأرض الجون من بلاد طرابلس، ومرّت على بيوت الأمير علاء الدين علي بن الدرساكي مقدّم أمير التركمان، في الجـون، بيت قريتي: الوكيل والمُغَيْصرة وكان خروجها من جهة البحر فكسرت أخشاب بيوته، ثم تقدمت إلى بيوت الأمير علاء الدين طوالي بن ألبكي، فلما انتهت إليه تكوّنت عموداً أغبر متصلاً بالسحاب صورة يقين، وبقي ذلك العمود على بيوته ساعة، يمرّ عليها يميناً وشمالاً، ثم يعود، فما ترك ذلك العمـود في البيت شيئـاً ولا منهـا إلا أهلكـه واحتمله، فحُكي عن طوالي أنه لما عـاين ذلك قال:

يا رب قد أخذت جميع الرزق وتركت العيال بغير رزق، فأي شيء تركت لهم حتى أطعمهم؟

فعاد ذلك العمود من الريح بعد خروجه عنه إلى بيوته فأهلكه، وأهلك زوجته، وابنته، وابنتي ابنته، وجاريته، وأحد عشر نفساً. وجرح ثلاثة أنفس من ملاقات الأخشاب والحجارة عند هبوب تلك الريح. وحملت الريح جملين ورفعتهما في الجو مقدار عشرة أرماح. وتقطع القماش والأثاث وحملته الريح حتى غاب عن العين، وطويت القدور، والنحاس، والصاجات الحديد فصار بعضها على بعض. وحملت الريح جارية طوالي من مكان إلى مكان آخر مسافة، وكان إلى جانب بيوت طوالي بيوت عرب، فاحتملت الريح لهم أربعة أحمال، وارتفعت في الجو وعادت قطعاً. وهلك دوابٌ كثيرة، ووقع بعد ذلك برد ومطر زنة القطعة من البرد ثلاثة أوراق ودونها.

ورسم نائب السلطنة بكشف هذه الحادثة، وندب من جهته من توجه لكشفها فكشفت، ونظم بصورة الحال محضراً وقع الأشهاد فيه على من شاهده، وجهزت نسخة المحضر إلى الأبواب السلطانية وغيرها»[٣٨].

٢ ــ النصّ عند بدر الدين العيني، المتوفى سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥٠م).

«إن ريحاً عقيماً شديدة جداً هبّت ببلاد طرابلس الشام ومرّت على ذوق من التركمان المقيمين بها، فاحتملت ما مرت عليه من خيل وجمال وأبقار وأغنام وبيوت وخركاوات[٣٩]، حتى أعدال الدقيق المملوءة، وغرار الغلّة.

وكان فيمن طارت به الريح ولد من أولاد طوالي قضى الله بسلامته فسلم، وحضر إلى الأبواب السلطانية وأخبر بالحال. وذكر السبب في سلامته، وذلك أنه حين طرحته الريح على الأرض سقط على مكان متكاثف العشب والنبات فسلم من الممات، إلّا أنه تهشم وتحطم وشكى الوجع مدة. وكان ابتداء هبوب هذه الريح عند مكان يسمى «كير ابراهيم» ببلاد طرابلس»[٣٠]. ■

مصادر البحث وحواشيه

(١) الصواب: سابع وعشرون.

(٢) الدُّرُّ الفاخر في سيرة الملك الناصر ــ نشره: هانس روبرت رويمر (من كنز الدُرر)، ج ٩/ ٢٩٠ و٢٩١، طبعة القاهرة ١٩٦١.

(٣) المختصر في أخبار البشر، طبعة الحسينية بمصر ١٣٢٥هـ، ج ٤/ ٨١ و٨٢.

(٤) هو قاضي القضاة ببعلبك وطرابلس محمد بن عيسى بن عبد اللطيف البعلبكي المعروف بابن المجد ويلقب بشمس الدين. ولد ببعلبك سنة ٦٦٦هـ. وتوفي وهو على قضاة طرابلس سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م.

قال فيه ابن الوردي:

لقد عاش دهراً يخدم العلم جهده

وكان قليل المِثْل في العلم والوِدّ

فلما تولى الحكم ما عاش طويلاً

فما هُنّيء ابنُ المجد والله بالمجد

(أنظر عنه: أعيان القصر، للصفدي (مخطوط)، ج ٦ ق٢/ ٢٠٥؛ المنهل الصافي لابن تغري بردي (مخطوط)، ج ١/ ٢٣٨ و٥/ ١٤٨، الدرر الكامنة، لابن حجر ٤/ ٢٤٨، تاريخ الجزري (مخطوط)، ج ١/ ١٧٦، من ذيول العبر ١٦٣، المختصر في أخبار البشر ٤/ ١٠١، البرزالي ٢٠٥، البداية والنهاية، لابن كثير ٣/ورقة ٣٤، بغية الوعاة، للسيوطي ١/ ٢٢٨، تتمة المختصر، لابن الوردي ٢/ ٢٩٣، دول الإسلام، للذهبي ٢/ ٢٢٣) وهو في معجم رجال الحديث ــ من إعدادنا ــ ق ٢، ج ٤ (حرف الميم).

(٥) يقصد بها المدرسة الأمينية التي بنيت بين سنتي (٦٢٧ ــ ٦٣٧هـ) وتنسب إلى واقفها «أعين الدولة أبي الحسن بن غزال الطبيب» وزير الملك الصالح اسماعيل بن ايوب.

(أنظر عن المدرسة مقالة لنا بعنوان (من تاريخ المدارس في بعلبك»، نشرت في مجلة «الفكر الاسلامي، العدد ١١ سنة ١٩٧٩، ص ٢٥ ــ ٤٤).

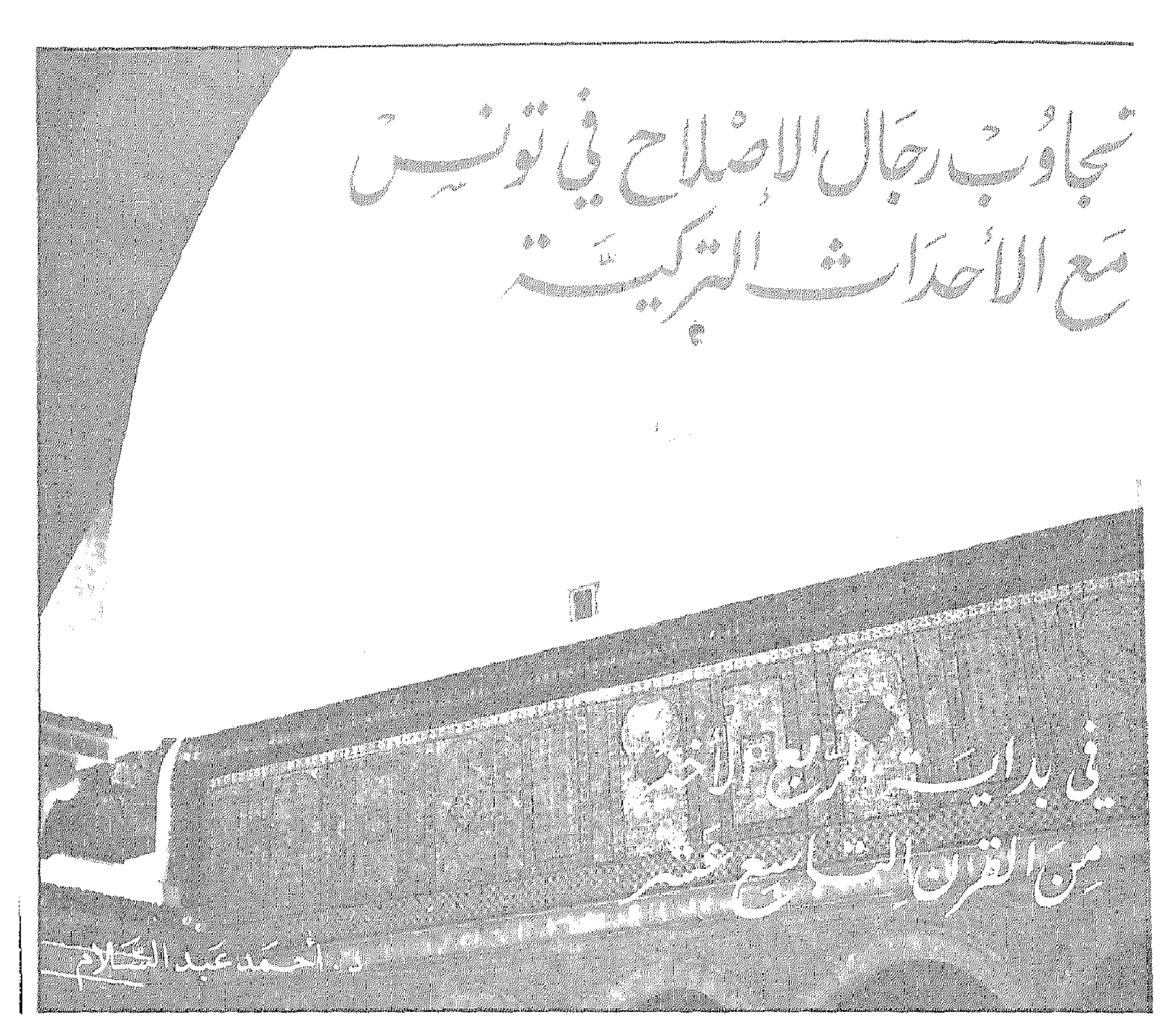
(٦) دول الاسلام، تحقيق: فهيم شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم، ج ٢/ ٢٢٣، طبعة الهيئة العامة للكتاب بمصر ١٩٧٤.

(٧) تتمة المختصر في أخبار البشر (المعروف بتاريخ ابن الوردي)، ج ٢/ ٢٦٥ و٢٦٦، طبعة مصر ١٢٨٥هـ.

(٨) البداية والنهاية في التاريخ، ج ١٤/ ٨١ و٨٢، طبعة بيروت ١٩٦٦.

(٩) الصواب: سابع وعشرين.

(١٠) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، طبعة دار الكتب المصرية، ج ٢، ق ١٧١/١.
(١١) قرآن كريم، سورة الإسراء الآية ٥٩.
(١٢) قرآن كريم ـــ سورة آل عمران الإية ١٣.
(١٣) في الأصل «أرا».
(١٤) قرآن كريم، سورة يس، الآيتان الأخيرتان من السورة. وقد وردت في الأصل «يرجعون».
(١٥) قرآن كريم، سورة هود، الآية ٤٤.
(١٦) في الأصل «تعطله».
(١٧) المارستان ـــ أو ـــ البيمارستان: مركّب من: بيمار أي: مريض، ومن: ستان، أي: محل. ويعني محلّ المريض أي المستشفى. وهي كلمة فارسية، وبالتركية: خسته خانه.
(أنظر: معجم الألفاظ الفارسية المعرَّبة، ص ٣٣، السيد أدّي شير، مكتبة لبنان ١٩٨٠).
(١٨) هو القاضي الإمام شمس الدين أحمد بن عياش الخابوري، المتوفى في سنة ٧٢٣هـ. وقد ولي ابنه صدر الدين محمد الخطابة في الجامع الناصري المعروف بالتوبة في طرابلس.
(أنظر عنهما: البداية والنهاية ١٠٧/١٤؛ فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبي ١٤٩/١؛ للصفدي ٢٤٤/١٠؛ الدرر الكامنة ٢٣٦/٣ و٢١٤/٤؛ تاريخ ابن قاضي شهبة (المخطوط) ج ١٩٥/٢؛ إنباء الغُمْر، لابن حجر ٥٣٨/١؛ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ٢١٦/٦؛ لحظ الألحاظ، لابن فهد ٢٢٤؛ صُبْح الأعشي، للقلقشندي ٤٧٤/١٢ و٤٧٥؛ تاريخ وآثار مساجد ومدارس طربلس في عصر المماليك، عمر عبد السلام تدمري، ص ١٥١ و١٥٢؛ تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر المماليك)، د. عمر عبد السلام تدمري، ج ٥٥٧/٢، بيروت ١٩٨١).
(١٩) هو المؤرخ موسى بن محمد البعلبكي اليونيني من بلدة يونين القريبة من بعلبك. صاحب كتاب التاريخ الذي ذيّل به على «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي. ولد سنة ٦٤٠هـ. بدمشق وتوفي سنة ٧٢٦ ببعلبك.
(أنظر عنه: ذيل طبقات الحنابلة ٣٧٩/٢ و٣٨٠؛ من ذيول العبر ١٤٥ و١٤٦، البداية والنهاية ١٢٦/١٤؛ الدرر الكامنة ١٥٣/٥؛ المنهل الصافي ٣٧٧/٣).
(٢٠) لعله محيي الدين البعلبكي الحنبلي الذي يروي عن زينب بنت عمر بن كِنْدي الدمشقية المتوفاة سنة ٦٩٩ وله «مشيخة» مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق.
(أنظر: أعلام النساء، لكحّالة ١٠١/٢ و١٥٢ و٣٤١).
(٢١) انظر الملحوظة رقم (٤).
(٢٢) هو: محمد بن عبد الرحيم السلمي ويُكنى أبا المعالي، ويعرف بالإمام محيي الدين خطيب بعلبك. كان مسندها وشيخ الكتابة بها. ولد سنة ٦٥٨ وتوفي سنة ٧٤٣هـ.
(أنظر عنه: من ذيول العبر، الدرر الكامنة ١٢٩/٤؛ النجوم الزاهرة ١٠٤/١٠).
(٢٣) لم نتبين اسم نائب بعلبك وقت حادثة السيل. ونحن نعرف أنه كان على نظارتها قبل الحادثة «أحمد بن المسلم» وبعد الحادثة «محمد بن عبد الواحد».
(٢٤) الصواب: «الوكيل» كما سيأتي في نص النويري.
(٢٥) هو: الحسن بن رمضان القرمي (٧١٦ ـــ ٧٢٣هـ).
(أنظر عنه في «قضاة الشافعية بطرابلس» من كتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (عصر المماليك)، ج ٥٧/٢ ففيه مصادر ترجمته).
(٢٦) هو: شهاب الدين قرطاي بن عبد الله الأشرفي (٧١٦ ـــ ٧٢٦هـ).
(أنظر عنه في «نواب السلطنة بطرابلس» من كتابنا: تاريخ طرابلس... ج ٣٥/٢).
(٢٧) تاريخ ابن سباط، ج ١٢٧/١ب، ١٢٩أ، (مخطوط) منه نسخة مصورة في الجامعة الاميركية ببيروت تحت رقم ٩٦٥ ـــ ٩، رمز MS113 TA في جزءين.
(٢٨) نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ١١٩/٣٠ (مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة) وانظر أيضاً: السلوك، ج ٢ ق ١٨١/١ و١٨٢؛ تاريخ ابن الوردي ٢٦٧/٢، الدر الفاخر ٢٩١، نثر الجمان، للفيّومي (مخطوط) ١٢٢ ب.
(٢٩) خركاوات: جمع خركاة أي الخيمة.
(٣٠) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢٣ ق ١٤٧/١ و١٤٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ) وانظر أيضاً: فتوح النصر، لابن بهادر المؤمني، (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣٩٩ تاريخ، ج ٢٤٢/٢) وتاريخ الأمير حيدر الشهابي، ص ٤٨٥ و٤٨٦، طبعة مصر ١٩٠٠، تاريخ الأزمنة، للبطريرك اسطفانوس الدويهي، ص ١٦٩ و١٧٠، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥١.



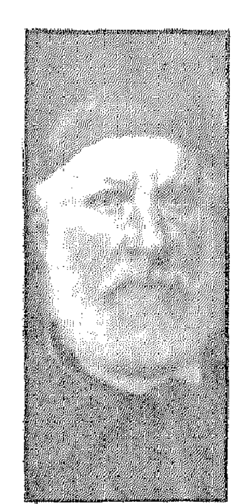
إن العلاقات السياسية بين تونس والخلافة العثمانية معروفة وقد حظيت بعناية العديد من الباحثين. لكن العلاقات الثقافية بين تونس وعاصمة السلاطين اسطنبول لم تنل نفس الحظ من البحث والدراسة بل قد يتوهم بعضهم ان تلك العلاقات الثقافية كانت معدومة لبعد المسافة التي تفصل البلاد التونسية عن تركيا ولقلة الوثائق باللغة التركية التي بقيت في تونس.

وقد نبهنا في كتاب نشر منذ سنوات[1] إلى ان المثقفين من التونسيين كانوا في القرن التاسع عشر متصلين باسطنبول ومطلعين على أهم ما جرى اذ ذاك بالعاصمة العثمانية وقد كانت وسائل الاطلاع مختلفة فمنها المكاتيب الواردة على تونس من الباب العالي ومنها المبعوثة في المناسبات الهامة ومنها أيضاً مكاتيب نواب البايات في اسطنبول الذين كانوا حريصين على اطلاع مندوبيهم على ما يمكن ان يعينهم على

استاذ في كلية الآداب ـ الجامعة التونسية.

فهم السياسة التركية والاحتياط لنتائجها في علاقاتهم بالسلطان وبوزرائه ومنها كذلك في منتصف القرن التاسع عشر الصحف التي كانت تصدر باسطنبول وخاصة جريدة «الجوائب» التي كانت لمحررها أحمد فارس ـ الشدياق ـ ثم لابنه سليم علائق قديمة ببايات تونس وبوزيرهم مصطفى خزندار. وقد سبق لنا أيضاً أن بيّنا[2] ان أهم مظاهر التعامل الثقافي في القرن التاسع عشر بين تونس وتركيا تمثل في

تتبع رجال السياسة والفكر بعامة في البلاد


أحمد فارس الشدياق

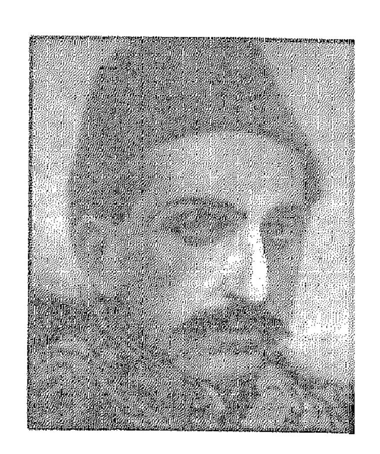
التونسية لسياسة التنظيمات التي شرعت فيها الخلافة العثمانية من بداية القرن والتي استمرت في شبه حركة مد وجزر طيلة ذلك القرن.

وقد بدأ اهتمام الساسة في تونس بالتنظيمات في صورة التخوف من فرض مقتضياتهم عليهم من تبعية ادارية وتحويرات في هياكل الحكم، وذلك ايام أحمد باي (١٨٣٧ ــ ١٨٥٥) وفي بداية دولة محمد باي (١٨٥٥ ــ ١٨٥٩). لكن هذا الباي الأخير اضطر هو بدوره لأسباب محلية وبحكم علاقاته بالدول الاوروبية الى ادخال تحويرات هامة على نظام الحكم المتبع في تونس وذلك باصدار ما سمي «بعهد الامان» وهو نص يضمن لجميع المتساكنين بالبلاد التونسية الحقوق الاساسية التي تتضمّنها الدساتير العصرية. وقد ظهر في تلك الفترة تحول في تفكير قسم من رجال الدولة والمثقفين التونسيين فأصبحوا من أنصار ما سماه أحدهم، وهو المؤرخ أحمد بن أبي الضياف، «بالملك المقيّد بقانون» أي الحكم الدستوري، وقد عبر عن موقف هذه الجماعة الوزير خير الدين في مقدمة كتابه المعروف «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» الذي طبع في المطبعة الرسمية التونسية في سنة ١٨٥٧. والملاحظ ان خير الدين قد بين في هذه المقدمة الاصلاحات التي كان يراها نافعة للدولة الاسلامية في جملتها لا لتونس وحدها. فكان يرمي الى اصلاح الخلافة العثمانية وقد بسط أهم مشاكلها في ذلك العصر وأشار الى وجوه التغلب على تلك المشاكل. وقد حرص خير الدين بعد ذلك على ان يبلغ آراءه الى الساسة الاتراك والعمل على ترجمة مقدمة كتابه الى اللغة التركية في سنة ١٨٧٦ وفي تلك المدة، أي من أواسط القرن، تزعم خير الدين ثلة من رجال الاصلاح كانوا يرمون في آن واحد الى إصلاح الحكم في تونس وإلى تقوية روابط البلاد التونسية بالخلافة العثمانية، وقد كان من نتائج عملهم صدور الفرمان السلطاني الذي ضبط في عام ١٨٧١ علائق تونس بالخلافة. وقد تولى خير الدين الوزارة بتونس من عام ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٧. وأثناء حرب البلقان في سنتي ١٨٧٦ و١٨٧٧ جمع خير الدين إعانة مالية ذات بال وبعث بها الى الدولة العثمانية مع مدد من الخيل والبغال.

وقد كانت هذه الاعانة أقل ما يمكن القيام به اعتبارا للعلاقات التي حددها فرمان ١٨٧١. وقبل ذلك بعشرين سنة كان أحمد باي قد أمدّ الدولة العثمانية بجيش في حرب القرم سنتي ١٨٥٥ ــ ١٨٥٦ مكفراً بهذا الصنيع عن تصرفه تصرف الملك المستقل في غالب أيام حكمه. وإن اكتفى خير الدين عامي ١٨٧٦ و١٨٧٧ بهذه الاعانة المتواضعة للدولة العثمانية فلأن تونس كانت تعاني إذ ذاك ضيقاً مالياً شديداً وكانت مداخيلها ونفقاتها مراقبة من طرف لجنة مالية دولية ولأن قنصل فرنسا كان يعارض معارضة شديدة كل مظاهر التضامن مع الخلافة العثمانية مهما كان نوع ذلك التضامن وكانت تدخلاته المتوالية تؤثر على الصادق باي الذي لم تكن مشاعره موافقة كل الموافقة لمشاعر خير الدين.

نعم قد أكدت الدولة العثمانية المطالبة بمدد من العساكر ولكن ذلك كان ببرقية مؤرخة في ١٤ اغسطس ١٨٧٧ أي ثلاثة اسابيع بعد استقالة خير الدين في ٢٢ جويليه ١٨٧٧ ومن الممكن ان تكون هذه البرقية قد أرسلت بايعاز من أحد مساعدي خير الدين وهو الجنرال حسين. وبدأت حكومة باي تونس في تجهيز أربعة آلاف جندي، لكن الهدنة وقعت في ٣١ جانفي ١٨٧٨، قبل سفر أولئك الجنود.

ولم يؤثر اقتصار خير الدين على اعانة محتشمة للدولة العثمانية في حرب البلقان على علاقاته بالسلطان عبد الحميد، بل توطدت تلك العلاقات بزيارة الشيخ محمد ظافر شيخ الطريقة المدنية وصديق عبد الحميد ونجيبه الى تونس أثناء وزارة خير الدين واستمرت بينهما المراسلة بعد ذلك فلم يمض على استعفاء خير الدين من الوزارة في تونس أكثر من سنة حتى

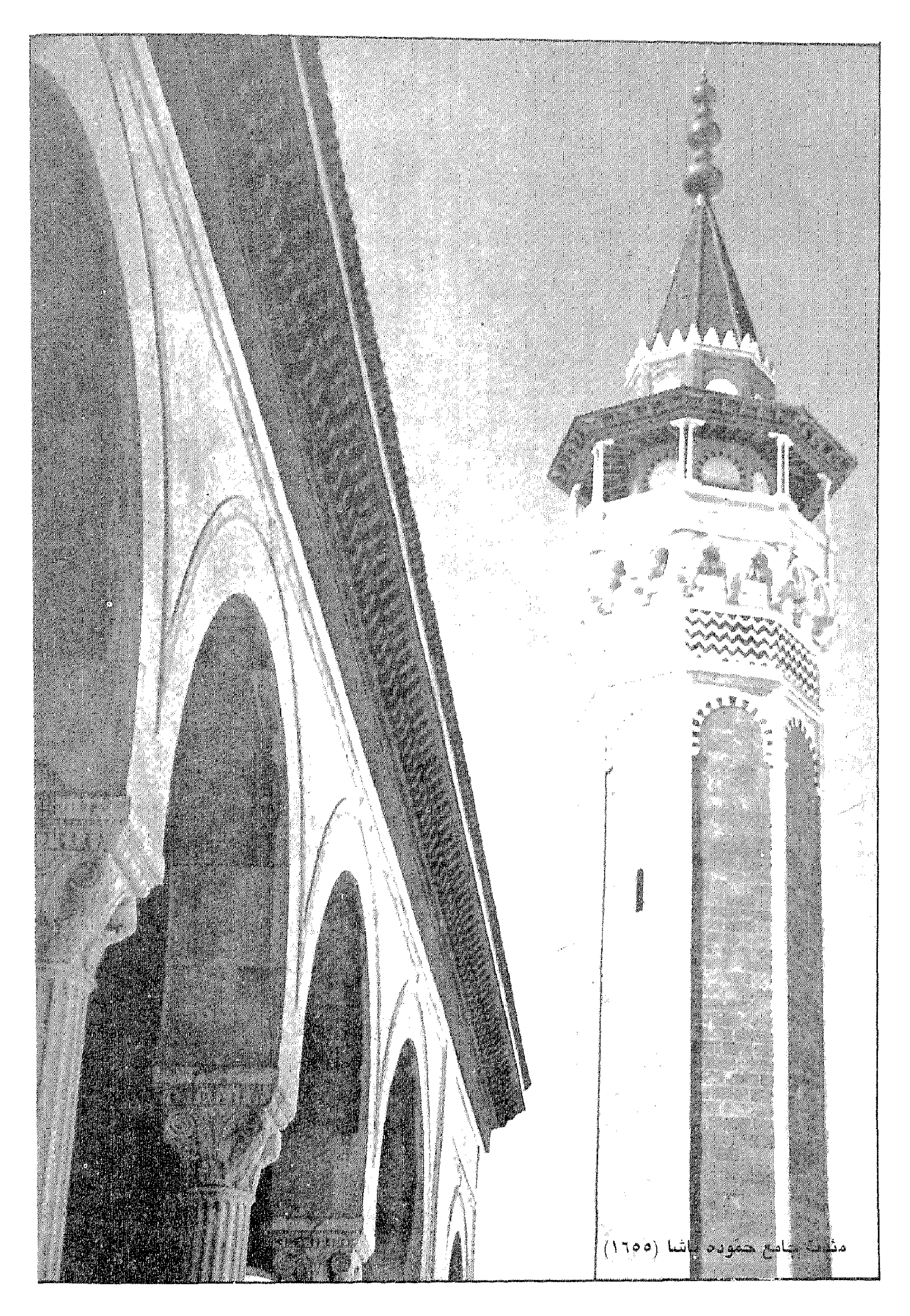


السلطان عبد الحميد

أبرق اليه السلطان عبد الحميد بالدعوة الى اسطنبول فانتقل إليها في سبتمبر ١٨٧٨ وتقلد الصدارة العظمى في ٤ ديسمبر ١٨٧٨ وبقي بها إلى آخر جويليه ١٨٧٩. وقد تعرض خير الدين فيما أبقاه من مذكرات إلى ما عاناه من مشاق أيام وزارته. إذ كان لا بدّ له من تلافي نتائج انهزام الدولة السابق في البلقان. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان موقفه دقيقاً وصعباً تجاه العداوة المستحكمة بين السلطان وقسم من الساسة الأتراك ومنهم مدحت باشا الذي سنرى ميل قسم من رجال الاصلاح التونسيين اليه وإلى أمثاله في النص الذي ننشره في آخر هذه الدراسة.

ولم يتولّ خير الدين منصباً معيناً بعد الأشهر التي قضاها في الصدارة العظمى، لكنه كان متصلاً بالسلطان وتجرى عليه جراية وقد كلف بعد احتلال تونس بكتابة تقرير عن أحوال بلاده بمشاركة أحد مساعديه القدامى الذين التحقوا به في اسطنبول وهو محمد بيرم الخامس. وقد شاع في تونس ان السلطان ينوي عزل الصادق باي وتعويضه بخير الدين إثْرَ حملة عسكرية تسترجع بها الدولة العثمانية الولاية التونسية لكن ذلك كان من الافتراضات التي لم يكن ضعف الدولة يساعد على تحقيقها.

إن الأحداث التي لخصناها في الأسطر السابقة معروفة وأثرها مبسوط في التواريخ العامة لذلك نكتفي بالاشارة اليها اشارة سريعة. والمهم هنا ليس سرد الأحداث بل المهم في نظرنا هو التأكيد على مغزى لتلك الأحداث قليلاً ما يقع التأكيد عليه وهو التحول الذي وقع منتصف القرن التاسع عشر في موقف ثلة من «رجال الحلّ والعقد»[٣] التونسيين من السياسة العثمانية. فبعد أن كان الباي وجميع أعوانه حتى أواسط القرن يقفون من تلك السياسة موقف الاحتراز وعدم الثقة وإن تظاهروا بالسمع والطاعة، وظهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثلة من رجال الدولة والعلماء الشبان تجاوزوا ملاحظة الدسائس اليومية الى اعتبار المصالح الاسلامية العامة ولاحظوا ضعف الممالك الاسلامية عامة ورأوا أن أفضل الأمور اصلاح الحكم في الخلافة العثمانية وفي جميع الأراضي التابعة لها بصورة من الصور. ولاحت لهم سبل الاصلاح في اقتباس ما يوافق الشريعة الاسلامية من نظم حديثة جربت اوروبا نجاعتها. وهذه الآراء قد سبق التونسيين اليها مفكرون في تركيا وفي سائر الاقطار الاسلامية الخاضعة للحكم العثماني فكون ذلك لحمة جديدة و تجاوباً فكرياً بين محبذي الاصلاح في تونس وبين الدعاة الى «التنظيمات» في تركيا وفي غيرها من أرض الاسلام. وقد أخذ عدد هذه الجماعة من الضباط ومن العلماء التونسيين ينمو ونفوذهم يقوى وشعبيتهم تزداد يوما بعد يوم في تونس وزاد تمسكهم بآرائهم وشعورهم بالتضامن مع رجال الاصلاح في تركيا وفي سائر دار الاسلام ما وقع من تدهور الامور في تونس بعد اخفاق حكم «القانون» الذي جرب أثر صدور عهد الامان، وبعد ثورة ١٨٦٤ وقمعها وافلاس الدولة من جراء الظلم وفساد الحكم وسوء التصرف المالي. وقد استطاعت تلك الجماعة من رجال الاصلاح ان تشارك في الحكم بتونس مدة تولي خير الدين الوزارة بها. فقد كان خير الدين من هذه الجماعة بل كان رئيسها وزعيمها غير منازع. وقد استعان باولئك الذين كانوا يوافقونه في الرأي والمنهج أمثال الجنرال حسين والجنرال رستم والشيخ محمد بيرم الخامس والشيخ محمد السنوسي وبعد انتهاء تجربة خير الدين للحكم في تونس واخفاق محاولته لاصلاح الحكم التي اشرنا اليها اضطر خير الدين وعدد من مساعديه ممن ذكرنا أسماءهم ومن غيرهم الى ان يغادروا تونس وأن يعيشوا مدة طويلة أو قصيرة باسطنبول فحمدوا جوانب من الحياة



مئذنة جامع حمودة باشا (١٦٥٥)

بعاصمة الخلافة اثر احتكاكهم برجال السياسة فيها وتذمروامن جوانب أخرى بدت لهم سلبية. إلا انهم قبل ذلك بمدة كانوا بتونس أي حتى سنوات ١٨٧٨ و١٨٧٩ و١٨٨٠ كان تجاوبهم مع أنصار التنظيمات في اسطنبول لا تشوبه شائبة وكانوا على بعدهم عن عاصمة الخلافة بل بسبب بعدهم عنها يشعرون بتضامن مع أنصار «التنظيمات» في تركيا. وكان ذلك التضامن مبنياً على اتفاق في المبادىء والآراء وفي الغاية، فهو تضامن فكري تغذى بتجاوب الأفكار ولم يكن للمناورات السياسية دور كبير فيه.

ويجدر التنبيه الى أن ذلك الموقف الفكري قد نتج عنه طيلة مدة وزارة خير الدين في تونس اهتمام بالغ من طرف الصحيفة الرسمية «الرائد التونسي» بما يجري في عاصمة الخلافة العثمانية[٤] و«الرائد التونسي» قد صدر بانتظام، طيلة المدة مرة في كل أسبوع وكان يشمل في جملة مواده مقالاً اسبوعياً بعنوان «أخبار الاستانة» كثيرا ما يكون مشفوعا بآخر في تحليل بعض الأحداث الهامة الحاصلة في مقر الخلافة او بمقتطفات من «الجوائب» أو بمقال مطول يتناول مسألة من المسائل الجوهرية التي تهم اصلاح الحكم أو تقويم الأفكار في دار الاسلام ومن هذا القبيل المقال لذي رأينا نقله كأنموذج لتجاوب أفكار رجال الاصلاح في تونس مع العاملين على ترسيخ الحكم الدستوري في تركيا سنة ١٨٧٦. وهو يتعلق بما دار من مداولات في مجلس الأمة باسطنبول حول نتائج حرب البلقان وما يجب من اصلاح لتلافي الأمر.

والمقال جدير ان يدرس من ناحية ما يشير اليه من احداث كما هو جدير بأن يدرس بما يعكسه من آراء مشتركة لرجال الاصلاح في ذلك العهد. وتلك الدراسة متعددة النواحي يمكن أن تشمل مقارنة الأحداث التاريخية بصداها وتصورها من طرف مجموعة بشرية كانت تعيش بعيداً عن المكان الذي وقعت فيه. كما يمكن ان تتناول الاصول العقائدية والأخلاقية التي وقع بمقتضاها التجاوب بين التونسيين والأتراك في القرن التاسع عشر. ولا يمكن لنا ان نقوم بمختلف هذه التحاليل والأبحاث في هذا المقام فلنتركها لأهل الاختصاص ولنكتف بنقل ما اعلناه أي بنقل الوثيقة في نصها الكامل. وقد نشرت بالعدد الثلاثين من «الرائد التونسي» المؤرخ بالسادس والعشرين من رجب ١٢٩٣ (١٦ أغشت ١٨٧٦).

المدار على الرجل:

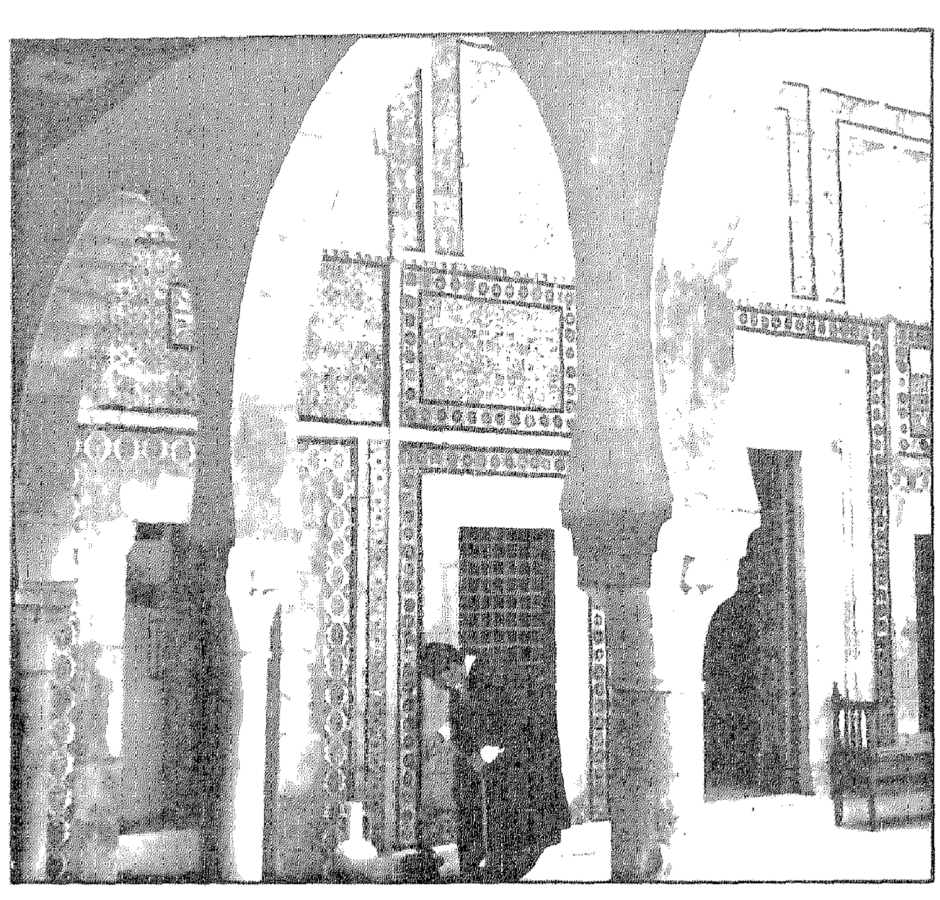
إن الله تعالى لما شرع الشرائع وخاطب المكلفين بها بكتبه المنزّلة على رسله أناط اجراءها في كل امة بقسم منها ليحافظوا عليها. فدل هذا التكليف على سجية في أصل التكوين للبشر وهو ان الوازع النفساني وحده غير كاف في الجري على مقتضى التشريعات سواء كانت سماوية أو عقلية ولهذا أناط شرعنا القويم إمضاء الشريعة بأولى الأمر والنهي من الأمة وجعل أعمالهم في أنفسهم منضبطة بقواعد وأصول مدارها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعل الاحتساب على هؤلاء في أعمالهم لجميع الأمة غير أن المباشرين له هم أهل الحل والعقد على ما هو مبسوط في كتب الشريعة. فهاته الأصول وإن كانت مقررة معلومة لكنها متوقفة على قيام كل من أنيط بعهدته شيء منها بما كلف به فلزم حينئذ اعتبار الرجال المناط ذلك بهم اذ ليس كل رجل اتصف بصفات أهل الحل والعقد قادراً على الوفاء بما هو المطلوب وبيانه ان الرجال (أعني الأفراد الكاملين الذين ينصرف اليهم اللفظ عند الاطلاق على ما هو معهود في كتب البيان) ينقسمون الى ثلاثة أقسام الأول قادر على عمل الفكر وعلى إجرائه في الخارج. الثاني قادر على عمل الفكر فقط ويعجز عن الاجراء في الخارج. الثالث قادر على اجراء أفكار غيره اما أفكاره فقاصرة عن التدبير. بقي من الصور العقلية قسم رابع وهو مقابل الأول اعني العاجز عن الفكر والاجراء معا. فهذا لم نذكره لأنه لا يدخل في تعريف الرجال بالمعنى الذي ذكرناه. ولا إشكال أن القسم الأول، له التقدم على القسمين الباقين وهما يليانه لتوقف كل منهما على الآخر. أعني ان الديانة والامانة تلجىء صاحب الرأي أن يسلم العمل لصاحب الاجراء كما ان صاحب الاجراء يسلم تدبير عمله لصاحب الرأي فظهر



خير الدين التونسي

بهذا ان ملاك الأمر كله هو اتحاد التدبير مع العمل وإن رقم الأفكار في القرطاس لا يغني عن الحق شيئاً وإنما المدار على الرجال العاملين فبثاقب تدبيرهم يكشفون وينتبهون لمحلات الادواء التي هي منشأ الأخطار فيهيئون لها من الاصلاحات ما تدفع به أضرارها ويقودون رؤوس الأمة الى الانقياد لتلك الاصلاحات عن خلوص طوية وصدق نية اذ مثابة اولئك الرجال بالنسبة للمملكة مثابة الروح الانساني من الجسد فاذا أفصح الروح عما ألم بجسده من الأمراض للطبيب الذي هو في موضوعنا رؤوس الامة اهتدى هذا الطبيب للدواء وصادف الحلّ بخلاف ما اذا زور المريض على الطبيب فانه يصيره يخبط خبط عشواء وحينئذ عوض ان يكون دواؤه نافعا يكون مهلكاً. '

ويتضح هذا المعنى بما وقع في مجلس الامة بالاستانة العلية على ما ذكرناه في العدد السابق ويزيده وضوحا ما ورد بالصحيفة الرسمية لمدينة تريستا من ممالك النمسا المؤرخة ٢ اغشت مما صدر من رجال الدولة العلية الان من زيادة البيان بالتوضيح والافصاح عن حقائق الامور في كل من جهتي الاخلالات والاصلاحات التي تفاوض فيها المجلس المشار اليه حتى كشف الحال ان الدرجة التي بلغ اليها اولئك الرجال لم يصل الى نيلها الا أفراد من رجال الدولة المتمدنة المتمتعة بالحرية منذ قرون فان المجلس بعد ان انعقد تحت رئاسة الصدر الأعظم للمفاوضة في الاصلاحات المزمع عليها وتأخر الاشتغال بها بسبب الحرب القائمة افتتحه ذلك الصدر بالقائه على أهل المجلس حكاية صورة الحال بما يتضح به ان الحالة الراهنة كئيبة للغاية وأنه لم يكترث بما في كلامه من الامور المكدرة في حق همة البلاد وأفصح بأن البلاد على شفا خطير عظيم وذكر تحجير دولة النمسا دخول السفن العثمانية لمرسى كليك وبغض كثيرين من اهالي السلطنة العثمانية غير المسلمين للدولة ونازلة الحرب الواقعة الان وعدم اكتراث الدول الاوروباوية بعسر الدولة الحالي بل وربما فرحوا له وذكر أيضاً الاضطراب الموجود في الأحوال المالية والحاصل أنه لم يترك ذكر شيء من الأحوال التي مآلها الايقاع بالسلطنة واستنتج من ذلك كله انه تأكد لزوم تبديل كيفية تصرف الدولة الموجود الآن تبديلاً كلياً دفعا للأهوال المفجعة وإن هذا التبديل يلزم اجراؤه من غير ادنى تعطيل واجراؤه اليوم أحسن من اجرائه غداً ان كان ذلك ممكنا اذ يجب علينا ان ننتقل لحالة جديدة ولا بد هكذا قال حضرة الصدرالأعظم وأظهر نفسه في هاته النازلة بهيئة جديدة مستغرب وجودها في تلك البلاد بأن ترك سيرة الوزراء المتقدمين عليه من المماطلة والاهمال وأظهر أن في عزمه انقاذ بلاده من حالها ولو بعظيم تكلف ولذلك استحلف أهل المجلس بمحبتهم للوطن ان يعينوه على هاته المصلحة التي من شأنها احياء بلادهم ولو كانت صعبة جدا ثم كلف جنابه سيادة مدحت باشا رئيس مجلس الشورى أن يشرح لأهل المجلس الاصول التي تضمنتها لائحة القانون التي كلفته الوزارة بتصويرها فقام مدحت باشا بالمجلس خطيباً وتكلم بفصاحة سحبانية وبغاية البيان وكشف عن الأسرار المفسدة لكيفية الادارة الحالية وعن جميع ما هنالك من



دار الجلولي بصفاقس وهي اليوم متحف الفنون والتقاليد الشعبية.

الأخطار في ايداع التصرف المطلق الاستبدادي بيد الامير إذ ذلك هو اساس جميع تلك الامور الجورية التي أوصلت البلاد لهاته المهلكة وتشدد في بيان لزوم تمكين الاهالي من حريتهم حتى تكون لهم يد في ادارة مصالح بلادهم وفيما قال ان السلطنة العثمانية أمكنها ان تغر بنفسها وان تغر غيرها مدة من الزمان ولكن تحت هذا الاطمئنان الظاهري تراكمت غلطاتها حتى أسرعت في انحطاطها وهيأت لنفسها طريق الذل والخراب ورأى المذكور أن لا ملجأ للبلاد الا التراتيب القانونية إن وقع اجراؤها بحكمة ووقعت لدى الجميع موقع الاستحسان بصدق ونية سالمة وبذلك تتمكن البلاد من النشاط اللازم لتنجي نفسها من الأخطار الحالية. والظاهر أن لفظ التراتيب القانونية الذي صرح به جناب رئيس مجلس الشورى ثقل سماعه لدى البعض من أهل المجلس حتى أنه قبل أن ينتهي جناب مدحت باشا من كلامه سأل أحد الحاضرين هل ان المصلحة التي حملت الدول الاجنبية على اعانة الدولة العثمانية في حرب القريم زالت الآن ولماذا الدول أظهرت عدم الاكتراث الآن بالمشاق الحالة بالسلطنة في هذا الحال فانتهز الصدر الاعظم الجواب على هذا السؤال بنفسه وكان جوابه بوجه قاطع لا يمكن رده ويلزم ذكره هنا فقال جنابه ان في مدة القريم كنا وعدنا باننا نحسن أحوالنا وننتظم على شكل دولة اوروباوية حسنة الانتظام (يعني بسلوكها على نهج العدل والتمدن والسيرة المرضية الجارية على ما يخالف الديانة) فكان ذلك هو الغرض الذي قصدته الدول الأجنبية ولأجله هرقت دم ألوف من أولادها وصرفت آلاف الملايين في المدافعة عنا ولكن ماذا فعلنا نحن في مدة العشرين سنة المذكورة في مقابلة احسان تلك الدول معنا لنحصل على الرتبة التي هيؤوها لنا بينهم (أي لتبقى الدولة محترمة وتتداخل في السياسات العامة كسائر الدول العظام في نفوذ الكلمة)منهاإنّا سنعرفكم بسيرتنا في تلك السنين فاننا بذلنا غاية جهدنا في البقاء على ما كنا عليه من الخلل في السيرة وعدم الانتظام وزيادة على ذلك فاننا حملنا تلك الدول على ان تقرضنا مائتي مليون ليرة (أي خمسة آلاف مليون فرنك) صرفناها فيما لا يعني والان

أجبناهم بأن ليس في حالنا أن ترجع لهم الا الفائدة ولا رأس المال فهذا هو السبب الذي الزم دول اوروبا ان تتخلى عنا ولكن لعله يتيسر لنا ان نستجلب محبة تلك الدول مرة أخرى ان اتخذنا طريقة جديدة مستحسنة بغاية الصدق ومن غير اعوجاج ثم بعد ذلك نهض احد العلماء من الحاضرين وقال اني بمقتضى رأيي أرى الشريعة الاسلامية لا تنافي التراتيب القانونية وقال بعده (ضيا بك) وهو أحد الأعيان الذين أحوجهم الحال لمهاجرة بلادهم بسبب آرائهم السياسية: أنه زيادة على كون الشريعة لا تنافي ذلك فان أصولها وقواعدها تحض على التمسك بوسائل حفظ البيضة لا سيما الشورى التي هي ملاك الأمر ثم قال أحمد توفيق أفندي الذي كان سفير الدولة سابقا وتولى أيضا احدى الوزارات: أطلب ان يعد من الخائنين كل من يتعرض بالقول أو بالفعل لما ظهر الآن انه ضروري لنجاة بلادنا في الحال وفي الاستقبال واستحسن ذلك جميع الحاضرين ثم بعد ذلك قرر سيادة مدحت باشا خلاصة ما وقع بالجلسة المذكورة وأخبر بأن لائحة القانون ستطبع وتوزع منها نسخة على الحاضرين ليتأمل منها كل واحد بانفراده لتقع المباحثة والمفاوضة فيها بالجلسة الآتية.

فلعمري ان هذا الكلام الحر الصادر عن نصح صادق وحرارة فؤاد بالغيرة عن الوطن طافح من هؤلاء الرجال الذي أجهدتهم الحمية عن الدين والوطن حتى كشفوا للحاضرين دسائس الامور وتلاشت في انظارهم الزخارف الفارغة المصادمة للتصريح بحقائق ما عليه بلادهم وما يلزمها من التدارك لجدير ان يلاحظ بعين الاستبصار وينتبه له المسلمون في سائر الأقطار أما كلام ضيا بك فلله أبوه ما أصدق قوله فأي مانع من الشريعة يقتضي ان لا تحتسب الأمة على أمورها وادارة مصالحها وقد قدّمنا ان الأمر المعروف والنهي عن المنكر هو أساس اجراء الشريعة وان مباشرة الاحتساب عليه هي لأهل الحل والعقد فاذا اتفقت الامة على تعيين افراد منها متصفين بصفات الكمال من الامانة والمعارف والحزم وأقدموهم وكلاء عليهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحتساب على من يباشر اجراءه كيف يقال ان شيئاً من فروع الشريعة ينافيه فضلا عن اصولها بل الحق ان يقال ان الشريعة آمرة به طافحة كتبها بالعمل على مقتضاه اذ لا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانه واجب كفائي على كل من له قدرة عليه فاذا بقي الامر على ما هو عليه الان نجد كل فرد يقول اني لم تتوفر في شروطه فبقي الواجب مهملا ولا شك ان قصد الشارع من التشريع هو العمل بمقتضاه لا مجرد العلم بالحكم فتعين اذا ذلك الوجه الوحيد الذي به يمكن العمل وتنفذ به، كلمة الامر بالمعروف حتى يصير الواجب في حقه عينيا لانحصار الشروط فيه وبذلك نؤمل من فضل الله تعالى الحصول على صلاح مركز الخلافة الاسلامية وسلامتها من الأخطار الناشئة عن سوء التصرف السابق وان نستمر على العز والسعادة الدائمة وما حصل هذا الا بالرجال فعلى عموم الأمة ان تلاحظ هذا الأصل بعين الاعتبار وتحافظ على التمسك برجالها في سائر الأعصار والأمصار».

■

المراجع

(١) أحمد عبد السلام، المؤرخون التونسيون في القرن ١٧ والقرن ١٨ والقرن ١٩ المنشور بالفرنسية عام ١٩٧٣، تونس.
Ahmed Abdesselem: Les Historiens Tunisiens des XVII^e, XVIII^e, et XIX^e Siecles, essau d'Histoire culturelle, Tunis, 1973.

(٢) نفس المصدر، ص ٩٩ـ ١٠٠ وص ١٠٨ ـ ١٠٩ وص ١٢٠ وص ١٢٤.

(٣) قد وضحنا معنى هذه العبارة في مؤلفات رجال الاصلاح من التونسيين وفي كتب من سبقهم من المؤلفين وخاصة ابن خلدون في كتابنا «دراسات في مصطلح السياسة عند العرب» المنشور في تونس عام ١٩٧٨ ص ١٢٧ وما بعده.

(٤) انظر كتابنا «المؤرخون التوتسيون» من ص ١٢٠ الى ص ١٢٥ وكتاب «خير الدين والبلاد التونسية» للمؤرخ الهلندي G.S. Van Krieken.
Khayr-Al-Din et la Tunisie (1850-1881), Leiden, 1976.





جودي مولين
تعريب: عبد الأحد حناوي

يفخر لبنان بكثير من النماذج الرائعة لفنّ العمارة الإسلامية. لكنّ هذه النماذج الكثيرة التي تمثّل مختلف العهود التي تعاقبت على لبنان لم يتأتَّ لها إلّا القليل من الاهتمام حتى عهد قريب نسبياً. لذا، فإنّ الهدف من هذا المعرض أن يُظْهِرَ تنُّوع هذه المعالم الأثرية، وما فيها من جمال، وما لها من أهمية، وذلك من خلال الصور الفوتغرافية التي تمثّل المعالم.

يرقي تاريخ أقدم المعالم الأثرية الإسلامية في لبنان (٨٦ ــ ٩٦ هـ/٧٠٥ ــ ٧١٥ م) إلى العهد الأموي، وذلك في بلدة عنجر؛ لكنّ أعمال التنقيبات الأثرية لم تجر فيها إلّا منذ ثلاثة عقود. وتُبرز هذه المعالم الأثرية المظاهر المميِّزة للأبنية الإسلامية، ومنها: كُوَى إطلاق القذائف في أبراج البوابة، والمساجد، والتصميم المُعَدَّل للحمّام. والمدينة مبنيّة على طراز المخطّط العام للبلدة الرومانية والبيزنطية، كما أنّ الجدران التي تتعاقب فيها الحجارة والآجر، وكذلك الأشكال التزيينية، إنما هي استمرار للطراز البيزنطي. ونذكر هنا أن استخدام الآجر والحجارة في البناء سويةً كان الوسيلة المعمارية المستخدمة لتدعيم الجدران في المناطق المعرّضة للزلازل. وقد استمر الأمويون (٤٠ ــ ١٣٢ هـ/٦٦١ ــ ٧٥٠ م) في استخدام هذه الوسيلة المعمارية لأغراض تزيينية، وذلك برصف الحجارة الحمراء أو السوداء بالتعاقب مع الحجر الرملي المعروف. فإذا أخذنا هذا المثل بعين الاعتبار تبيّنت لنا الكيفية التي يتمّ من خلالها إدخال

عن كرّاس وُزّعَ في معرض «فن العمارة الاسلامية في لبنان» قامت به المؤسسة الاسلامية للتعليم العالي في مدينة صيدا من ٢٦ ــ ٣/ حتى ٢ ــ ٤ ــ ١٩٨٢

التغييرات في طراز العمارة. ونجد كذلك أنّ الانتقال من طراز إلى آخر ليس محدّد المعالم.

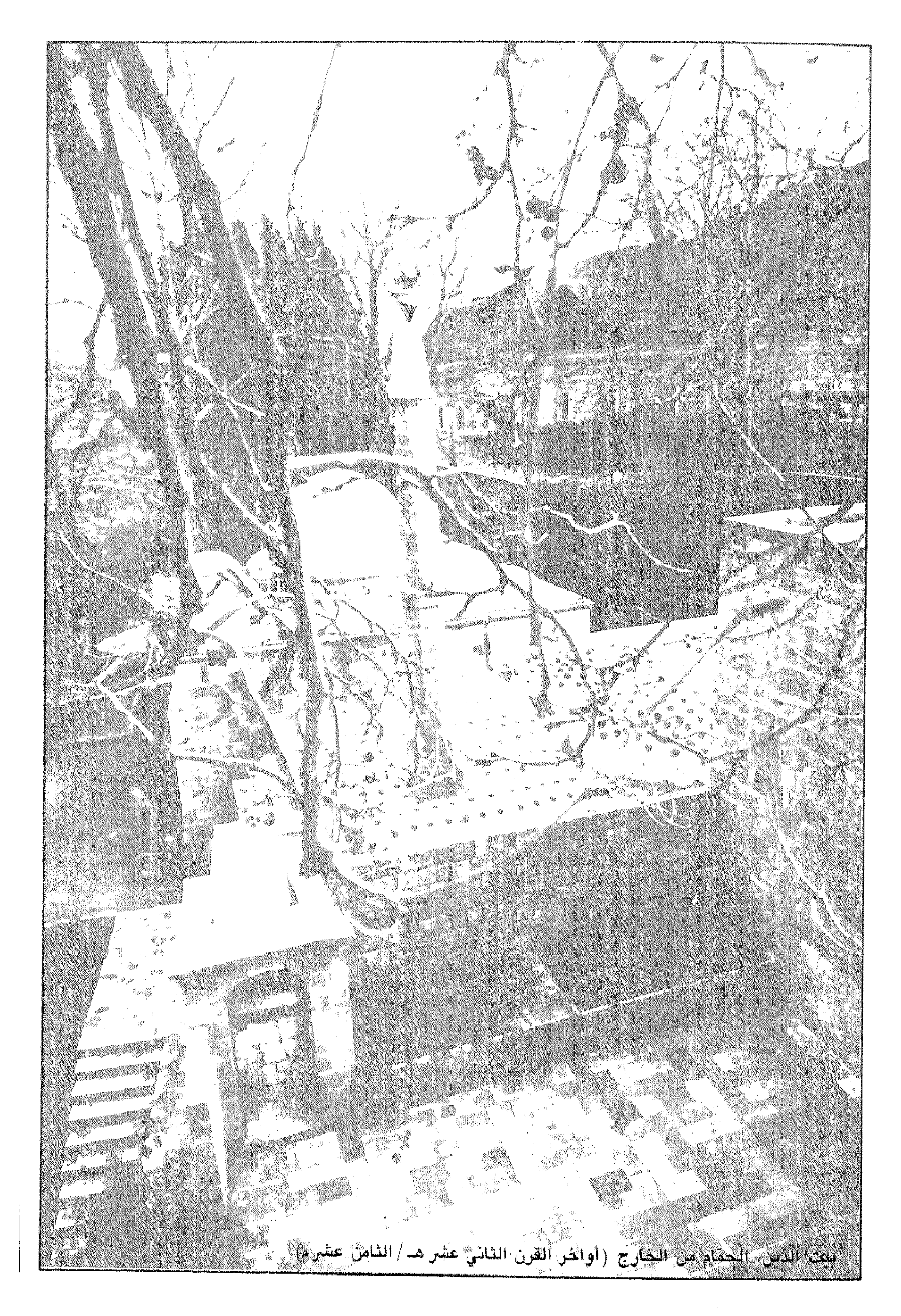
وكما لاحظنا آنفاً، يظهر الاضطراب في طراز البناء، عندما يجتاز مرحلةً انتقالية. وفي الوقت الذي تشبه فيه الكثير من العناصر ما كان في المرحلة السابقة، نجد بعض التعديلات الطفيفة في بعض العناصرالأخرى. ويبرز مزيد من التعقيد في مسألة تأريخ البناء الأثري عندما يظلّ قيد الاستعمال خلال العصور المتلاحقة. وفي حالة من هذا القبيل يغدو التأريخ اعتباطياً. وعلى سبيل المثال، ربما عاد تاريخ تشييد الجامع العمري الكبير في بيروت إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣ هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م)، ولكن لم يبق من البناء الأصلي إلّا القليل أو لا شيء على الاطلاق؛ لأنّ التعديلات فيه والإصلاحات استمرّت بشكل منتظم خلال فترة طويلة.

والأمر نفسه ينطبق على بعلبك؛ ففي هذه المدينة عَدَّلَ العرب الأوائل فيما وجدوه، وأصلحوا المرافق التي احتاجوا إليها؛ لقد حوّلوا المنطقة التي كان فيها المعبد إلى قلعة، وذلك مباشرةً بعد احتلال المدينة (سنة ١٦ هـ/٦٣٧م)، وشيّدوا الأسوار الدفاعية المنيعة حول الأمكنة التي كانت تحتاج مثل تلك الأسوار. وفضلاً عن ذلك، لقد هدموا الدرج الواسع المفضي بسهولة إلى داخل تلك المنطقة، واستعاضوا عنه بباب صغير في الجهة الغربية، وأقاموا إلى جانبيه أبراجاً منخفضة. وفيما بعد استُبْدِلَ هذا المدخل بمدخل بُرْجيّ أكثر تعقيداً. والمسجد الكبير في بعلبك أصابه التعديل بدوره خلال السنوات اللاحقة. وقد أضاف المماليك (٦٥٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٦٠م) برجاً فيما بعد، وبنوا أو أصلحوا المسجد الموجود داخل القلعة، فضلاً عن إجراء تصليحات أخرى. وبما أنّ المماليك عندما دخلوا بعلبك وجدوها في حالة سليمة، فإنهم استخدموا ما وجدوه فيها. لذا، فإنّ بعلبك لا تعطينا صورة كاملة عن الطراز المملوكي.

وكان الأمر في مدينة طرابلس بخلاف ذلك، فقد بُنيت بعيداً عن المدينة القديمة «الميناء»، باتجاه الداخل؛ مما اضطر المماليك إلى تشييد أبنية كثيرة. وقد بُحِثَت المعالم الأثرية في مدينة طرابلس بشكل منظَّم؛ مما يجعل منها نموذجاً مثالياً لدراسة المدينة المملوكية.

وفي فنّ العمارة الإسلامية تحتّل المساجد مكان الصدارة، في أرجاء العالم المختلفة. وفي لبنان أيضاً، نجد المساجد من أكثر المعالم بروزاً للعيان، ومن أوفرها من حيث العدد. ولا تأتي المساجد في رأس قائمة المعالم الأثرية من حيث عددها فقط، بل من حيث سعة انتشارها أيضاً، من شمال البلاد إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها؛ ففي عنجر وبعلبك نجد آثار المباني القديمة، وفي كل من بيروت وطرابلس وبعلبك نماذج من مُنْشآت العصر الوسيط، ومن الفترة العثمانية (٩٢٣ ـ ١٣٣٧ هـ/١٥١٧ ـ ١٩١٨م) نجد عدداً كبيراً من المساجد، على سبيل المثال، في عكار وطرابلس وبيروت ودير القمر وصيدا. كما نجد عدداً من المدارس والأضرحة ومنشآت دينية أخرى.

وبالإضافة إلى المنشآت الدينية يحتوي لبنان نماذج رائعة من المنشآت المدنية من مختلف العصور؛ فقد حُوِّلت منطقة المعبد في بعلبك إلى قلعة سنة ١٦ هـ (٦٣٧م)، وفي وقت لاحق جُعِلَتْ حُصُون كلٍّ من طرابلس وحصن عكار وجبيل وصيدا وصربا ودير القلعة قلاعاً عربية، ويقع المرء في هذه الأمكنة على ما يشير إلى حدوث تعديلات وإعادة بناء. وقد شُيِّدَت أبراج المراقبة على طول الساحل، ونجد

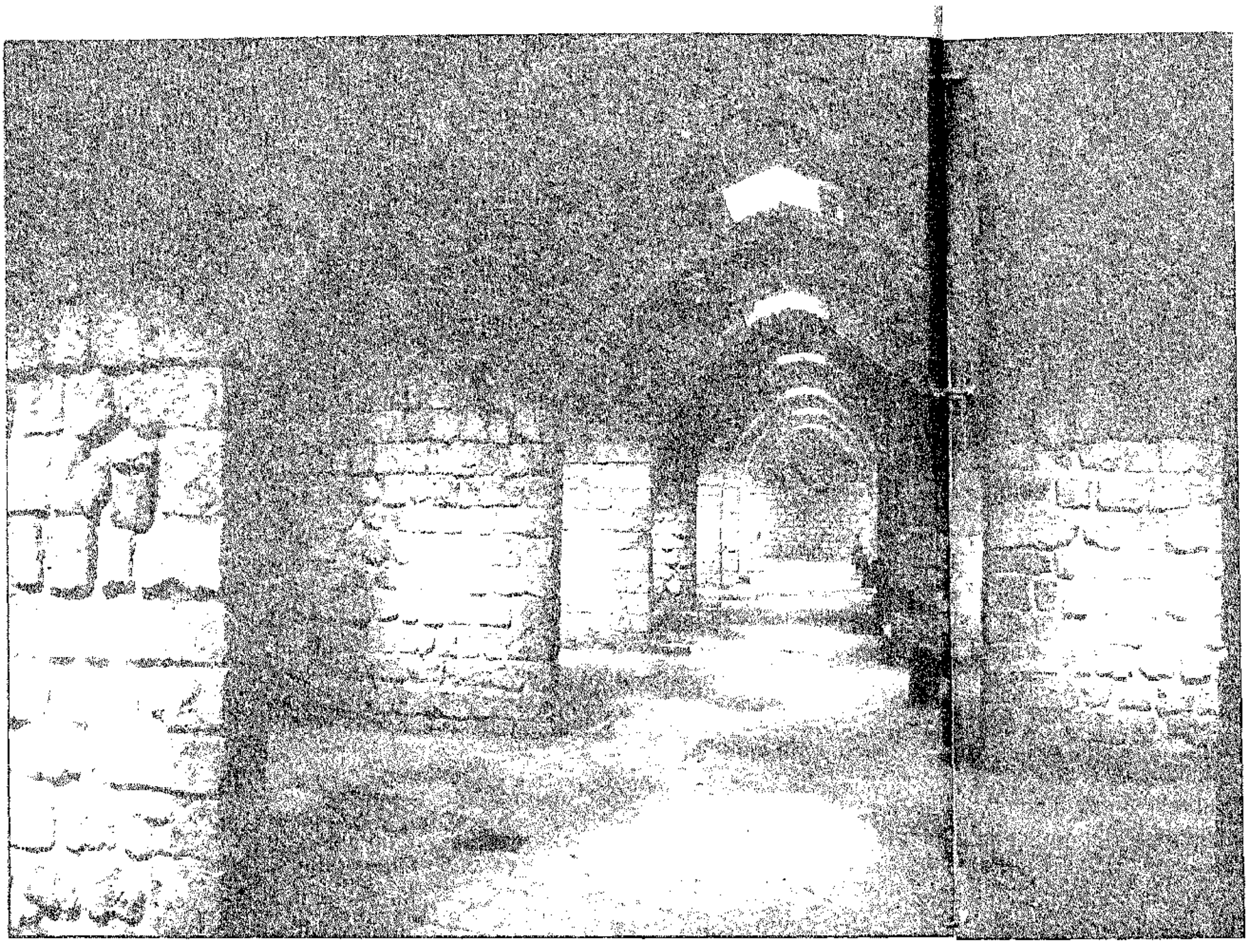


بيت الدين. الحمام من الخارج (أواخر القرن الثاني عشر هـ / الثامن عشر م)

أمثلتها حالياً في كل من طرابلس (الميناء) والمعاملتين فيدار. وقد بُنِيَت محطات للقوافل بين المدن، لتيسير أمور التجّار. ومن هذه المحطات «خان عبدة» شمال طرابلس؛ كما بُنِيَت الخانات في المدن، كتلك التي نجدها في كل من صيدا وطرابلس. وقد بُنيت أيضاً الحمّامات؛ فإلى جانب ما نجده من بقاياها في عنجر، هنالك نماذج منها في صيدا وطرابلس. والمماليك هم الذين بنوا جسر نهر الكلب، وقد عَدَّلوا نمط القناطر المنتظمة نصف الدائرية التي استخدمها الرومان في بناء الجسور، بحيث غدت القنطرة الوسطى أكبر حجماً بكثير.

وربما كان الاستمرار في تشييد القصور من الأمور التي يتفرّد بها لبنان. وفي الوقت الذي يشبه فيه قصر عنجر القصور الأولى المشيّدة في كلٍّ من قصر الحير والرقّة، تحافظ قصور كلٍّ من الأميرَيْن فخر الدين وبشير الشهابي، بالإضافة إلى قصور العائلات الكبيرة الأخرى، على نمط البناء الذي كان مُتَّبعاً في الحمراء في الأندلس، وفي قصر العظم في كلٍّ من حماة ودمشق. ويبدو أنّ تشييد القصور الكبيرة في لبنان ظلّ مستمراً فيما تلا من عهود، وعلى نطاق أوسع مما يجري في الأماكن الأخرى.

وباختصار، يمكننا القول إنّ فنّ العمارة الإسلامية في لبنان له تقاليده العريقة، ويقدّم لنا النماذج المعمارية منذ العصور الأولى، مروراً بالمساجد الحديثة التي نراها اليوم. ومع ذلك، فهناك العديد من المشكلات التي تستوجب الدراسة، فيما يتعلّق بفنّ العمارة الإسلامية في لبنان. وبالتالي، فإنّ الباحث اللبناني يستطيع أن يبدأ أبحاثه انطلاقاً من قريته؛ والمواطن اللبناني المهتمّ بهذه الناحية بإمكانه أن يتبادل الآراء والأفكار مع الباحث المختصّ فيما توصّل إليه هذا الأخير من نتائج ونظريّات؛ والسائح، لبنانياً كان أم أجنبياً، يستطيع الاستمتاع بتلك الأقسام من المدن والقرى اللبنانية التي تعود إلى العهود القديمة والوسيطة، فضلاً عن تلك الأقسام التي بُنيت في العصر الحديث؛ إذ إنّ الأسواق والخانات في المدن القديمة، والجسور الحجريّة القديمة المشيّدة فوق الأنهر، وأسوار القلاع وأبراجها، وما في القصور من فخامة، وما في المساجد والمدارس والأماكن المقدسة الأخرى من روعة، تشكّل مجموعة لبنان الفريدة من المعالم الأثرية الإسلامية.



طرابلس، بهو قلعة سان جيل (استعملت من قبل المماليك).

عهد الخلفاء الراشدين (١١ ــ ٤٠ هـ/ ٦٣٢ ــ ٦٦١م)

تُشير المصادر العربية إلى أنّ المساجد شُيِّدت في الأماكن التي استولى عليها المسلمون، كما أنّهم أوجدوا قلعة في بعلبك مستخدمين الأكروبول القديم [الأكروبول هو الجزء المُحَصَّن من المدينة]. وبما أنّ هذه المصادر تخصّ بالذكر كلاً من بيروت وبعلبك، لذا يمكننا أن نفترض أنّ المسجدين والقلعة تعود كلها إلى عهد الخلفاء الراشدين. ومن المحتمل أن يكون الخليفة عمر بن الخطّاب (١٣ ــ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ــ ٦٤٤م) هو الذي بنى الجامع العمري الكبير في بيروت. وفي الحقيقة، هناك من يرجّح أنّ السرداب تحت هذا الجامع يعود إلى القرن الأول الهجري (السابع الميلادي). وكما ذكرنا سابقاً، لقد حوّل أبو عبيدة بن الجرّاح ــ الذي تولّى قيادة الجيش بأمر من الخليفة عمر ــ المنطقة التي كان المعبد مُشَيّداً عليها في بعلبك إلى قلعة،

وذلك منذ سنة ١٦هـ (٦٣٧م). وربما كان أبو عبيدة نفسه هو الذي بنى المسجد الكبير في بعلبك.

العهد الأموي (٤٠ ــ ١٣٢هـ/ ٦٦١ ــ ٧٥٠م)

لقد انبثق فنّ العمارة الإسلامية للمرة الأولى أيام الأمويين؛ فقد بنى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ــ ٧١٥م) مدينة عنجر. وعندما تتمّ أعمال التنقيبات الأثرية في عنجر، ستُقدّم هذه المدينة المحصّنة نموذجاً لإجراء الأبحاث الشاملة. وفضلاً عن ذلك يُقدّم المسجد الكبير في بعلبك دليلاً عن الطراز الأموي، مع أنّ الوثائق التاريخية فيه تبدأ مع عهد الزنكيين. كما أنّ الضريح المشهور في بعلبك الذي ترقد فيه ابنة الحسين، من المفترض أن يكون قد بُني في الأساس حوالي سنة ٦١هـ (٦٨٠م).

القرن الثالث ــ السادس الهجري/ التاسع ــ الثاني عشر الميلادي

لم يبق من المعالم الأثرية التي ربما كانت قد بُنيت أيام العباسيين (١٣٢ ــ ٣٦٠هـ/ ٧٥٠ ــ ٩٧١م) في لبنان سوى «مقامات الأوزاعي» (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) في بيروت. وشهدت الفترة الممتدة بين القرن العاشر والثاني عشر الميلادي قلاقل واضطرابات، تعاقب فيها على أجزاء من لبنان، لفترات مختلفة، كلٌّ من الفاطميين، وبني عمّار، والبيزنطيين، والسلاجقة، والصليبيين. وقد عُثر في التلّ الذي شُيِّدَتْ فوقه قلعةُ طرابلس على خمس عشرة قطعة من شواهد قبور تعود إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وكان الفاطميون وبنو عمّار قد جعلوا هذه المنطقة مقبرة تخصّ الطائفة الشيعية. ولكن لم يُعْثَر فيها على بقايا معمارية.

عهد البوريين (٥٢٢ ــ ٥٣١هـ/ ١١٢٨ ــ ١١٣٦م)

رغم أنّ بعلبك كانت قد أُهْمِلَتْ لعدة قرون، إلاّ أنّها استعادت ما كان لها من مكانة، وذلك خلال القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). ولما كانت بعلبك من الثغور الأمامية لحماية جنوب سورية، فقد بُذِلَت الجهود لإقامة المنشآت العسكرية في المقام الأول، وليس المباني المدنية والدينية. فالقسم الجنوبي الغربي من قلعة بعلبك لم يُحَصَّن سابقاً بما فيه الكفاية، ويبدو أنّ المدخل القديم الذي بناه العرب في الجهة الغربية من القسم المُسَوَّر قد تمّ نقله إلى الجهة الجنوبية أيام البوريين أو الزنكيين. وقد أُقيمت الأبراج في هذا العصر أيضاً، كما دُعِّمت الأسوار التي تربط بين الأبراج.

عهد الزنكيين (٥٣١ ــ ٥٧٠هـ/ ١١٣٦ ــ ١١٧٤م)

بنى نور الدين محمود زنكي (٥٤١ ــ ٥٦٩هـ/ ١١٤٦ ــ ١١٧٣م) مدرسة للشافعية في بعلبك، وذلك بعد سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م)، كما أجرى ترميمات كثيرة في المنشآت القديمة في المدينة. لقد رمّم الجامع الكبير سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧ ــ ١١٥٨م)، ورمّم «باب دمشق» سنة ٥٦١هـ (١١٦٥ ــ ١١٦٦م)، ورمّم القلعة سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩ ــ ١١٧٠م). وقد أورد الإدريسي أنّ والد صلاح الدين، نجم الدين (٥٣٣ ــ ٥٤١هـ/ ١١٣٩ ــ ١١٤٦م) أنشأ «خانقاه» في بعلبك.

عهد الأيوبيين (٥٧٠ ــ ٦٥٨هـ/ ١١٧٤ ــ ١٢٦٠م)

ظلّت بعلبك وهي تحت حكم السلاطين الأيوبيين مركزاً دفاعياً هامًّا، فبنى فيها السلطان بهرام شاه بن فُرُّخشاه بن نور الدين

جسر نهر الكلب (قبل ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م).

(٥٧٨ ـ ٦٢٨هـ/ ١١٨٢ ـ ١٢٣٠ م) البرج الكائن في الجهة الجنوبية الغربية من مسجد القلعة، وذلك سنة ٦١١ هـ (١٢١٣ م)، كما بنى البرج الكائن في الجهة الشمالية الغربية، وذلك سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٤ م). أما قبّة الملك الأمجد بهرام شاه المُشَيَّدة على سفح التل الذي يعلو المدينة، فقد بُنيت سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م). وبنيت قبةُ الدُرس سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م)، وذلك فوق ضريح الحسن الزرزاري، وتشاهد اليوم منفردةً عند مدخَل البلدة الحديثة. وبُنيت «تربة الشيخ» سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م)، تجاه البوابة الشمالية القديمة.

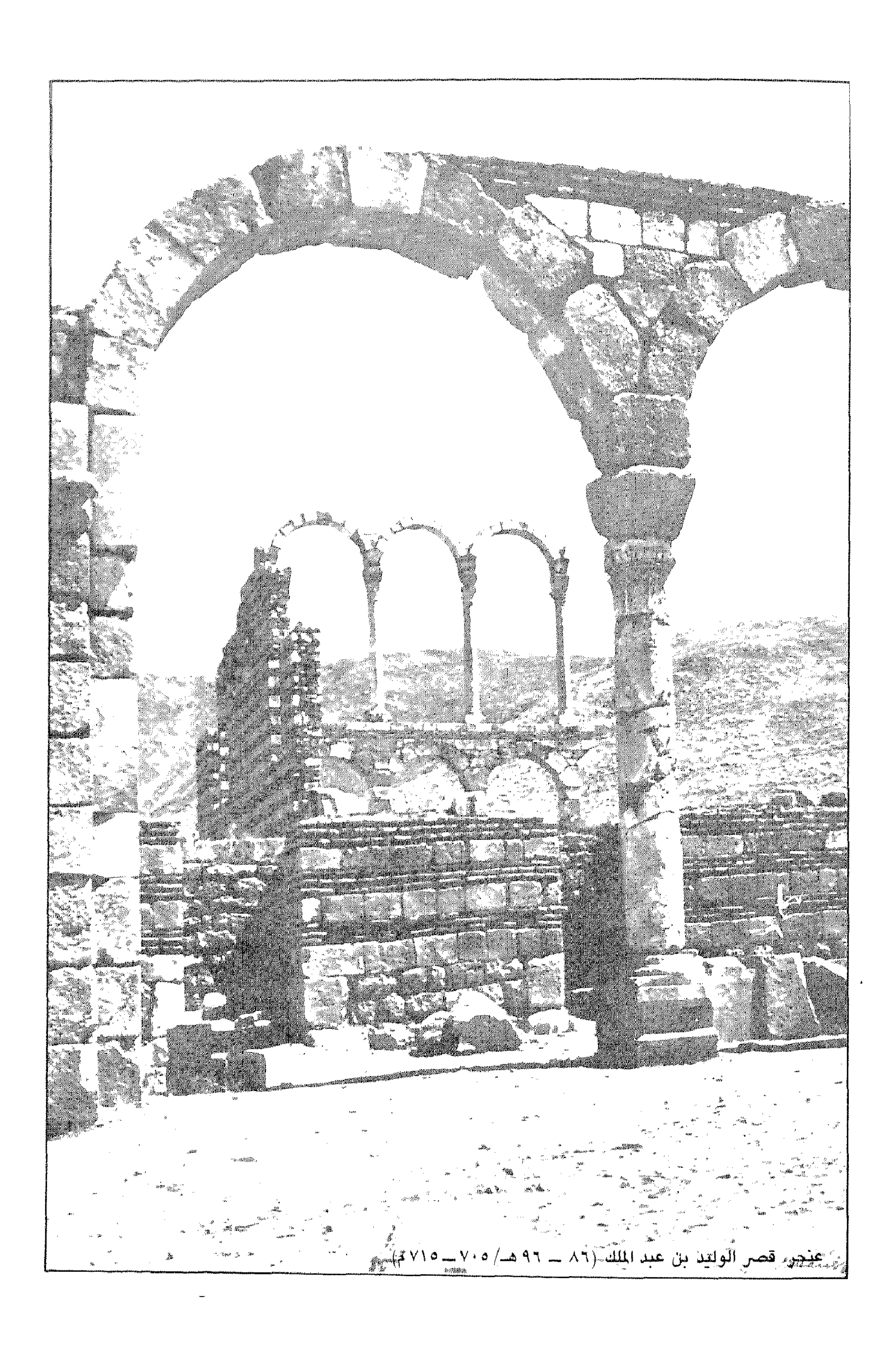
وإلى جانب الطريق الواصل بين بعلبك ودمشق تُشاهد «مئذنة مجدل عنجر»، ويعود تاريخها إلى هذه الفترة. وتدلّ النقوش المكتوبة داخل المسجد الكبير في بعلبك أنّ السلطان الصالح إسماعيل أنشأ مدرسة للشافعية وبنى مئذنة المسجد الكبير سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ ـ ١٢٤١ م).

عهد المماليك (٦٥٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٥١٧ م)

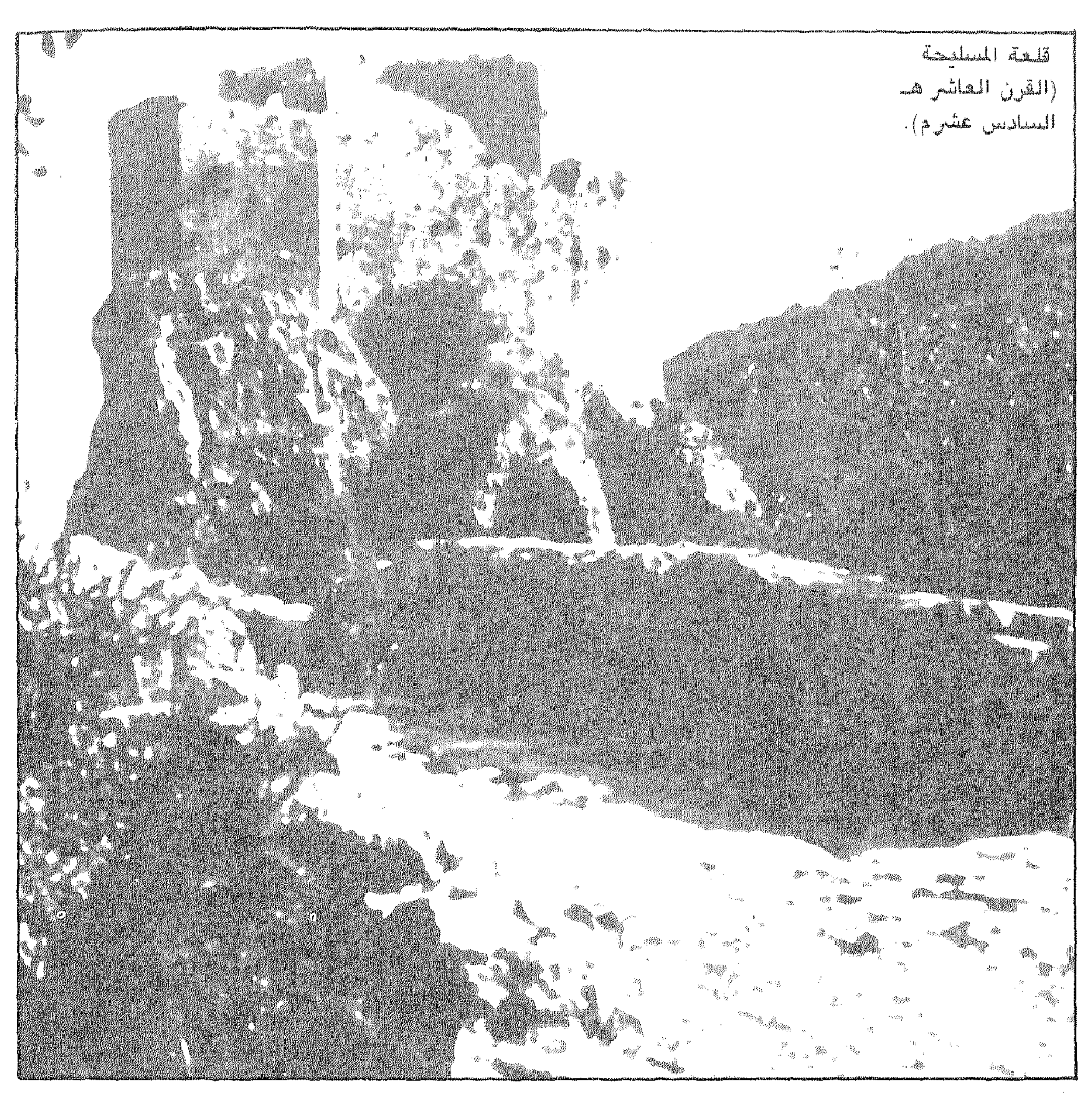
حافظت بعلبك على أهميتها خلال الفترة الأولى من حكم المماليك. ويشير نقش رأس العين في بعلبك، المؤرّخ سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ ـ ١٢٧٨ م)، إلى أنّ باني المسجد في ذلك الموقع هو الدوادار بلبان الرومي. وفضلاً عن ذلك فإنّ آخر التحصينات الهامة التي أُدخلت على القلعة، إنما شُيِّدت في هذه الفترة؛ فقد بنى السلطان قلاوون (٦٨١ ـ ٦٨٩ هـ/ ١٢٨٢ ـ ١٢٩٠) البرجَ المُحَصَّن في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة، وجَدَّدَ سنة ٦٨٢ هـ (١٢٨٣ م) بناءَ المسجد الكبير، كما يُسْتَدَلُّ من النقش هناك.

وعندما طُرِدَ الصليبيون من بيروت سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) حُوِّلَت الكنيسة الصليبية فيها إلى (الجامع العمري الكبير). وقد أُضيف إلى هذا الجامع مئذنة فيما بعد، وذلك في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أو لاحقاً. كما أنّ سلطان المماليك حوّل كنيسة صيدا إلى «الجامع الكبير».

وفي أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) احتلّ المماليك مدينة طرابلس، ولا تزال المدينة التي بناها المماليك فيها قائمة حتى اليوم. وشيّد المماليك المسجد الكبير في المدينة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) مستخدمين البناء القديم. وفي هذه الفترة أيضاً بُني «حمّام عزّ الدين» (٦٩٣ ـ ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٢٩٨)، وإلى جانبه ضريح صاحب الحمّام. وهنا أيضاً استُخْدِمَت الحجارة المأخوذة من الأبنية السابقة، ومنها العتبة العليا التي احتفظت بما كان عليها من إيقونات مسيحية. وتعتبر «المدرسة الزُّرَيْقِيَّة» (٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م) من أقدم المعالم الأثرية المملوكية صِرْفاً، ولكن ما بقي منها نجده الآن في البناء المجاور «حمّام الحاجب» (٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م). وقد أعاد الأمير كُرجي سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ ـ ١٣٠٨) بناء حصن سنجيل الصليبي، محوّلاً إياه إلى قلعة. ثم بُني الجامع ـ المدرسة المسمّى جامع البرطسي، وذلك في وقتٍ ما قبل سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م). ويكمن جمال هذا المسجد في بساطة تصميمه. وفي سنة ٧٤٦ هـ (١٣٣٦ م) بني مسجد تينال، وقد أُقيم على أنقاضِ كنيسة سابقة. ويُبْرِزُ المدخل الجميل لهذا المسجد، بتعاقب قطع الحجارة السوداء والبيضاء فيه، التقنيةَ التي أصبحت علامة مميّزة لفنّ البناء المملوكي. وبما أنّ المدينة المملوكية كانت آخذة في الاتساع لم تعد الخانات التي فيها (خان العسكر، وخان المنزل، وخان المصريين) كافية؛ لذا، فقد شُيِّدَ فيها «خان الخياطين»، وذلك في وقتٍ ما قبل سنة ٧٤١ هـ (١٣٤١ م).



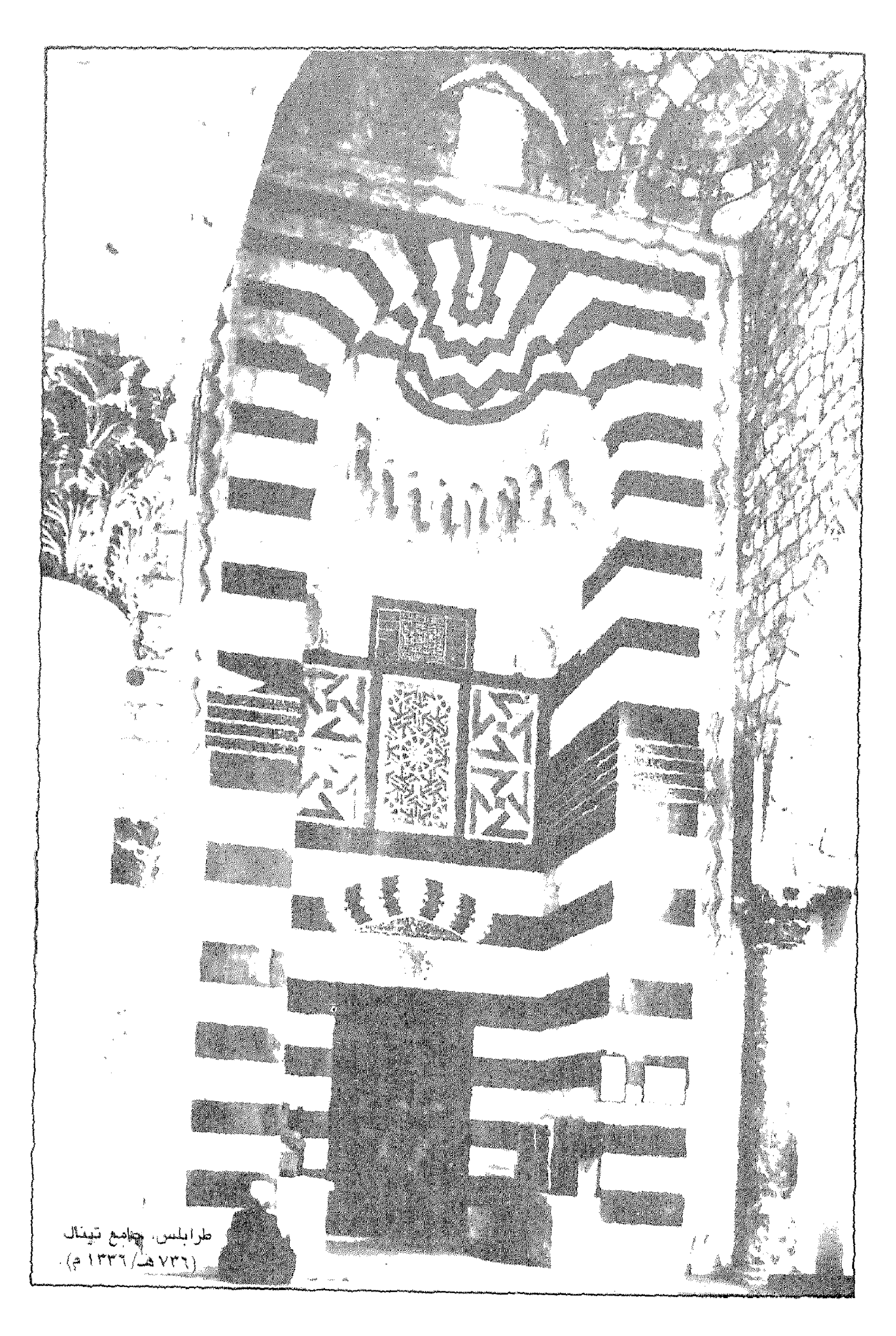
عنجر، قصر الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥ م)



قلعة المسيلحة (القرن العاشر هـ السادس عشر م).

ولم يكن وجود المماليك ليقتصر على كلّ من بعلبك وطرابلس فقط، فقد امتدّ أثرهم ليشمل البلاد طولاً وعرضاً؛ لقد استعادوا قلعة الشقيف العربية وذلك سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٨ م)، واستولوا على كلّ من قلعة المعزّة وقلعة البحر في صيدا، وأدخلوا عليهما التعديلات. كما أنّهم بنوا أو أعادوا بناء أبراج المراقبة المربعة الشكل على طول الساحل، كما أقاموا الجسور على الأنهر التي تصبّ في البحر الأبيض المتوسط، ومنها الجسر الرائع على نهر الكلب (قبل ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤ م). وبعد ذلك بوقت قصير رُمّم مسجد القلعة في بعلبك، كما يُسْتَدَلّ من النقش هناك. وفي الحقيقة يعتبر هذا النقش الوثيقة الوحيدة المكتوبة عن هذا المسجد.

وفي الوقت الذي عزّزت فيه طرابلس أهميّة مكانتها استدعى اتساع المدينة إضافة أبنية جديدة. وهكذا، فقد بُنيت المدارس قرب المسجد الكبير، كما بُنِيَ حمّام النوري. أمّا جامع العطار بمدخله المُنَمَّق فقد انتهى بناؤه سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م). ثم بُنيت عدة مدارس أخرى، من بينها المدرسة النُّصيريَّة، وذلك حتى



طرابلس. جامع تينال
(٧٣٦هـ/١٣٣٦م).

نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، عندما شُيّد جامع أرغون شاه. ولكن عندما شرع عدد سكان المدينة يميل نحو الاستقرار في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) تقلّص عدد المنشآت الجديدة عمّا بُني في القرن السابق.

العهد العثماني (٩٢٣ ـ ١٣٣٧ هـ/ ١٥١٧ ـ ١٩١٨ م)

لقد بنى أحفاد صلاح الدين، إبّان القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، حصن المُصَيْلِحَة، شمال بلدة البترون. إنّه حصن صغير، لا تزيد مساحته عن القاعدة الصخرية التي شُيِّد فوقها. ومن ثَمّ انتشرت في منطقة الكورة منشآت أيوبية أخرى؛ ففي دِدّه مثلاً، يرقى عدد من هذه المنشآت إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي).

وفي سنة ٩٦٧هـ (١٥٥٩م) بنى محمود بن لطفي، حاكم مدينة طرابلس من قبل العثمانيين، الجامعَ المُعَلَّق. كما تعود إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) الألواح الخزفية التي تكسو جدار مسجد القطيشيّة في صيدا. وإلى القرن نفسه يرقى مسجد الأمير منصور عسّاف (٩٣٠ ـ ٩٨٨هـ/ ١٥٢٣ ـ ١٥٨٠م) في بيروت.

وقد سار الأمير فخر الدين الثاني (٩٩٣ ـ ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م) على المنوال نفسه، في تشييد المباني، فبنى عدداً من المساجد والخانات والقصور والجسور، في كلٍّ من بيروت ودير القمر وصيدا. وكان مسجد دير القمر بطرازه الجذاب قد بُني سنة ١٠٠٣هـ (١٥٩٥م). أمّا «خان الفرنساوي» في صيدا، فيرقى إلى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي).

وفيما بعد بنى أسعد باشا العظم الدمشقي (الحمّام الجديد» في مدينة طرابلس، وذلك سنة ١١٥٢هـ (١٧٤٠م)؛ وعلى مدخل الحمّام سلسلة ذات أربع عشرة حلقة من الحجر المنحوت.

وختاماً، بنى الأمير بشير الشهابي في أواخر القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) قصرَ بيت الدين، وهو آخر القصور الكبيرة التي شُيِّدَت في لبنان. ■

قسيمة اشتراك

اقطع هذه القسيمة وارسلها مرفقة بقيمة الاشتراك باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق اشتراكي: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

اشتراك لمدة: ☐ سنة (١٢ عدد)



مصطفى كمال أتاتورك بين الأسطورة والحقيقة

د. رياض العالي

كان السلطان محمد السادس يبكي وهو يخرج من جلسة المجلس السلطاني. قال لابن عمه عبد المجيد الذي مد له ذراعه ليستند إليه: انني أبكي كالنساء.

في اسطنبول، عاصمة الامبراطورية العثمانية، حزن عام. الملاهي مغلقة، السينمات، المسارح، مجالس الطرب، الكازينوهات، كلها أغلقت. وظهرت الجرائد «بترويسات» عريضة تصور المأساة الكبرى التي حلت بتركيا. وفي الجوامع يتقاطر المؤمنون وهم يهتفون: الله أكبر، الله أكبر.

على حافة الهوة:

الخامس عشر من أيار ١٩١٩، مع الفجر، احتل ازمير، مرفأ اسيا الصغرى الرئيسي، عشرون ألف جندي يوناني، بدعم من قادة الحلف، وقد أغرق نبأ الاحتلال اليوناني تركيا في الذهول الشامل.

لقد خرجت تركيا من الحرب العالمية الاولى مهزومة. وقبل الاتراك احتلال انكلترا ما بين النهرين، مرغمين. وتعودوا رؤية قوات الحلفاء في المضايق، واحتلال الفرنسيين سوريا وقسما من كليكيا، ومشهد جيوش الحلفاء على طول الشواطىء والوجود الايطالي في الجنوب الغربي من الأناضول. ولكن احتلال اليونانيين ازمير أمر

آخر. فتلك اهانة كبرى واذلال للقومية التركية.

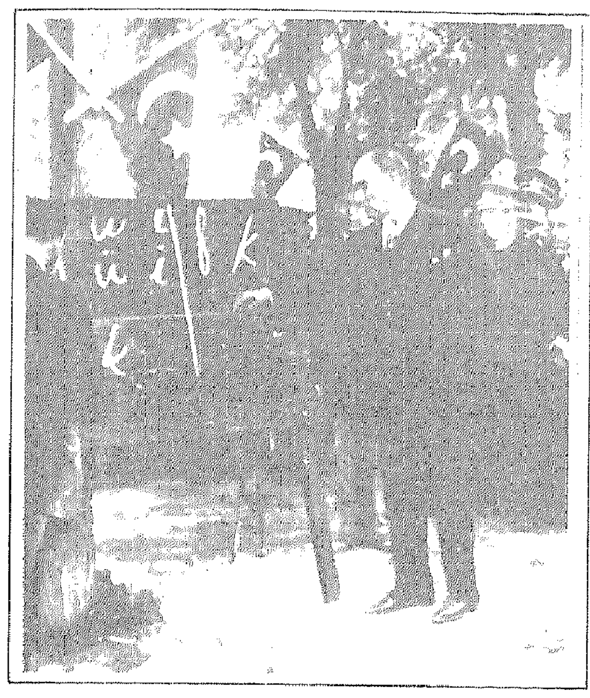
كيف الرد؟ كانت السلطات العثمانية في حال من الضعف شديدة. والسلطان محمد السادس يقر باحتجاجات الجماهير، وينصح الضباط الذين قدموا لمعرفة موقفه بالتريث، مع المطالبة بالحقوق التركية.

كان السلطان ومعاونوه يعتقدون ان من الممكن حل المسألة «حبيا» ولكن البلاد كانت تتأجج بالحماس، وبدأت العمل للمقاومة، فمنذ احتلال ازمير بدأت اجتماعات الوطنيين، واعداد المقاتلين، لتحرير ما احتله اليونانيون. وهكذا تجد تركيا نفسها، وهي خارجة من هزيمة كبرى، مدفوعة الى حرب تحرير.

ما الذي كان سيفعله الوطنيون الاتراك؟ لم يكن احد يعلم! في ربيع ١٩١٩ رحل عدد من الضباط، من اعلى المستويات، الى منطقة الأناضول. وكانت لديهم كل الامكانات المادية والعسكرية للدفاع، ولوقف تفكك الامبراطورية العثمانية، واحياء روح القتال لدى جماهير الشعب.

كانت حركة هؤلاء الضباط تزعج الحلفاء، وتجعلهم يراقبونها مراقبة دقيقة. وكانوا يتهمون مصطفى كمال بأنه وراء الحركة. وقد ترك اسطنبول في السادس من أيار ١٩١٩، في الوقت الذي انتشرت فيه اخبار احتلال اليونان ازمير، في العاصمة التركية. لقد عينه السلطان مفتشا للجيش الثالث، واعطاه صلاحيات واسعة، تمتد الى كل قطاعات الجيش، وأوكل اليه امر اعادة تنظيم الجيش. ويوم سفره طالبت بريطانيا من الوزير الاول الداماد فريد الغاء تعيين مصطفى كمال. ولكن الوزير اجاب بهدوء: «جئتم متأخرين، فقد طار العصفور».

كانت سفينة الشحن التي استقلّها مصطفى كمال وأركان حربه، في عرض بحر سمسون، أهم مرفأ على البحر الاسود. وعندما وصل الى ارض الاناضول، حاول مصطفى كمال ان يعيد الثقة الى الجيش بنفسه، وان يوحد كل حركات المقاومة تحت امرة واحدة. وان يكسب تأييد كبار الضباط، وخاصة كاظم قرى بكير، ووزير الحربية السابق حسين رؤوف بيك. واحاط نفسه بعدد من رجال الدين، وجهد في كسب ثقة



اتاتورك يعلم الجمهور الحرف الجديد وسط الساحة العامة في انقرة

الاكراد، واستطاع خلال اسابيع ان يلف حوله معظم القوات الوطنية.

شيء عن حياته:

ولد مصطفى كمال عام ١٨٨١ في سالونيك من عائلة متواضعة. وكان يحلم منذ صغره بأن يكون ضابطا. وما كاد ينهي الدراسة الثانوية حتى التحق بالمدرسة الحربية، ويقال انه كان متميزا بين زملائه. وأول نشاط عسكري قام به، كان اسهامه في الحرب الايطالية — التركية في ليبيا. وقد منح رتبة قائد كتيبة تقديرا له. ومنح عام ١٩١٢ رتبة قائد لواء نتيجة نجاحه في الحرب ضد البلقان الذين هاجموا شبه جزيرة غاليبولي. وسمي في مطالع الحرب العالمية الأولى ليوتنان — كولونيل لشجاعته في الدفاع عن مضائق الدردنيل ضد هجمات قوات الحلفاء.

وقد حظي باحترام رؤسائه، خاصة الضابط الالماني الجنرال ليمان فون ساندر.

ثم ارسل الى جبهة القوقاز لقتال الروس. وهناك منح رتبة جنرال. وخلال السنتين الاخيرتين من الحرب كان في سوريا وفلسطين، وكان يقاتل شبرا فشبرا ليحول دون الهزيمة الشاملة.



مصطفى كمال يشرف بنفسه على تعليم الاطفال الحرف الجديد، بعد ان جعل التعليم مجانيا

سأبقى في الأناضول:

حين شعر مصطفى كمال أن المخابرات البريطانية تراقبه وتلاحقه، رأى ألا يبقى في سمسون، فنقل مركز قيادته الى حافظة، داخل البلاد، ثم الى امازيا. وفي منتصف شهر حزيران بلغه أمر من السلطان يقول: «يأمرك جلالته بالعودة حالا الى اسطنبول». ولكن مصطفى كمال، كان قد اتخذ قراره، فأجاب الباب العالي: «سأبقى في الأناضول حتى تستعيد الامة كامل استقلالها».

ولم يرفض أمر السلطان فحسب، بل أراد أن يستقيل من الجيش. وبذلك يستطيع التحرك، الى حد كبير بحرية، بعيدا عن انظار السلطة.

حوالي نهاية تموز ١٩١٩، دعا الى مؤتمر في ارضروم، حضره ٥٤ مندوبا يمثلون المناطق الشرقية من تركيا. وكان المؤتمر اول نصر سياسي يحققه. فبعد ١٤ يوما من النقاش، قرر المؤتمر المقاومة ضد المحتل: «الوطن، بحدوده القومية واحد لايتجزأ، الولايات الشرقية، متعاونة، ترفض كل احتلال او تدخل اجنبي. واذا كانت حكومة السلطان غير جديرة بالقيام بواجباتها، فلتقم حكومة مؤقتة تنهض بالعبء».

عقد مؤتمر اخر في سيواس من (٤ ــ ١١ ايلول ١٩١٩) وافق بالاجماع تقريبا على مقررات مؤتمر أرضروم.

كان مصطفى كمال يعلم انه لا بد له، لينتصر على الحلفاء، من مساندة قوة خارجية. لذلك اتصل بالجمهورية السوفياتية. وطلب مساندةالمسلمين في العالم. وحاول ان يستغل خلافات الحلفاء الداخلية.

كان سلوك مصطفى كمال يخيف الباب العالي. لذلك حاول ان يظهره بمظهر قاطع الطرق الجشع الى الدم والسرقة. وقد رددت الصحف الغربية الاشاعات التي اطلقها الباب العالي.

ولكن مصطفى كمال كان يرد الصاع صاعين. فحين حاول الباب العالي النيل من مؤتمر سيواس، بواسطة القوة، أبرق مصطفى كمال إليه: «أنتم حثالة ومجرمون تتآمرون مع الاجنبي ضد الأمة، فكروا جيدا بما تفعلون، احذروا من يوم تقدّمون فيه الحساب للأمة على القذارات التي ترتكبونها».

أنقرة، قلب المقاومة:

١٩١٩، دعت السلطة الى انتخابات عامة، املت منها ان تسحب الحصير من تحت قدمي مصطفى كمال. ولكن المنتخبين كانوا متحمسين جدا ضد وضع الحلفاء يدهم على تركيا. وفي ٢٨

كانون الثاني ۱۹۲۰ صوت النواب على «الميثاق الوطني»، وأقروا مقررات أرضـروم وسيواس. ودعا برنامجهم الى الحفاظ على سلامة البلاد واستقلال الحكم والخلافة، مقابل احترام حقوق الأقليات.

ولم تخفت حماسة الوطنيين في الأسابيع التالية. مما كان يثير غضب الحلفاء. السادس عشر من اذار، قرر الانكليز توجيه ضربة كبرى، واعتقلوا عددا من النواب داخل المجلس. وكرد على ذلك، قرر النـواب حل المجلس النيـابي العثماني، وانتقل معظمهم الى انقرة. وأقـروا، بمبادرة من مصطفى كمال، قيام جمعيـة لها صلاحيات فوق العادة.

وهكذا بدأت الجمعية التركية القومية الكبرى اجتماعاتها في ۲۳ نيسان ۱۹۲۰، في قاعة تشبه الصف، بمقاعدها، ومجلس الرئيس، والمدفـأة ومصباح البتـرول المعلق في السقف. واجتمع حول مصطفى كمال أربعمائة شخصية يمثلون مختلف مناطق تركيا، وكان اكثر من ربعهم من الشخصيات الدينية. مما يشير الى ان مصطفى كمال شاء ان يعتمد اعتمادا أساسيا على رجال الدين في تنفيذ ستراتيجيته.

كان هدف الجميع طرد المحتل، وعدم تجزئة البلاد. ولكنهم كانوا مختلفين على الوسائل. غير أن معظمهم انضوى تحت لواء مصطفى كمال، اما الباقون فكانوا يؤيدون سلطته من رؤوس الشفـاه فحسب، وكانـوا يحلمون بـاستبـداله بالوزير السابق طلعت باشا، او بمساعد القائد العام السابق انور باشا. وكان هذان من جملة شخصيات قررت دخول تركيا الحرب، وقامت بفظائع ضد الأرمن، وهربت الى خارج تركيـا عند توقيع الهدنة. وكان أعوان هؤلاء يأملون ألا يطول منفاهم، وأن يعودوا عودة ظافرة.

آخرون أيدوا مصطفى كمال، على امل ان يتوصلوا الى اقامة حكم سوفياتي في الاناضول.

كـان واضحا ان ادارة الجمعيـة الوطنيـة الكبرى صعبة. ولكن مصطفى كمال توصل الى تطبيع المعارضة، والمحافظة على نوع من الوحدة في الحركة الوطنية.

لم تكن هذه الخلافات وحدها التي تهدد حكم انقرة، فمنذ ۱۹۱۹، كان القوميون يواجهـون سلسلة انتفاضات تـوجهها السلطة العثمـانية والانكليزية وقد تتابعت حتى عام ۱۹۲۱، ولكن قوات مصطفى كمال استطاعت القضاء عليها.

الـتطويق:

بالاضافة الى الصراعات الداخلية، كان العدو الخارجي ما يزال على ارض البلاد. وفي الجنوب الغربي من تركيا كان المقاتلون يقاتلون ضـد الفرنسيين في كليكيا. وفي الغرب وسع اليونانيون حدود احتلالهم، في ۲۰ حـزيران ۱۹۲۰. وفي الشمال الشرقي كان كاظم قرى بكير ينتـظر اللحظة المناسبة للانقضاض على الأراضي التي تدعيها بريطان.

وكان ثمة مشكلة رئيسية تواجه السلطة في أنقرة وهي المال. وقد اغدق الروس المال والسلاح وكل ما تحتاجه حركة مصطفى كمال.

معـاهدة فخريـة:

فيما كانت القوات الكمالية تواجـه المحتل، كان الحكم في اسطنبول يرضخ لما فرضه عليه الحلفاء ويوقع في ۱۰ اب ۱۹۲۰ معاهدة سيفر، التي تكرس تقسيم الأرض التركية. فقد جردتها من كردستان وتراقيا، ومنطقة ازمير، وسوريـا والعربية السعودية، وما بين النهرين، وحولتهـا الى دولة أناضولية صغيرة محصورة بين ارمينيا واليونان.

قامت تظاهرات تأييد للكماليين في عدد كبير من البلدان الاسـلامية. المسلمـون في الهنـد أنذروا انكلترا بأعمال عدوانية. حتى بعض دول الحلف، نظر الى المعاهدة نظرة عـدم ارتياح. ففي فرنسا اعتبر الرأي العام المعاهدة مجحفة، ومسيئة لفرنسا نفسها.

عرف مصطفى كمال فترة اضطراب حين علم بالمعاهدة. ولكنه تماسك وبدأ يضـع بيانا يوجهه الى الشعب التـركي. وراح قبـل ذلك يتصـل بمختلف المناطق طالبا التأييد سلفا لبيانه. ولكن صيف ۱۹۲۰ تميز بانكسـارات هددت سلطة الجمعية الوطنية الكبرى في انقرة بالزوال.

غير ان مهاجمة ارمينيا في مطالع الخريف، واستعادة أراض منها، رفع معنويـات الشعب والجيش المحارب في المنطقة العربية. في كانون



مصطفى كمال اتاتورك في الثياب العسكرية

الثاني ١٩٢١ احرز احد الضباط المقربين من مصطفى كمال، وهو عصمت باشا، اول انتصار على اليونانيين في معركة اينونو.

انشاء الحكم التركي الجديد:

لم تشكل معركة اينونو، على كل حال، منعطفا حاسما. فحرب استقلال تركيا استمرت قرابة سنتين، عرفت الانتصارات والانكسارات. وخلال السنتين مر مصطفى كمال بتجارب كثيرة. وقد استغل الظروف، وخاصة ظروف الحرب والمعاهدة، ليرسي قواعد تركيا الجديدة.

عمل في حذر وحذق، معتمدا طورا على المهادنة، وطورا على القوة، مستعينا بالروس، وبالظروف. ومع بداية ١٩٢١، أعلن عن الدستور الوطني التركي، متجنبا التعرض لمسألة السلطنة والخلافة، او مواجهة النظام السابق مباشرة. ولكن الدستور نص على ان كل سلطة تعود للأمة التي تنيب السلطات الى الجمعية الوطنية الكبرى.

بعد زمن يسير من التصويت على الدستور، احرزت السلطة في انقرة نصرا جديدا، اذ دعيت، بواسطة ايطاليا لمناقشة مسألة الشرق. وكانت هذه الدعوة بمثابة اعتراف الحلفاء بالسلطة في الأناضول. ولم يعد السلطان وحكمه الممثلين الوحيدين لتركيا.

ولم يتوصل مؤتمر لندن (٢٧ شباط ـ ١٢ آذار ١٩٢١) الى حلول. وافترق ممثلو الحلفاء وممثلو تركيا على خلاف. وفضلت تركيا الاستمرار بالحرب على قبول حلول عرجاء.

كانت حملات الربيع والصيف من عام ١٩٢١ قاسية، فالقوات اليونانية المتفوقة عددا وعدة، تحرز النصر تلو النصر، وحوالي منتصف الصيف كان اليونانيون يحتلون غرب الأناضول ويتقدمون الى مسافة مائة كيلومتر من انقرة. وعبر البلاد شعور بالخوف. ووجد معارضو مصطفى كمال الفرصة متاحة للتنديد به، وكان أشد اخصامه انور باشا ينتظر على حدود الأناضول، ليظهر عند الحاجة كمنقذ. وبدا كأن الحركة الكمالية محكوم عليها بالفناء.

الرابع من آب، طلب مصطفى كمال من الجمعية أن يأخذ على عاتقه القيادة، وان تعطيه



اتاتورك مع زوجته لطيفة في حديقة الفيلا الخاصة في تشانكايتا قرب انقرة

كل السلطات: «فتركيا مهددة بالموت، واني اطلب ان اكون القائد العام، وان امنح سلطات دكتاتورية». الخامس من آب ١٩٢١، سمي مصطفى كمال قائدا عاما، ومنح سلطات استثنائية لمدة ثلاثة اشهر قابلة للتجديد. بعد اسبوعين بدأت معركة نهر سقاريا، ودامت اكثر من عشرين يوما اضطرت بعدها القوات اليونانية الى الانسحاب.

عاد مصطفى كمال الى انقرة ودخلها دخول الفاتحين، ومنحته الجمعية رتبة مارشال، وسمته «الغازي» واعطته سلطات ضخمة.

بدأ يعد للضربة الكبرى، وهي هنا الصلح. احتفظ بعلاقات طيبة مع روسيا، ولكنه في الوقت ذاته كان يحاول ايجاد وسيلة لعقد صلح مشرف مع الحلفاء. في ٢٠ تشرين الاول وقع الفرنسيون والاتراك اتفاقا ينهي احتلال الفرنسيين لكيليكيا وتعدّدت الاتصالات مع الحلفاء بعد ذلك، ولكن البريطانيين لم يشعروا ان الوقت قد حان للتخلي عن معاهدة سيفر نهائيا.

«المتوسط» هو الهدف

قرر مصطفى كمال انهاء الوجود اليوناني على ارض الأناضول. ففي ٢٦ آب ١٩٢٢، وبعد استعداد طويل، وجه النداء التالي الى جنوده: «الى الامام أيها الجنوب. هدفنا المتوسط».

خلال اسبوعين سحقت القوات اليونانية. في ٩ ايلول دخلت القوات التركية ازمير. ١١ تشري الاول قرر الحلفاء توقيع معاهدة مودانيا. وسحبت القوات اليونانية كلها من منطقة تراقيا. ووافق الفرنسيون والبريطانيون على ان تحمي الادارة الاناضولية المضائق ومدينة اسطنبول مقر السلطان.

نزح اليونانيون عن ارض تركيا، ورجع الارمن الذين كانوا في أناضول الغربية الى ارمينيا. وتركت قضية الأقليات للديبلوماسية كي تجد لها حلا، خلال مباحثات لوزان في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢. وبرز عصمت باشا في المفاوضات كمفاوض صلب يرفض كل حد من السلطات التركية على ارضها. وانتهت المحادثات في ٢٤ تموز ١٩٢٣، الى معاهدة حققت اماني الاتراك كما وردت في «الميثاق القومي» الذي اعلن في كانون الثاني ١٩٢٠.

الثورة الكمالية:

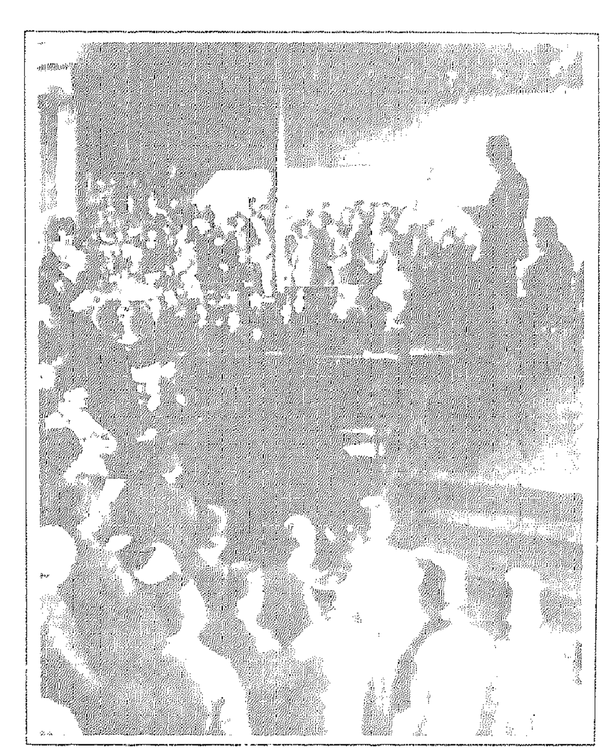
بدأت الثورة الكمالية غداة هدنة مودانيا. فبعد كسر العدو، اصبح لمصطفى كمال نفوذ كبير في اوساط الشعب جميعا. وبدأ مرحلة النيل من النظام القديم، فقد اعلنت الجمعية سقوط السلطان محمد السادس في ١ تشرين الثاني ١٩٢٢. حاول نواب المعارضة الحيلولة دون ذلك، ففشلوا، خاصة بعد ان هدد مصطفى كمال، في الجمعية، بالاطاحة ببعض الرؤوس.

في ١٣ تشرين الأول ١٩٢٣ اعلنت الجمعية انقرة عاصمة البلاد. ثم اعلن مصطفى كمال تركيا جمهورية. في ٣ آذار ١٩٢٤ وجه النواب رصاصة الرحمة الى النظام القديم بالغاء الخلافة.

واعلن الحكم الجديد رغبته في تحديث تركيا وانفتاحها على الغرب. واعتبر المؤسسات الدينية


كاريكاتور يصور انتصار قوات اتاتورك في سقاريا ١٩٢٢





مصطفى كمال يطلب من الجمعية الوطنية الكبرى سلطات استثنائية، وتعيينه قائدا عاما بصلاحيات مطلقة

عائقا، فاعلن العلمانية، والغى وزارة الأوقاف، والوقف، ووحد التعليم والغى المدارس الدينية.

بعد شهر الغى المحاكم الدينية، وقضى على كل مؤسسة دينية، ومنع لباس الرأس التقليدي فالغى الطربوش والعمامة: «لأن تركيا الحديثة لا تستطيع ان تكون تركيا الدراويش والشيوخ والأديرة والشيع».

قامت في البلاد ضجة. وفي مطالع ١٩٢٥ قامت ثورة الاكراد مطالبة بقانون الشريعة الاسلامية، واعادة السلطان الخليفة.

وضرب مصطفى كمال هذه الثورة بعنف ودون رحمة، وشكل «محاكم الاستقلال» لمحاكمة المتمردين فأشاعت في البلاد الرعب. واصدر قانونا بمنع اي تيار سياسي غير تيار السلطة. وهكذا تحول حكم مصطفى كمال الى ديكتاتورية مكشوفة، وعلقت المشانق في كل مكان، وقتل المئات، حتى اخرس كل معارضة تقريبا.

عندئذ بدأ باصلاحات اعتقد فيها خلاص تركيا. فتبنى قانون سويسرا المدني، ورفع كل القيود التي تثقل كاهل المرأة، ومنع تعدد الزوجات. واصدر عدة قرارات حول التعليم وفي ١٩٢٨ الغى الكتابة بالحرف العربي، واخذ بالحرف اللاتيني.

وعمل على مجاراة الدول الاوروبية في كل شيء، فحاول تنشيط الزراعة، والاقتصاد واقامة نواة لصناعة ثقيلة.

١٩٣٤ منحت الجمعية مصطفى كمال لقب «اتاتورك» ــ أي ابو الأتراك ــ ورفعت له تماثيل في كل منطقة. وعلقت صوره في المكاتب والساحات والشوارع.

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨ توفي أتاتورك وقد أرهق جسده بالعمل من جهة، وبحياته الخاصة المليئة.

■

المرجع: Historia Juillet 1981



احترام العهود والمواثيق من الواجبات الاسلامية الاساسية، فالمحافظة عليها لها أبلغ الأثر في تحديد طبيعة العلاقات بين الدول، وحل المنازعات واحترام اسس السلام القائم على الحق.. قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا اوفوا بالعقود» وقال أيضاً «وافوا بالعهد ان العهد كان مسؤولاً» ويقول عليه السلام: «ان حسن العهد من الايمان».

اما شروط العهود فهي:

١ ــ الا تخالف حكماً من الاحكام الشرعية، يقول عليه السلام: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وان كان مائة شرط».

٢ ــ ان تكون على رضى واختيار فالاجبار والاكراه، طريق إلى امكانية نقض العهد، فالعقد أو العهد الذي لم تتوفر فيه حرية الارادة لا احترام له.

٣ ــ ان لا يكون فيه شيء أو أمر غامض غير مفهوم حتى لايؤول تأويلاً تكون نتائجه الاختلاف والنزاع عند التطبيق.

الحياة الثقافية

مجلة ثقافية جامعة تصدرها وزارة الشؤون الثقافية - بتونس

من أهدافها:

- خدمة القارئ العربي في كل مكان
- المساهمة في تطوير البحث والإنتاج والنقد
- تقديم صورة صادقة عن الحركة الثقافية والفكرية في تونس.

العنوان : وزارة الشؤون الثقافية - القصبة - تونس

الهاتف : 263.819

الاشتراكات : عن ستة أعداد : 2,150 دينار تونسي أو ما يعادلها.

قتيل في حرب الكوريتين

د. سامي زكي



قتلى المارينز إثر التدخل الصيني

ظلت «بلاد الصباح الهادىء» كوريا، خلال قرون مجهولة لدى الغرب. وهي شبه جزيرة يقطنها شعب قلما كان حراً، خلال تاريخه.

وهي منطقة جبلية، صعبة المنافذ، اقليمها قاس، وشتاؤها سيبيري تقريباً. ويشكل نهر يالو في الشمال حدودها مع منشوريا، المقاطعة الصينية. في الشرق، تلتقي بحدود الاتحاد السوفياتي في جزر صغيرة فحسب. أما جنوبها فمتجه إلى اليابان. وساحلها مزروع بجزر صغيرة. وكان قربها من الصين واليابان، قد جعل ثقافتها منذ القرن السابع الميلادي، صينية. في القرن الثالث عشر دمرها المغول مع الصين الشمالية. وسلمت اليابان من الغزو بسبب عاصفة دمرت الأسطول المغولي. ومنذ ذلك الحين أصبحت تابعة للصين، وكان ملوكها يدفعون الضرائب لها.

تغير كل شيء في القرن التاسع عشر. في عام ١٨٦٠ بلغ الروس حدود كوريا. ثم مارس اليابانيون سياسة توسع باتجاه القارة، فسحقوا الصين عام ١٨٩٥، وبعد عشر سنين احتلوا كوريا واستعملوها قاعدة ضد الروس. وقد ضم اليابانيون المنتصرون كوريا إليهم عام ١٩١٠ ومات آخر ملوكها في طوكيو.

كانت السيطرة اليابانية استعمارية، فقد استغلت كوريا لمصلحة اليابان، وغدا الكوريون عمالاً من أجل الصناعة اليابانية الناشئة. وخلال الحرب الثانية أرسل كثير منهم إلى جزر المحيط الهادىء ليبنوا مطارات، وليكونوا اليد العاملة.

وحين صنع اليابانيون كوريا كانت لهم أهداف عسكرية. فقد أنشأت مصانع للمواد والمعدات الحربية، واستغلت مناجم كوريا، وبنت خطاً حديدياً يقود من مرفأ بوزان إلى يالو، «وكهربت» البلاد بإقامة سدود كبرى لانتاج الطاقة الكهربائية. وحوالي عام ١٩٣٠ أصبح الاقتصاد الكوري مكملاً للياباني والمنشوري، فقد ألحقت منشوريا باليابان تحت إسم منشوكوو، وأصبحت الرور الياباني.

أقام ٧٥٠٠٠٠ ياباني في كوريا، يريدون مباشرة مستعمرتهم، وليقمعوا كل حركة من الحركات التي تنجم عفوياً. عام ١٩١٩ أقام طلاب كوريون حكومة منفى مؤقتة في شنغاي، برئاسة سينغمان ري. وقد انتقلت بعدئذ إلى نانجينغ، ثم إلى شونكينغ. وكان ينافسها الحزب الشيوعي الذي أنشىء عام ١٩٢٥.

بلاد لا وزن استراتيجي لها

حين قامت الحرب في آسيا، لم تكترث أية من القوى الكبرى لكوريا، ولم تذكر إلا عام ١٩٤٣ في مؤتمر القاهرة الذي ضم البريطانيين والأميركيين والصينيين. فقد اتفق الشركاء على ما يلي: «بالنظر لحالة العبودية التي تعيشها كوريا، فقد تقرر تحرير هذه البلاد ومنحها استقلالها»، ولم يستشر السوفيات بذلك.

وذكرت كذلك في مؤتمر يالطا، ١٩٤٥، كانون الثاني. فقد كانت نهاية الحرب متوقعة، ولكن الروس لم يكونوا ينوون ترك الغرب والصين يقرران مستقبل الشرق الأقصى. وطرح الرئيس روزفلت خطة قديمة، لوضع كوريا تحت إشراف



UN TOIT POUR CHAQUE FRANÇAIS • PLUS DE TAUDIS

France-soir

8 F

15 MILLIONS DE FRANÇAIS VIVENT DANS DES LOCAUX QUI NE SONT PAS HABITABLES

GUERRE FINIE EN CORÉE:

Le feu a cessé à 14 h. sur tout le front

L'ARMISTICE AVAIT ÉTÉ SIGNÉ DANS LA NUIT A 2 H. 1

L'O.N.U. se réunit le 17 août pour nommer les membres de la commission politique qui réglera le sort du pays

PAN-MUN-JOM, 27 juillet

LE COUT DE LA GUERRE:

« Tête Brûlée » et « Le Boiteux »

ثلاثي من الولايات المتحدة والصين والاتحاد السوفياتي، ويدوم الاشراف إلى عشرين سنة، قبل أن تمنح كوريا الاستقلال الناجز. واقترح ستالين اشتراك انكلترا في الاشراف، ثم علقت المسألة.

أعيد طرح المشكلة في بوتسدام، تموز ١٩٤٥. كانت المانيا قد قهرت، والروس يستعدون للمساهمة الفعلية ضد اليابان، بمهاجمة منشوريا، ثم كوريا. في الوقت ذاته كان الجنرال مارشال رئيس أركان الجيش الأميركي يراجع مع الرئيس ترومان التعليمات التي سترسل إلى الجنرال ماك آرثر، قائد القوات في مسرح العمليات في الشرق الأقصى، كي يرسل، بعد احتلال اليابان فرقة إلى بوزان، وقوات إلى سيئول، وعناصر إلى شونغجن إلى الشمال، على الحدود مع الاتحاد السوفياتي.

خط العرض ٣٨

ولكن اتفاقاً بسيطاً مع رئاسة الأركان السوفياتية غير المخططات. فقد نص الاتفاق على أن يحتل السوفيات كوريا حتى خط العرض ٣٨. أي إقامة حدود، مصطنعة، بشخطة قلم على الخارطة، لا تأخذ بعين الاعتبار النشاط الزراعي والصناعي المحليين، أو الكوريين أنفسهم.

٨ أيلول ١٩٤٥ نزل الأميركيون في بوزان وصعدوا، حسب الاتفاق، إلى خط العرض ٣٨، الذي يمر قريباً من سيئول إلى الشمال. وهكذا فصل تسعة ملايين كوريّ في الشمال، عن واحد وعشرين مليوناً في الجنوب.

لم تعد قضية الاشراف مطروحة: فقد أقام السوفيات حكومة في عاصمة الشمال بيونغيانغ، وأقام الأميركيون حكومة في سيئول، برئاسة سينغمان ري. وكان يحكم في بيونغيانغ كيم إيل سونغ، أحد المناضلين القدامى ضد اليابان، وقد أصبح ضابطاً في الجيش الأحمر، ورئيس الحزب الشيوعي الكوري. وكان السوفيات يثقون به، فسحبوا حامياتهم، ولم يتركوا إلا بعض التقنيين.

أما الأميركان فلم يسحبوا جيوشهم. وبقي خمسون ألفاً في الجنوب، يواجهون نقمة الكوريين الذين عدوهم محتلين جدداً.

عام ١٩٤٩ انشطرت كوريا نهائياً إلى قسمين عدوين، وانسحب الأميركيون ولم يتركوا إلا مستشارين عسكريين، ولم يدعوا لجيش سينغمان ري الصغير إلا تجهيزات ضئيلة لأنهم لم يكونوا يثقون به، بل كانوا يتهمونه بالعمل على توحيد كوريا.

كما أن الأميركيين لم يشملوا كوريا الجنوبية في خططهم الدفاعية التي تضم اليابان وجزر شمال البحر الهادىء وفورموزا (تايوان) والفيليبين في الجنوب. ولكنهم كانوا يمنحون كوريا القروض، وبفضل المال أطلقت كوريا اقتصادها، رغم أن ٧٥٪ من سكانها كانوا أميين عام ١٩٤٥. من جهة ثانية بدأت اليابان تصبح أكبر قوة في الشرق الأقصى، وشريكاً في المعسكر الغربي.

عام ١٩٤٩، الأول من تشرين الأول انتصرت الثورة في الصين وأعلن ماوتسي تونغ الجمهورية الشعبية الصينية. وفي الوقت ذاته سلح الاتحاد السوفياتي بأحدث الدبابات والمدافع وطائرات المطاردة.

لا حرب في كوريا

تنطلق إشاعات عن امكان حرب بين الكوريتين. ولكن الأميركان لا يعتقدون ذلك. في ربيع ١٩٥٠ أرسل ماك آرثر تقريراً متفائلاً إلى واشنطن: «نعتقد أنه لن تجري حرب بين الكوريتين هذا الربيع والصيف القادم. فكوريا الشمالية تنشط لاسقاط الحكم الكوري الجنوبي

بالحرب النفسية». كان الأميركان مشغولين بأمور أخرى، فالحرب الباردة على أشدها، وماك آرثر يطالب دائماً بالدعم، وبالأموال. وفي مطلع ١٩٥٠ سدت حاجاته جزئياً، ولكن أياً من القطعات الموجودة في اليابان لم تنل كفايتها. كما ان احتياطي السلام لم يكن يكفي لمعركة تدوم أكثر من خمسة وأربعين يوماً. أما استعدادات كيم إيل سونغ فلم تخف على الأميركيين. كانوا يعرفون عدد القوات واستعداداتها. فقد بلغ ١٣٥٠٠٠، بينهم تسعون ألف مقاتل دائم. بينما كوريا الجنوبية تملك ٦٥٠٠٠ مقاتل مزودين بمدافع أميركية خفيفة، دون دبابات أو مدفعية أو طيران. مع العلم أن ١٥٪ من الأسلحة و٣٥٪ من العربات غير صالحة.

هجوم قريب

بدأت تصل، منذ أيار، أنباء عن نوايا كوريا الشمالية، إلى مكتب ماك آرثر في طوكيو. وورد إلى البانتاغون تقرير يقول: «إن تحريك قوات كوريا الشمالية باتجاه خط العرض ٣٨، في الفترة الحالية، تجعلنا نتوقع عدواناً». وقد أيد التقرير نص آخر ورد في ٢٣ أيار: «يمكن للعدوان على كوريا الجنوبية أن يحدث في كل لحظة، كما أن سقوط الهند الصينية في أيدي الشيوعيين متوقع». ١٩ حزيران، وقبل الهجوم بأيام، وردت معلومات عن إخلاء المناطق الحدودية الشمالية، ومنع الابحار نهائياً، وتمركز المصفحات، وورود كميات كبيرة من المؤن والذخائر. ولكن واشنطن لم تبال كثيراً بالأمر. في اليوم نفسه، أرسل رئيس أركان ماك آرثر، الجنرال ويلوغبي الكتاب التالي: «يعتقد المستشارون الروس أن الوقت مناسب لقلب الحكم في كوريا الجنوبية، بوسائل سياسية، مع العلم أن الثوار في كوريا الجنوبية قد منوا بخيبات متلاحقة».

الغــزو

الساعة السادسة والنصف من صباح، الخامس والعشرين من عام ١٩٥٠، أرسل الملحق العسكري في سيئول، إلى قيادة ماك آرثر في طوكيو برقية يقول فيها: «بدأت معارك طاحنة



كيم إيل سونغ



سينغمان ري



هذا اليوم، ٢٥ حزيران، الساعة الرابعة، في شبه جزيرة أونغجيني، باتجاه الشرق. سقطت مدينة كايسونغ الساعة التاسعة بين أيدي الكوريين الشماليين. لوحظت عشر مصفحات شمالي شونشون، ونزول كتيبة من عشرين زورق على الشاطىء الشرقي. قطعت الطريق الساحلية جنوب كانيونغ. لم يلحظ أي خلل في قوات كوريا الجنوبية».

بعد تسعين دقيقة، جاءت برقية تؤكد الأولى. أبلغ ماك آرثر رئيس الولايات المتحدة الذي كان يقضي العطلة الاسبوعية في اندبدانس (ميسوري). وكان اليوم السبت ٢٤ حزيران بالتوقيت الأميركي.

رجع ترومان اليوم التالي إلى واشنطن. وقرأ دين أتشنسون للرئيس تقرير السفير موكسيو، الذي يؤكد برقية الملحق العسكري، ويضيف أن التفاصيل عن المعارك مبهمة. وأنه عقد اجتماعاً مع المستشارين الأميركيين والشخصيات السياسية الكورية لدرس الموضوع. وأن هدف الهجوم إسقاط الحكم في كوريا الجنوبية واحتلالها.

اجتمع مجلس الأمن بدعوة من أميركا، وقرر بالاجماع إدانة كوريا الشمالية، ودعوتها إلى وقف القتال والانسحاب الفوري.

نحو تدخل أميركي

أرسلت التعليمات الأولى إلى ماك آرثر:

ــ ترحيل الأميركيين عن كوريا بجسر جوي، شرط ألا يجتاز الطيران الأميركي الخط ٣٨.

ــ تقديم المؤن والذخائر للجيش الكوري بكل الوسائل.

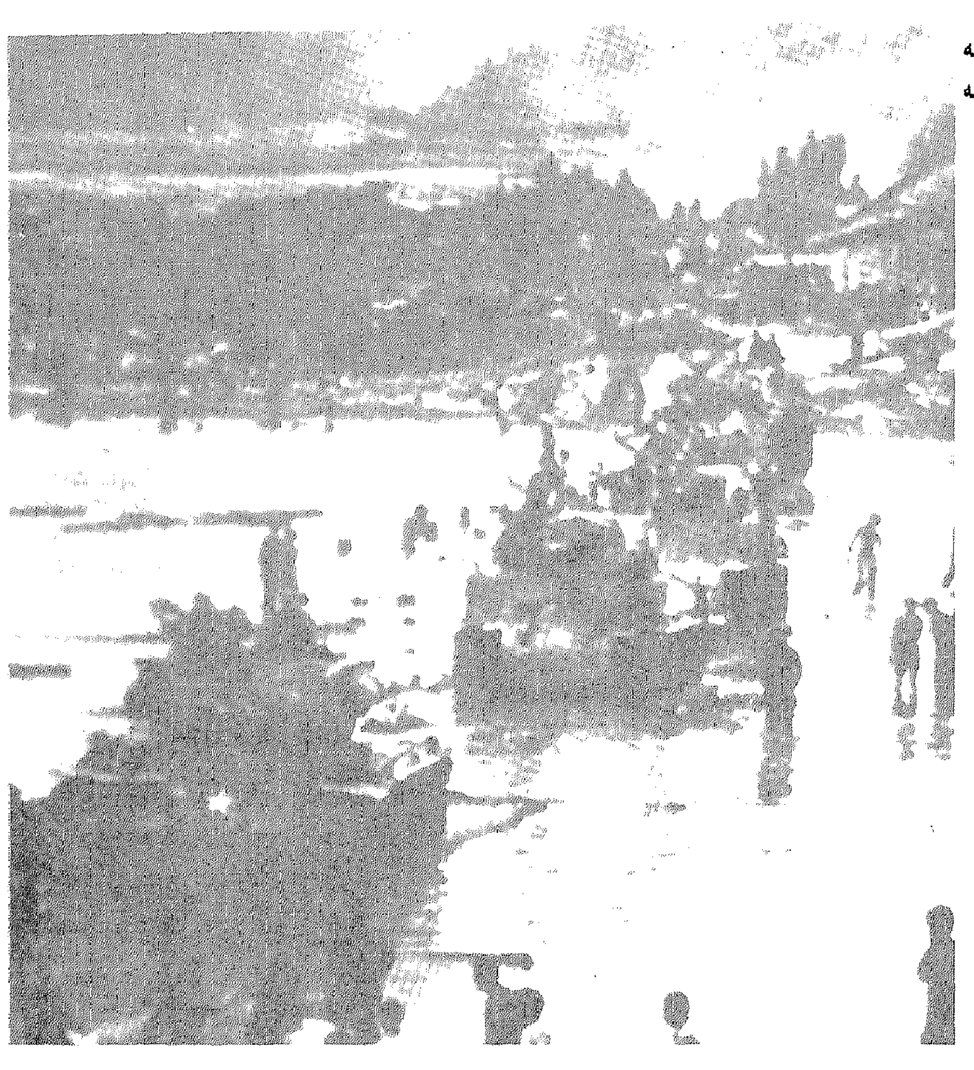
ــ إرسال الأسطول السابع، الموجود في الفيليبين، ليغطي مضيق فورموزا، في حال قيام هجوم صيني عليها.

لم يتقرر حتى ذلك الوقت إرسال جيوش. وكان قرار رؤساء الأركان المجتمعين إلى ترومان أن كوريا الشمالية لن تحترم قرارات هيئة الأمم، ومن الخير البدء بالتدخل العسكري.

يروي ترومان «أن الجنرال برادلي قال إن ثمة حدوداً، وقد بلغناها. وأن الروس غير مستعدين لخوض حرب، ولكنه من الواضح أنهم يريدون تجربتنا في كوريا، لذلك حان الوقت لمخاطبتهم بالقوة». ويضيف: «لقد أيدته في الرأي بكل قوة، فلكل شيء حدود».

وقد دعا شينغمان ري الولايات المتحدة إلى نجدته، وتقديم المساعدة الفعالة والسريعة. وفي هذا الوقت وصلت برقية من ماك آرثر محذراً: «وحدات كوريا الجنوبية غير قادرة على الصمود ضد الدبابات والطيران. والخسائر الكورية الجنوبية تشهد على عدم كفاءة القوات الجنوبية وكفايتها. تقديراتي أن الانهيار سيكون سريعاً». وفكر ترومان: لو سقطت كوريا لكان الهدف الثاني اليابان والجزر التي عليها قواعد أميركية كبيرة كأوكيناوا وافورموزا. وستفقد أميركا ماء وجهها وهيبتها في الشرق الأقصى. واتخذ ترومان قراره بعد استشارة مجلس الشيوخ، وكان يعلم أن كل أميركا تؤيده، وأن الحلفاء الغربيين والكومنولث البريطاني يدعمونه. وفي ٢٨ حزيران نزلت الفرقة (٢٤) الأميركية القادمة من اليابان في كوريا، وبلغت الجبهة مباشرة. كان الوضع ميئوساً منه كما صرح ماك آرثر. ففي الليل، كان الكوريون الشماليون بلغوا ضواحي سيئول. الساعة السادسة صباحاً، من ٢٨، فتحت المدفعية النار على العاصمة، وحلق الطيران الشمالي فوقها، وأرسل تحذير بضرورة استسلام سيئول التي كانت مكتظة باللاجئين، الذين أتوا من كل الجهات، وتخلى قائد جيش كوريا الجنوبية الجنرال شاي بيونغ دول عن العاصمة واجتاز نهر هان، باتجاه الجنوب. كان شعب بكامله يهرب، مع جيشه، تلاحقه قذائف الدبابات السوفياتية الصنع. حاول المستشارون الأميركيون المستحيل لاعادة النظام في قلب الفوضى الشاملة، ولكنهم لم يستطيعوا منع الكوريين الجنوبيين من تدمير الجسور على نهر هان، مما جعل المئات يسقطون في النهر فيبتلعهم، وخلال أربعة أيام حقق الكوريون الشماليون أهدافهم. بينما جيش كوريا الجنوبية لم يكن إلا ٢٢٠٠٠ جندي، أضاعوا سلاحهم. الفرقتان السادسة والثامنة وحدهما، صمدتا وأنقذتا أسلحتهما. ٢٨ حزيران، يوم نزول الأميركيين سقطت سيئول في أيدي الشماليين، الذين قاموا بمجازر مخيفة.

فرقة مدرعة تتجه إلى المعركة لتواجه دبابات ت ــ ٣٤



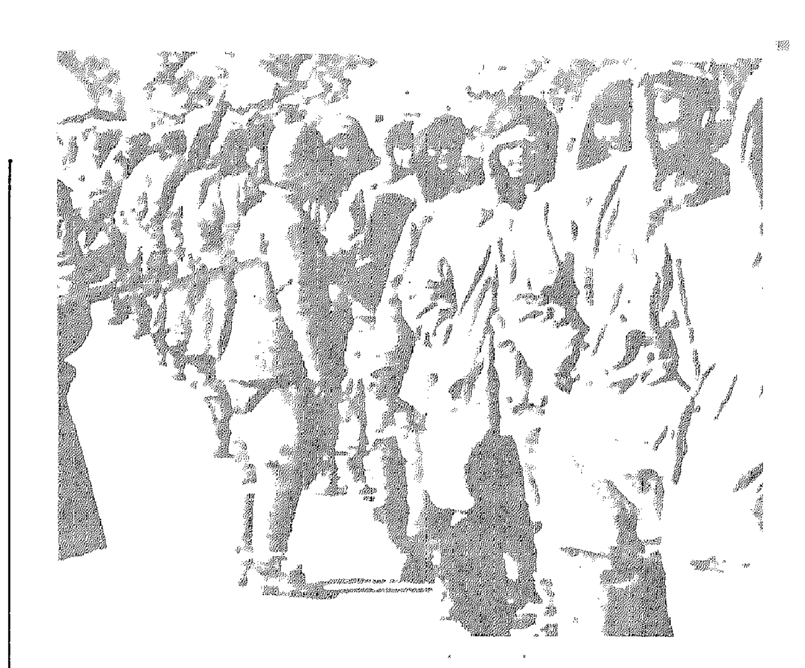
الحرب تحت علم هيئة الأمم

كان مجلس الأمن منعقداً في نيويورك، في غياب الاتحاد السوفياتي، الذي قرر عدم الاشتراك بالمناقشات. كان رد الفعل البريطاني سباقاً، فقد أبرقوا الى الأميرال سيرباتريك برانيد أن يضع نفسه بتصرف الأميرال الأميركي تورنر جوي. وقد أبلغت أوستراليا وزيلاندا الجديدة بالأمر فوافقتا على موقف بريطانيا، ثم تلتهما كندا. ثم كان مجموع الدول التي قررت المساهمة ست عشرة دولة، سواء بإرسال الجيوش تحت علم الأمم المتحدة، أو بارسال البواخر ــ المستشفيات. وقد سمي ماك آرثر قائداً أعلى، فطار إلى كوريا، وركب سيارة جيب إلى خطوط القتال. وكان انطباعه يؤكد الكارثة، ويشدد على أن التدخل إذا لم يكن كثيفاً لا يمكن أن يجدي.

الأميركيون في خطوط القتال

اجتاز الكوريون الشماليون، في ٣٠ حزيران، نهر هان، وأصبحت كل كوريا الجنوبية مفتوحة للغزو. بعد ثلاثة أيام من ذلك كان حفنة من الجنود الأميركيون (٤٠٦) يقدمون من معسكرات اليابان يقودهم الليوتنانت كولونيل سميث. أعطاهم الجنرال دين التعليمات، وأمرهم بالرحيل فنزلوا قرب بوزان، واجتازوا بالقطار إلى تايجون والتقوا بالجنرال تشورش الذي دل سميث على الموقع على الخارطة. وقال له: «نحتاج إلى رجال لا يهربون لمجرد رؤية الدبابات. سندعمكم بقوات كوريا الجنوبية الباقية لدينا. وسنعطيهم المثل».

شقوا طريقهم على طرق صعبة، بين لاجئين هاربين يقصفهم الطيران الاوسترالي الذي أخطأ الهدف، وأصيبت عدة طائرات منه بالمضادات



أسرى أميركيون يساقون إلى المعتقل

الكورية الجنوبية. وتأكد جنود سميث أنهم غير قادرين على فعل أي شيء تجاه الدبابات ت ــ ٣٤ الكورية الشمالية التي لم تؤثر فيها البازوكا والقنابل الأميركية. وراحت قوة سميث تدافع بصعوبة كبرى ضد المواقع الشمالية. وقد انشطرت القوة الأميركية وفقدت ١٥٠ رجلًا، وشتت الباقون، وفشل التدخل الأميركي الأول فشلًا ذريعاً.

في البحر كان الموقف أفضل، فالبحرية الشمالية المؤلفة من أربعة طرادات وبعض الزوارق الحربية، كانت تحمي عشر سفن مؤن للجيوش العاملة على الشاطىء، فوجئت بالمدمرتين جونو الأميركية، وجامايكا البريطانية، والحاملة البريطانية بلوسوان. وفقدت الطرادات الأربعة، وسبع سفن.

الوضع الحرج

وجد الجنرال دين نفسه مشلول القدرة، يشهد نزول القوات التي أرسلها ماك آرثر، تدمر منذ وصولها إلى مناطق الجبهة، وسقوط كل كوريا الوسطى. ولم يؤثر قصف الطيران الأميركي في عرقلة تقدم الكوريين الشماليين، الذين كانت الحرب لديهم أشبه بنزهة.

وكان ماك آرثر نفسه يزداد تشاؤماً: «الوضع في كوريا حرج... فالمصفحات العدوة ممتازة، والتجهيزات حسب التقارير أفضل مما استخدم في الحرب العالمية الأخيرة».

لقد غدا من الضروري قيام عملية ضخمة. وقررت واشنطن أن تقدم كل ما يطلب في سبيل ذلك، ووضع البانتاغون في تصرف ماك آرثر، فرقة المارينز، وفرقة المدفعية الثانية. وحرك ماك آرثر الجيش الثامن، لاحتلال رقبة جسر في كوريا، أي ميناء بوزان. واستعاد الكوريون الجنوبيون رباطة جأشهم بعد الصدمة الأولى. وأصبح لديهم مصفحات. غير أن النصر كان حليف الكوريين الشماليين، فمصفحات الأميركيين الخفيفة لم تصمد لدبابات ت ــ ٣٤. ولكن الطيران الأميركي أنقذ الموقف، بقصف الدبابات الشمالية. مع ذلك كانت المدن تسقط واحدة بعد واحدة دون أن يستطيع الأميركيون إقامة نقاط ارتكاز للتراجع، وأصبح الشماليون على بعد مائة كيلومتر من بوزان في ١٢ تموز. وفي اليوم نفسه عين الجنرال ووكر قائداً عاماً لكل العمليات البرية.

في هذا الوقت كان الجنرال دين يحارب مع رجاله كأي جندي، يحمل بازوكاً ويقصف فيصيب دبابة هي الوحيدة التي عطلت بالبازوكا، ولكن قواته التي كانت تدافع عن شانون اضطرت للانسحاب بعد أن فقدت ثلثها، وكل أسلحتها. وفيما كان دين يبحث عن ماء لجرحاه، ضل في الطرقات الوعرة فاعتقله بعض المدنيين وسلموه للشماليين، وانتهى إلى معسكر للاعتقال، دون أن يعلم أن فرقته استطاعت إقامة رقبة جسر آخر الأمر، بعد أن تدفقت الامدادات الأميركية. وكان الطيران الأميركي الكثيف يقصف دون انقطاع القوات الشمالية التي لم تكن تملك إلا المضادات التقليدية.

أول آب، وعلى مجرى نكتونغ الأعلى، وهو نهر يجري من الشمال إلى الجنوب ويصب في بوزان، استطاعت قوات الأمم المتحدة أن تواجه للقوات الشمالية التي كانت على وشك احتلال بوزان، وأن تنقذ رقبة الجسر. عندئذ بدأ ماك آرثر ينفذ الخطة التي اعتقد أنها ستحرز النصر.

ثأر ماك آرثر

قرر ماك آرثر أن يوجه ضربته إلى الخطوط الخلفية للقوات الشمالية، وأن يحتل سيئول في

عملية واسعة جداً. فإذا نجح اضطر الشماليون إلى الانسحاب باتجاه الشمال لحماية أرضهم.

السادس من آب جمع في طوكيو، السفير ريمان، والجنرال نوستراك (طيران) والجنرال ريدغوي (مدفعية) وأطلعهم على خطته. وقال إنه سيدفع بسبعين ألف مقاتل، منهم ٢٥٠٠٠ من المارينز يهاجمون إينشون جنوبي نهر هان الذي يسقي سيئول. كانت العملية مخاطرة كبيرة في رأي القادة، ذلك أن نقل مثل هذه القوة مع المد إلى شاطىء أقل ارتفاع له ثمانية أمتار، في وقت لا يتجاوز ساعتين، أمر خطير جداً، خاصة وأن المد ينحسر ليحل محله الجزر، لينكشف الشاطىء عن كثبان رمال ووحول. كما ان احتلال مدينة من ٢٥٠٠٠٠ نسمة خلال ساعة وهي محمية، أمر شديد الخطورة. ولكن ماك آرثر قرر تنفيذ خطته، وأصر على الانزال في ١٥ أيلول. وفي التاريخ المحدد، بدأ قصف أنشون ومقدمة مينائها، ثم صعدت السفن قناة السمكة الطائرة، التي تقود إلى المرفأ «ووليدو».

السادسة و٢٥ دقيقة، وبعد قصف مركز، احتل الأميركيون ووليدو بخسائر لا تذكر. ثم أوقفوا العملية بانتظار المد. الساعة الثالثة عشرة احتلت موجات جديدة من المهاجمين مدينة أنشون. دامت العملية ٢٤ ساعة، وفتحت طريق سيئول. في ٢٦ أيلول أصدر ماك آرثر بلاغاً يقول: «سيئول عاصمة كوريا، في أيدينا من جديد. قوات الأمم المحدة بما فيها الفرقة الكورية الجنوبية، والفرقتان الأولى والسابعة من المارينز طوقت المدينة واحتلتها». بعد قليل تسلم سينغمان ري وماك آرثر قصر الحكومة واحتفلا بالنصر.

في نهاية أيلول كانت القوات التي تحركت من بوزان قد التقت بالقوات التي نزلت في أنشون. ولم يبق للطيران من هدف يقصفه دون خط العرض ٣٨.

أيجب اجتياز الخط ٣٨

طرحت مسألة اجتياز الخط ٣٨. لم يكن الصينيون والسوفيات ليقبلوا باحتلال كوريا الشمالية. وحذر شوإن لاي وفيشنسكي الأمم المتحدة أكثر من مرة، ووسطوا حكومة الهند للتدخل، واتصلوا بسكرتير الأمم المتحدة تريغفي لي محذرين:

«تردد الرئيس ترومان بإعطاء الأمر بمتابعة العمليات رغم الحاح ماك آرثر، الذي أصر على إحراز نصر شامل، ولو أدى ذلك إلى حرب مع الصين. الرابع من تشرين الأول، قرر مجلس الأمن في هيئة الأمم المتحدة بأغلبية ٤٧ صوتاً، ضد خمسة، وامتناع سبعة، مايلي: «ستتخذ جميع التدابير التي تؤمن شروط الاستقرار في كوريا كلها، وسيتخذ مايلزم لاجراء انتخابات برعاية الأمم المتحدة، تسمح بإقامة حكومة موحدة مستقلة ديمقراطية...».

لم يسمع ماك آرثر هذا القرار، وكان قد أرسل قوات إلى الشمال من خط العرض ٣٨، على أن تنسحب بعد عيد الميلاد. وقد أبلغه الجنرال مارشال وزير الدفاع إنه: «في حال تحرك قوات صينية، علناً أو سراً، يجب عليك متابعة عملياتك إذا كانت القوات الموضوعة تحت إمرتك قادرة على تحقيق النصر. ولكن عليك، في كل حال، أن تحظى بإذن واشنطن قبل أن تقوم بأية عملية حربية ضد الأهداف على الأرض الصينية».

لقاء في ويك

أهمل ماك آرثر التحذير. فقد كان في اعتقاده أن الصين لو شاءت التدخل لتدخلت من بداية الحرب. أما الآن فقد فات لأوان.

١٥ تشرين الأول التقى ترومان ماك آرثر في جزيرة ويك في المحيط الهادي. أكد آرثر نظريته، لاعتقاده أن التدخل الصيني أو الروسي مخاطرة غير مجدية.

اليوم التالي كان ١٨٠٠٠٠ صيني يجتازون نهر يالو. ولكن القوات الحليفة تقدمت وسقطت بيونغ يانغ في ١٩ تشرين الأول. ورأى ماك آرثر أن يحتل ونسان على الحدود الشرقية. ورغم تأخر التقدم بسبب الألغام فقد بلغتها قواته.

التدخل الصيني

عندئذ تدخل الصينيون كمتطوعين. وقضوا تقريباً على لواء كوري جنوبي، ثم دمروا اللواء الثاني الجنوبي.

ورأى الأميركيون مصفحات عدوة تظهر من جديد. كان سميث على بعد عشرين كيلومتراً من يالو حين جاءه الأمر بالتوقف والصمود. وظهرت في السماء الميغ ١٥ وهاجمت الـب ــ ٢٩ الأميركية، في الوقت الذي كانت هذه تحاول الاقلاع لتدمر آخر الجسور على يالو.

لم يكن ماك آرثر يريد أن يقتنع بالتدخل الصيني. في ٣ تشرين الثاني أمر الفرقة ٢٤ الأميركية بالتقدم نحو يالو بأسرع ما يمكن. وانقسمت الفرقة الى عدة أقسام. اليوم التالي اصطدمت فرقة الخيالة الأميركية بخمس فرق صينية. في الشرق اصطدم المارينز بثلاث فرق. وفي الشمال كان الجنود يعانون من الصقيع والثلج. خلال ثلاثة أسابيع تجمد النشاط في الجبهة، فقرر ماك آرثر أن ينهي الموضوع. في ٢٤ تشرين الثاني هاجمت الفرقة الثامنة الأميركية. وكانت المجزرة. فقد تغلغل الصينيون بين الأميركيين، وشل الشماليون الفرقة الكورية، ودفعوا الفرقة الثامنة نحو البحر. ولو نجحوا لدمر الجناح الحليف. وأعطى الجنرال ووكر كل ما لديه. وكان ثمة خمسة آلاف تركي، صدفة. وقد أنقذوا الجيش الثامن خلال ساعات. وتلقت الفرقة المدفعية الثانية أمراً بتغطية انسحاب الجيش الثامن، الذي وقع في كمين فقد ربع عدده، ولم ينقذه إلا قوة أميركية.

ما العمل

أبلغ ماك آرثر واشنطن: «بذلت قواتنا كل ما يمكن من الطاقات الانسانية، ولكنها الآن تجابه وضعاً يتجاوز كل الامكانات والقوى». دعا ترومان مجلس الأمن القومي الأميركي، ودرس نتائج التدخل الصيني:

ــ إذا دخلت أميركا الحرب ضد الصين لن نضمن حماية أوروبا.

ــ إذا اتهموا الروس بالعدوان كانت نهاية الأمم المحدة.

ــ إذا دمرنا المطارات المنشورية كما يطالب ماك آرثر، دعونا الروس إلى الرد فنجمت حرب عالمية ثالثة.

إذن، لابد من حل لوضع نهاية للحرب، وإلا ، كما يقول الجنرال برادلي: «جررنا أميركا إلى حرب غير مضمونة، ضد عدو لم نحسن انتقاءه».

وحتى لو استخدمت القنبلة الذرية لكانت العواقب وخيمة.

انسحاب صعب... ثم وقف النار

أخذ الصينيون على عاتقهم توحيد كوريا. ورغم الخسائر التي منوا بها نتيجة قصف الطيران فقد تقدموا بسرعة. ووجد الجنرال ووكر صعوبة كبرى في الانسحاب. انسحبت القوات من بيوننيانغ بعد تدميرها. ووجد المارينز مصاعب جمة في الانسحاب من الشرق. أما المعركة الطاحنة فجرت في كوتوري. مع ذلك استطاع الأميركيون بلوغ الشاطىء وركوب البواخر التي كانت تنتظرهم، رغم خسائرهم الكبيرة جداً.

كان الصينيون يواجهون ٣٥٠٠٠٠ جندي يقودهم الجنرال ريدغوي بعد موت الجنرال ووكر. واستطاع الجنرال لين بياو احتلال سيئول، ثم جمدت المواقع خلال عدة شهور.

وفي آذار ١٩٥١ عزل لين بياو وحل محله الجنرال بنغ دهواي. وكانت القوات الصينية بحاجة إلى المعدات الروسية التي تأخرت عليها، فقام ريدغوي مستغلاً الفرصة بهجوم على سيئول واستعادها.

وفي المقابل عزل ماك آرثر من منصبه، فقد أغضب الرئيس ترومان أن يرى عسكرياً يخالف آراءه ويعصاها. ومنح الجنرال ريدغوي ثقته.

وفي هذه الفترة كانت المعارك سجالاً. ينتصر هؤلاء ثم يخسرون، وينتصر أولئك ثم يفقدون ما كسبوا، حتى تقرر وقف إطلاق النار ما عدا معارك محلية.

واتفق على إجراء مفاوضات دامت أكثر من سنتين. واستمرّت حتى تسلم أيزنهاور رئاسة الجمهورية. وفي هذه الفترة توفي ستالين، وحلت محله قيادة روسية جديدة.

وفي ٢٧ تموز ١٩٥٣ وقعت الهدنة. وكانت حصيلة الخسائر البشرية ١٨٢٠٠٠٠ نسمة.

■

المرجع: A la une,1 er Trimestre 1981

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ٧٥ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٠٠ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الاخرى ...... ١٥٠ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٠٠ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية: خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار أو ما يعادلها

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

واعظ الرشيد *

قال الفضل بن الربيع[1].

حجّ هارون الرشيد أمير المؤمنين، فأتاني فخرجت مسرعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت اليّ لأتيتك! فقال: ويحك! قد حك في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً! فقلت: ها هنا سفيان بن عُيَيْنة[2]، فقال: امض بنا اليه، فأتيناه فقرعت الباب: فقال: من ذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلى لأتيتك! فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله. فحادثه ساعة، ثم قال له عليك دين؟ فقال: نعم! فقال: يا عباسي، اقض دينه.

فلما خرجنا قال لي: ما أغنى صاحبك عني شيئاً. أنظر لي رجلاً أسأله! قلت: ها هنا عبد الرزاق[3] بن همام! قال: امض بنا اليه، فأتيناه فقرعت الباب فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين! فخرج مسرعاً، فقال: يا أمير المؤمنين! لو أرسلت اليّ لأتيتك! فقال: خذ لما جئناك له؛ فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم! قال: يا عباسي، اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى صاحبك عني شيئاً، أنظر لي رجلاً أسأله! قلت: ها هنا الفضيل بن عياض[4]؛ قال: امض بنا اليه، فأتيناه؛ فاذا هو قائم يصليّ، ويتلو آية من القرآن يرددها، قال: اقرع الباب فقرعت الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين! فقال: مالي ولأمير المؤمنين! فقلت: سبحان الله! أما عليك طاعته؟ فنزل وفتح الباب، ثم ارتقى الى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ الى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا، فجعلنا نجول عليه بأيدينا، فسبقت كف هارون قبلي اليه.

فقال: يا لها من كف! ما ألينها! ان نجت غداً من عذاب الله عز وجل! فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام من قلب نقي، فقال له: خذ لما جئناك له — رحمك الله! فقال له: ان عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا علي — فعد الخلافة بلاء. وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: ان أردت النجاة من عذاب الله فصم الدنيا. وليكن افطارك منها الموت. وقال محمد بن كعب: ان أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين عندك أباً، وأوسطهم عندك أخاً، وأصغرهم عندك ولداً؛ فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: ان أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت اذا شئت. واني أقول لك: اني أخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام، فهل معك — رحمك الله — مثل هؤلاء، أو من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديداً، حتى غشي عليه. فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين — رحمك الله!

فقال: يا أمير المؤمنين؛ بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكى اليه، فكتب إليه عمر: يا أخي؛ أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، واياك أن يُنْصَرَف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك، وانقطاع الرجاء منك.

قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز؛ فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك؛ لا أعود الى ولاية حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال له: زدني — رحمك الله!

فقال له: يا أمير المؤمنين؛ ان العباس عم النبي جاء اليه، فقال له: يا رسول الله؛ أمرني على إمارة. فقال له النبي: إن الامارة حسرةٌ وندامة يوم القيامة؛ فان استطعت ألا تكون أميراً فافعل. فبكى هارون بكاء شديداً، ثم قال: زدني — رحمك الله!

فقال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة؛ فان أردت أن تقي هذا الوجه من النار، فاياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش على أحد من رعيتك، فان النبي قال: من أصبح لهم غاشاً لم

يرح(٥) رائحة الجنة. فبكى هارون، وقال له: عليك دين؟ قال: دين لربي لم يحاسبني عليه؟ فالويل لي ان سألني: والويل لي ان لم ألهم حجتي، قال: انما أعني من دين العباد! قال: إن ربي عز وجل لم يأمرني بهذا، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال: وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

فقال له: هذه ألف دينار، خذها فأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على عبادة ربك! فقال: سبحان الله أنا أدلّك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك! ثم صمت فلم يكلمنا.

فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال هارون: يا عباسي: اذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا! هذا سيد المسلمين.

فدخلت عليه امرأة من نسائه، فقالت: يا هذا! قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به، فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال: ندخل فعسى أن يقبل المال، فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هارون فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه.

قال الفضل: فبينما نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء؛ فقالت: يا هذا، قد آذيت الشيخ منذ الليلة: فانصرف رحمك الله! فانصرفنا!

■

هوامش

(*) المختارات للمطالعة العربية طبع أوروبا.

(١) أنظر صفحة ٥٤.

(٢) سفيان بن عيينة: حافظ ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعي عنه: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، توفي سنة ١٩٨ هـ.

(٣) عبد الرزاق بن همام: من حفاظ الحديث الثقات، توفي سنة ٣٢١ هـ.

(٤) الفضيل بن عياض: من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، وتوفي سنة ١٨٧ هـ.

(٥) يرح رائحة الجنة: أي لم يشم ريحها.

وُفُود الفَارَابي عَلى سَيْف الدّولة*

نزل أبو نصر الفارابي(١) بدمشق، ودخل على سيف الدولة(٢) بن حمدان، وهو إذ ذاك سلطانها، ووقف بين يديه؛ فقال له سيف الدولة: اجلس! قال: أجْلِس حيث أنا أو حيث أنت؟ فقال: حيث أنت.

فتخطى رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة، وزاحمه فيه، حتى أخرجه عنه.

وكان على رأس سيف الدولة مماليك؛ وله معهم لسان خاص يسارهم به؛ فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب، واني سائله عن أشياء، إن لم يعرفْها فاخرجوا به!

فقال له أبو نصر بتلك اللغة: أيها الأمير؛ اصبر؛ فان الأمور بعواقبها. فعجب سيف الدولة منه، وعَظُم عنده.

ثم أخذ يتكلم مع العلماء والحاضرين في كل فن، فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل، حتى صمتوا، وبقي يتكلم وحده.

ثم أخذوا يكتبون ما يقول؛ فصرفهم سيف الدولة، وخلا به، فقال له: هل لك في أن تأكل؟ قال: لا؛ قال: فهل لك أن تشرب؟ قال: لا. فقال: هل تسمع؟ قال: نعم.

فأمر سيف الدولة باحضار القيّان، فحضر كل ماهر في الصنعة، فخطأ الجميع، فقال له سيف الدولة: هل تحسن هذه الصنعة؟ قال: نعم.

ثم أخرج من وسطه خريطة(٣) ففتحها، فاخرج منها عيدانا وركّبها، ثم لعب بها؛ فضحك كل من في المجلس؛ ثم فكّها وركبها تركيبا اخر، فبكى كل من في المجلس؛ ثم فكّها وغير تركيبها، فنام كل من في المجلس، فتركهم نياما وخرج!

■

* ثمرات الأوراق للحموي: ٩٧.

(١) نشأ الفارابي بالشام واشتغل فيها، وكان فيلسوفا كاملا، بارعا في كل فن، توفي سنة ٣٣٩ هـ.

(٢) سيف الدولة: هو علي بن عبد الله، صاحب المتنبي وممدوحه، توفي سنة ٣٥٦ هـ.

(٣) الخريطة: مثل الكيس تكون من الخرق والادم



قصة «أسطورية» في عالم هواية جمع الطوابع

ميشال اسطفان





جاء على لسان أحد الصحافيين الأوروبيين، كتب في مجلة أجنبية، قصة أسطورية عن انسان تشبه الخرافة، جاء فيها ما يلي:

أنه من الصعب أن يوجد كتاب عن هواية جمع الطوابع، أو دراسة عنها، لا تذكر مع بعض الدهشة، الهاوي الشهير فيليب فون فراري.

جمع فراري خلال أربعين عاماً أكبر مجموعة خاصة في أيامه، وحصل على أثمن الطوابع النادرة في العالم. بهذا ساعد فراري، أكثر من أي شخص آخر، في زيادة احترام هواية جمع الطوابع، التي كانت تعتبر من تسليات أولاد المدارس، فببطءٍ، ولكن بتصميم، بدأ الناس يدركون أن جمع الطوابع ودراسة تلك الوريقات الصغيرة، هما شأن ذو أهمية للكبار.

لويس فيليب أنطوان ماري أوغستين راؤول مركيز دو فراري، أو فيليب لا رينوتيار فون فراري، الاسم الذي اختاره فيما بعد، كان نبيلاً وثرياً جداً متحدراً من احدى أقدم العائلات الايطالية التي أنجبت للعالم علماء ورجال دولة وفنانين ورجال أعمال. والده كان روفائيل مركيز دي فراري، المصرفي الناجح الذي كان يملك أيضاً أراضي وعقارات كثيرة جداً في جنوا، وبالاضافة الى ذلك كان متعهداً لبناء خطوط السكك الحديدية. بنى في سنة ١٨٤٢ الخط الحديدي الممتد من باريس الى البحر الأبيض المتوسط، كما بنى خطوطاً أخرى في شمال ايطاليا. كان مؤسس ثروة الفراري وذا صيت عالمي لدهائه في معاملاته المالية. عُرف بملك خطوط السكك الحديدية غير المتوّج نال لقب دوق دي غاليبرا من البابا بيُّوس التاسع، كما ان ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل كرّمه أيضاً بلقب أمير لوشيديو (Prince de Lucedio) أما والدة فيليب، فهي الدوقة ماري دي غاليبرا (Duchess marie de Galliera)، نمساوية جميلة وذات ذكاء حاد. كانت سابقاً المركيزة دي برنيولا، ولدت سنة ١٨١٢ في جنت (Ghent)، أبوها المركيز دي برنيولا، ثري من سردينيا، وكان يملك القصر المشهور برينيولا (Palazzo Brignola) في غاريبالدي في جينوا.

وُلد فيليب فون فراري في باريس في ١١ كانون الثاني/ يناير سنة ١٨٥٠، في وضع اجتماعي عالٍ ويُسرْ، وسرعان ما أصبح شاباً وسيماً وذكياً. عيناه زرقاويتان وفي ملامحه أثر أجداده. اهتم في جمع الطوابع وهو ما زال ولداً، وفي أيامه الأولى، كان معروفاً جيداً لدى تجار الطوابع في باريس ١٨٧٠، وكان عادة يزور محلاتهم برفقة والدته. وفي أول حياته قام بدراسة جغرافية العالم والعلوم الطبيعية وفن الدروع والعملات ولغات بلاد أخرى، وأصبح يهتم كثيراً ببلاد العالم الخارجي وبطرق حياتهم، وربما كان ذلك استعداداً لا شعورياً لدراسة الطوابع التي كانت عمله اليومي، أو ربما بالعكس، بسبب ميله للطوابع.

بالرغم من متانة وضعه الاجتماعي والمالي في باريس وفي العالم العصري، فانه عندما كان ما يزال صغيراً اختلف مع والده وترك قصره. خلع عن نفسه كل ألقاب النبلاء واتخّذ له مقراً في الحي اللاتيني في باريس. هناك سمى نفسه فيليب فراري فقط، وابتدأ دراسة القانون والأدب. في ذلك الوقت عُرف عنه بأنه كتب في المجلة الزرقاء (La Revue Bleue) وهي نشرة شهرية سياسية وأدبية، يحررها أوجين يونجز، وأعطى دروساً خصوصية وعاش عيشة معتدلة ومستقلة مادياً عن والديه. وبالطبع كانت والدته

منزعجة جداً من هذا الشقاق بين الأب وابنه، وتوسلت مراراً الى ابنها أن يقبل على الأقل مساعدة مالية لكي يعيش بحسب وضعه الاجتماعي، لكن فيليب رفض جميع المحاولات لمدة لا بأس بها، لكن عاد وقبل بعض المساعدة المالية، وكان ذلك بسبب متطلبات هوايته لجمع الطوابع.

حصلت بعد ذلك مصالحة جزئية بين الأب والابن عاش بعدها فيليب حياة مزدوجة. فحيناً كان يعيش كتلميذ في الحي اللاتيني، وحيناً كان يعيش في قصر غاليير ١٧ شارع فارين في وسط باريس العصرية. (بُني في الأصل هذا القصر الفخم للماريشال دي مون مورانسي (Montmorency) في سنة ١٧٢١). عندما توفي والدي فيليب في سنة ١٨٨٠، عاش فيليب ووالدته نهائياً في هذا القصر.

هناك حكاية رويت عن الدوقة والدة فيليب وهي أنها بعد وفاة زوجها، عثرت فوق رفوف مكتبة زوجها السرّية، والتي كانت مغلقة بوجهها من قبل، على ٣٠٠ كتاب مجلَّدة بالجلد، وكل منها تحمل قفلاً ذهبياً، وكانت أوراق جميع هذه الكتب مؤلفة من أوراق مالية، بقيمة ألف فرنك لكل منها، وكان مجموع هذه الثروة ثلاثة ملايين فرنكاً ذهبياً. وعلى كل حال كانت التركة لوالدة فيليب تبلغ ٢٢٠ مليون فرنك ذهب أو ما يعادل ٩٠ مليون دولار في ذلك الوقت. وبسبب هداياها السخية من الأموال الى مدينتي باريس وجنوا، نالت والدة فيليب بعض الشهرة. وبمناسبة الذكرى الخمسين لرسم البابا ليو الثالث عشر كاهناً في سنة ١٨٨٨، كانت هديتها للفاتيكان (St Peter's Penny) تحتوي على مليون فرنك ذهب. وقيل عنها أيضاً أنها تبرعت بأكثر من ٢٠ مليون فرنك ذهب الى الدوق دي موبانسييه (Montpensier) الأمير فيليب لويس دي أورليان، الابن الخامس للملك الفرنسي لويس فيليب، ليعزز خطته الملكية الطموحة والتي باءت بالفشل.

توفيت الدوقة والدة فيليب في باريس في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٨٨، تاركة قصرها الفخم كتقدمة الى الامبراطور النمساوي فرانس جوزف (Franz Joseph) ليستعمله كبناء للسفارة النمساوية ــ الهنغارية في باريس. قُدِّرت قيمة هذا البناء بما فيه من قطع فنية ثمينة، بمبلغ يزيد على ١٢ مليون فرنك، وكان ضمن اتفاق التقدمة، بأن يستعمل ابنها فيليب، جناحاً واحداً في ذلك القصر مدى الحياة. أما فيليب، فكان يستعمل ثلاث غرف من الجناح ليضع فيها مجموعته الضخمة من الطوابع، لأن هواية جمع الطوابع أصبحت همّه الوحيد في حياته، وأصبح أيضاً يجمع قطع العملة الذهبية من جميع مدن أوروبا منذ سنة ١٨٨٠.

نذكر ان فيليب فراري لم يقم بأية مطالبة بأموال أمه عندما توفيت والتي كانت قد انخفضت في ذلك الوقت الى أقل من أربعة ملايين دولار. كان فيليب في ذلك الوقت أستاذ العلوم السياسية في المدرسة الحرة في باريس، (Professeur de L'Ecole Libre des Sciences Politiques A Paris) لكنه ورث بقية ثروة والده وكانت لا تزال ذات حجم كبير، حيث أن الدخل منها كان نحو مليونين وأربعمائة ألف دولاراً سنوياً.

■

المنتسبون الى نادي الطوابع

٨ ــ طاهر حسين أحمد المريسي، صندوق بريد ٣٩١ الخبر ــ المملكة العربية السعودية ــ ٢٢ سنة ــ هاوي متوسط ــ يجمع طوابع عربية جديدة ومستعملة وبطاقات بريدية.

حركة الطوابع الأخيرة

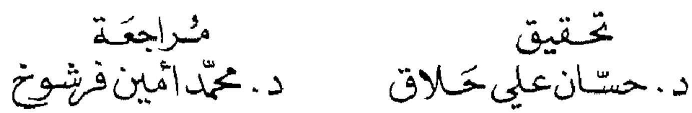
وردنا من مراسلنا في الخبر السعودية ــ السيد طاهر حسين أحمد المريسي، نموذج من الاصدار السعودي الجديد، وهو مجموعة لذكرى مرور خمسين عاماً على توحيد المملكة العربية السعودية، مؤلفة من ٥ و ١٠ و ١٥ و ٢٠ و ٥٠ و ٦٥ و ٨٠ و ١١٥ هلله، وبطاقة من فئة ١٠ ريالات. تحمل المجموعة والبطاقة صورة خريطة المملكة وصورة صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود.

مراجعة كتاب

مذكرات سليم علي سلام
١٨٦٨ ـ ١٩٣٨

مع دراسة للعلاقات العثمانية ـ العربية و الفرنسية ـ اللبنانية

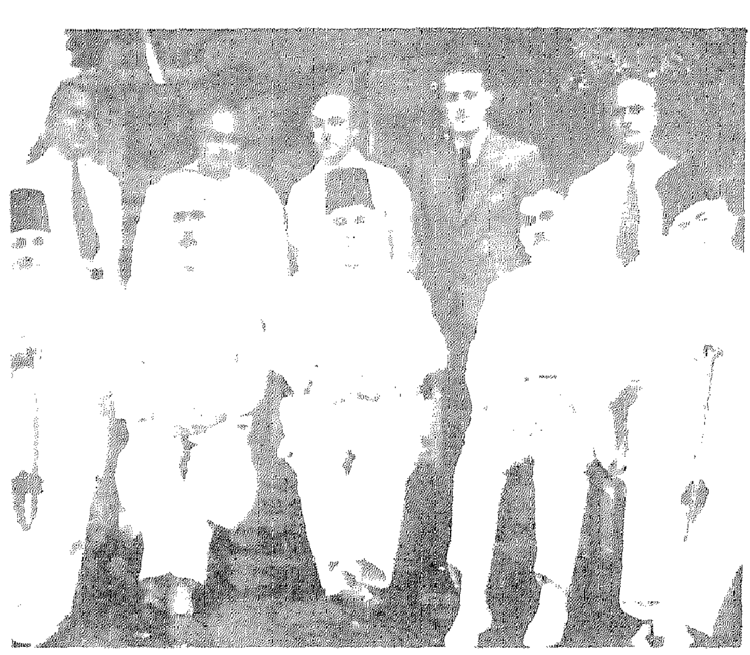






إذا كان من مهمّات المؤرخ ان يكشف عن مرحلة من حياة البشرية يرصد فيها الاحداث ويربطها بأبطالها ليؤكّد الديمومة، مثبتاً للحاضر اتصاله بالماضي، ومفيداً ايّاه خبرة وعبرة. وإذا كانت السيرة، في حالة من أحوالها استعراضاً لمراحل حياة عَلَم وابرازاً لمنجزات حققها، فان كتاب «مذكرات سليم علي سلام» هو تاريخ وسيرة معاً. لكن مقدم العمل الدكتور حسان حلّاق لم يعتمد أوصاف الأحداث كما سجلتها كتب المؤرخين الجاهزة ليختار منها، منسّقاً ومعلقاً، بل اعتمد على وثائق منشورة وغير منشورة (أرشيف صائب سلام ـ مخطوط صائب سلام عن قضية الحولة ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية..) وعلى كتب وثائقية ومذكرات ودوريات عديدة، فضلاً عن اعتماده على موضوعات المخطوط ـ لبّ القصيد ـ (سيرة سليم علي سلام الاجتماعية والسياسية). وألْحقَ كتابه بالصور والفهارس العلمية اللازمة مما يجعل كتابه وثيقة تاريخية علمية مهمّة، تُظهر لنا دور سليم سلام في بيئته ـ لبنان والوطن العربي ـ وفي فترة نضاله الصعبة ـ اوائل القرن العشرين ـ وفي مواجهة تحدّيات ما قبل الحرب الأولى وبعدها، فضلاً عن القضايا الخاصة التي انبرى لها وأهمها قضية فلسطين.

والكتاب من ٤٠٦ صفحات حجماً وسطاً، اشتمل على ثلاثة أقسام، ضمّ القسم الأول منها سبعة فصول، رصدت نشأت سليم سلام الأولى ودوره في الحركة الاصلاحية اللبنانية (١٨٦٨ ـ ١٩١٣)، التي كتب عنها القنصل البريطاني في يافا في نيسان ١٩١٣: «ان حافظ السعيد مبعوث يافا السابق أرسل برقية إلى الصدارة العظمى وإلى نظارة الداخلية وطلب منها الإسراع بتطبيق لائحة بيروت الإصلاحية على فلسطين نظراً لأهميتها ولأنها العلاج الوحيد المرافق لحفظ حياتها» (ص ٢١). فالجمعية الاصلاحية هذه كانت ديناميكية تلقى تأييد كل الطوائف مما أكّده «قوجه» القنصل الفرنسي العام في قوله: «ان سلام لم يكن طائفياً بدليل انه انتقد امام الوالي واشتكى من عدم اعطاء المسيحيين نصف المناصب في داخل مجلس ولاية بيروت» (ص ٢٢). وفي فصل آخر اطللنا على موقف سليم سلام من السياسة العثمانية. فقد انتخب نائباً في «مجلس المبعوثان» بناء على إلحاح السلطات العثمانية في سنة ١٩١٤، «ومنذ وصوله إلى الاستانة بدأ يسعى لتحقيق مطالب ناخبيه والعمل على إنشاء تكتّل نيابي عربي من المبعوثين العرب للمطالبة بحقوق شعوب الولايات العربية والمحافظة على المكاسب التي سبق ان نالوها [ومن خطاب له في المجلس]: «إن اربعماية وخمسين ألف ليرة عثمانية فقط ننفقها في السنة على المعارف في



رسم لاعضاء المجلس القومي الإسلامي عام ١٩٣٥ الذي كان برئاسة سليم علي سلام والجالسون من اليمين: حسن القاضي، عمر بيهم، سليم علي سلام، الشيخ توفيق الهبري، جميل الحسامي، والواقفون: أحمد الداعوق، رفيق براج، د. مليح سنو، د. يوسف بوجي، محي الدين النصولي.

البلاد العثمانية أمرٌ مجحفٌ بحقوق الأمة، بل هو أقل من القليل، واذا قابلنا ما يُنفَق على المعارف في البلاد الأجنبية وما ننفقه نحن عليها تجلّت لنا علل تقدمهم وتأخرنا وعلل نجاحهم وانحطاطنا» (ص ٤٢). وأطللنا أيضاً على موقفه من السياسة الفرنسية التي عادته مُوقظة النعرات الطائفية ومسيئة إلى الزعامات اللبنانية، فكان ان اعتقله الفرنسيون في اوائل ١٩١٩ وزج في السجن مدة أربعة أشهر، ولم يطلق الا بعد مساعٍ بذلها الأمير فيصل الذي كان يرئس وفد المفاوضة عن العرب في مؤتمر الصلح في باريس. وفيما بعد انتخب سلام عضواً عن مدينة بيروت للبحث في الاستقلال التام واتجه إلى دمشق ليشارك في المؤتمر السوري العام الذي كان برعاية الأمير فيصل بن الشريف حسين، وكان من المرجح ان ينتخب سلام رئيساً للمؤتمر، لكن ذلك لم يتم. ولرجاحة عقله وفطنته في العلاقات السياسية، بل لدرايته في نفسيات أهل البلاد نراه يقول للأمير فيصل حين قدم بيروت في ٣٠ نيسان ١٩١٩ وبعد أن أظهر له بعض وجهاء البلاد حماسة وعاطفة: «سمو الأمير، اننا جميعاً نقول لك نفديك ونضحّي في سبيلك ونفعل كذا وكذا، ولكن لا أحد يعلم كم من الأقوال سيتحقق عندما تقع الواقعة... فقد يتخلّى عنك أقرب المقربين منك إذا أفل نجمك لا سمح الله، فافعل ما يوحيه إليك ضميرك لمصلحة البلاد والله يوفقك» (ص ٥٨).

وسليم سلام كان دائماً مع الفرنسيين متيقظاً لمصلحة المسلمين، مطالباً بحقوقهم ورفع الغبن عنهم، وقد أثبت ذلك القنصل البريطاني العام في بيروت في تقرير له: «سليم افندي سلام و... قابلوا مؤخراً المسؤولين في المفوضية الفرنسية وعرضوا الاجحاف المتعدد الأشكال اللاحق بالمسلمين وأول هذا الاجحاف هو في كون الموظفين المسيحيين أكثر عدداً من الموظفين المسلمين» (ص ٦١).

ثم عقد المؤلف فصلاً حول ملابسات اراضي الحولة، فاذا الموضوع يدور حول امتياز ناله سلام مع رفاق له (ميشال سرسق، رضا الصلح، أحمد مختار بيهم) لتجفيف أراضي بحيرة الحولة سنة ١٩١٤ وبسبب الحرب مددت فترة الامتياز، ثم لما تسلّم الانكليز أراضي فلسطين حاولوا عرقلة عمل (الشركة) بسبب ان امتيازها يتعارض مع امتياز «روتمبرغ» الصهيوني، فسافر إلى لندن وقضى فيها خمس سنوات بلا طائل، وأصبح في حالة قريبة من الافلاس، فاستنجد بأثرياء العرب لانشاء شركة عربية ــ لبنانية تتولى الامتياز لمواجهة الضغوط البريطانية وكلفة العمل فلم يلق جواباً. وكان ان ابتدأ مع أولاده بتجفيف ٢٢ ألف دونم من أصل ٦٠ ألفاً، ثم اضطر للبيع عام ١٩٣٤ للاستفادة من ثمن الامتياز قبيل انتهاء مدته

بسنتين لوفاء ديونه، علماً انه نال شرطاً من الحكومة البريطانية بان لا تؤول هذه الاراضي المجففة إلى غير العرب.

اما القسم الثاني من الكتاب فقد ضم المخطوط، وهو في الأصل من خمس وخمسين صفحة «يعطينا فكرة واضحة عن اهميته وخطورة المعلومات الواردة فيه وذلك عن الفترة الممتدة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ ــ [والمذكرات] ــ سفر جليل في تاريخ القضية العربية لما حوته من وصف صادق لها ومن شرح وافٍ وتحليل ناضج لبعض حوادثها الخطيرة» (ص ٩٩).

وقد اشتمل القسم على اثني عشر فصلاً تناولت «اوضاع الدولة العثمانية وبيروت عام ١٩٠٨» حين انتدب سلام لأعمال بلدية بيروت ثم انتخابه لعضوية مجلس ادارة الولاية فوجد ان «رجال الأتراك كانوا اعداء لكل عمل عمراني ولو لم يكلف الخزينة شيء بل العكس ولو عاد عليها بالنفع» (ص ١١٧). وتناول أيضاً موضوع تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية وذلك «بزمن متصرفية رائف باشا»... ويضيف سلام... «ثم أخذ بعض المفسدين يدسون في الجمعية... حتى أصدر الوالي أمره بحلها وإلحاقها بالمعارف ومن هذا الوقت أخذت الجمعية بالاضمحلال... حتى سنة ١٩٠٧، فهذه السنة أراد الوالي خليل باشا ان يعطيها نوعاً من عنايته فشكل لها هيئة منفردة وعين لها رئيساً عبد القادر افندي الدنا وكنت في جملة الأعضاء وتسلّمت ادارة اجارات الاملاك... ولما اعلن الدستور العثماني في تموز ١٩٠٨ قام الاهالي يطالبون باعادة جمعية المقاصد الخيرية واستلام موجوداتها وانتخب لها رئيساً المرحوم الشيخ عبد الرحمن افندي الحوت... ثم الشيخ مصطفى أفندي نجا المفتي، لكنه لم يمض مدة طويلة على تعيينه حتى حصل اختلاف بينه وبين بعض اعضائها وادى إلى مداخلة الحكومة سنة ١٩٠٩ فاستدعاني الوالي ناظم باشا... وهكذا تعيّنت بقرار مجلس الادارة [رئيساً] واخترت الأعضاء» (ص ١١٩ ــ ١٢٠ ــ ١٢١). وفصّل سلام في مذكراته دور الجمعية وازدهار اعمالها التربوية والاجتماعية مسجّلاً أفضال المحسنين الكبار واهتمام اهالي بيروت بها.

ثم عن «الاصلاح» سجل سلام في مذكراته انه بعد اندحار الجيش العثماني وسقوط الحكومة الاتحادية، وبعد اضطراب الاحوال في الولايات وفي بيروت خاصة، اجتمع سلام بالوالي ادهم بك «واطلعته على حقيقة الحال وذكرت له ميل بعض الأهلين إلى الانسلاخ عن الدولة وميل البعض للالتحاق بمصر والآخر للافرنسيين. فسألني رأيي في ما يمكن حدوثه نظراً للضعف المستولي على الدولة حينذاك، فقلت له: «ان سوء الحال بقطع النظر عن ضعف الدولة وقوتها لا يمكن ان يعالج حاضراً ومستقبلاً الّا باجراء اصلاحات واسعة النطاق ليس في ولايتنا فحسب بل في جميع الولايات» (ص ١٢٩).

ولم ينسَ سلام في مذكراته ان يستوفي احداث ١٩١٣ حتى ١٩١٨ حقها من التفصيل والاهتمام، فقد أثبت أحاديث ومقابلات ووصفاً لعلاقات لم يسبقه أحد في دقة ابرازها والتنبّه لخفاياها، مما يضفي اضواء جديدة على العلاقات العربية العثمانية والعربية الفرنسية، وبخاصة اللبنانية الفرنسية في هذه الفترة. ففصول: «السكة الحديد بين بيروت ودمشق ــ نشاط سلام في مجلس المبعوثان عام ١٩١٤ ثم عودته إلى بيروت وعلاقته بجمال باشا ثم اعتقاله والتحقيق معه،مع وصف أحداث ١٩١٦ وما رافقها من عمليات نفي وشنق» لها الأهمية التاريخية الكبرى.

هذا وتفيدنا الملاحق المصورة في اطلاعنا على وثائق ومذكرات وتقارير ودعوات وبيانات وبرقيات... بين رجالات الدولة اللبنانية وقناصل الدول الأجنبية وولاة بيروت والمسؤولين العثمانيين. مما يزيد في قيمة الكتاب ويؤكد كونه وثيقة تاريخية مهمة.

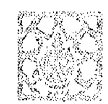
وانهي عرضي للكتاب المميّز هذا بكلمة للرئيس رياض الصلح عن سليم سلام (ص ٨٨): «تنطوي اليوم من كتاب بيروت صفحة وينتهي من أبنائها جيل، تلك صفحة مطلع النهضة التي قرأنا فيها جميعاً دروسنا الأولى في العمل العام، وذلك هو الجيل الذي شق لنا ولمن بعدنا بداية الطريق»...

■

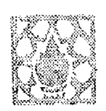


الكتب المهداة الى مجلة "تاريخ العرب والعالم"

- **الامكانات العربية، اعادة نظر وتقويم في ضوء تنمية بديلة.** مركز دراسات الوحدة العربية ــ ١٩٨٢ .... — د. علي نصار ....
- **المرأة ودورها في حركة الوحدة العربية**، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية: مركز دراسات الوحدة العربية ــ ١٩٨٢ ....
- **الشيخ ابراهيم الأحدب ١٢٤٢ــ١٣٠٨هـ ــ ١٨٢٦ــ١٨٩١م** حياته ومؤلفاته: دار الانشاء للصحافة والطباعة والنشر ــ ١٩٨١ .... — د. زينب القاروط ....
- **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، عصر دولة المماليك ــ** الجزء الثاني: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ ١٩٨١ .... — د. عمر عبد السلام تدمري ....
- **ليلى والذئب** ــ رواية ــ منشورات الراصد ــ بغداد .... — عالية ممدوح ....
- **بحوث في مؤخرة القوات المسلحة** ــ دار الشورى ــ بيروت ــ ١٩٨٠ .... — العميد الركن محمد خالد شيخ القصابين ....
- **ملف الثقافة والفنون** ــ الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ....
- **الماسونية في الوطن العربي ــ أوراق عربية ــ ٤ ــ مركز الدراسات العربية ــ لندن ــ انكلترا** .... — نجدة فتحي صفوة ....
- **تاريخ تونس، من عصور ما قبل التاريخ الى الاستقلال،** دار «سراس» للنشر ــ تونس ــ ١٩٨٠ .... — الأستاذ محمد الهادي الشريف، تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة
- **الدفاع والاستقلال** ــ شركة فنون للرسم والنشر والصحافة ــ تونس .... — النّوري البُودالي، تعريب: الهاشمي السبعي وحمادي الساحلي
- **أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك**، المقدمة وتقاريظ المعاصرين ــ الدار التونسية للنشر ــ تونس .... — د. المنصف الشنوفي ....
- **التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ ــ ١٩٧٠)** ــ (دراسة في علم المفردات والدلالة) مركز دراسات الوحدة العربية ــ ١٩٨١ .... — د. مارلين نصر ....
- **ملامح من الماضي والحاضر** منشورات وزارة الثقافة والشباب، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية .... — حسني فريز ....



الفهرس العام للسنة الرابعة



قسيمة اشتراك

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة الإشتراك باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

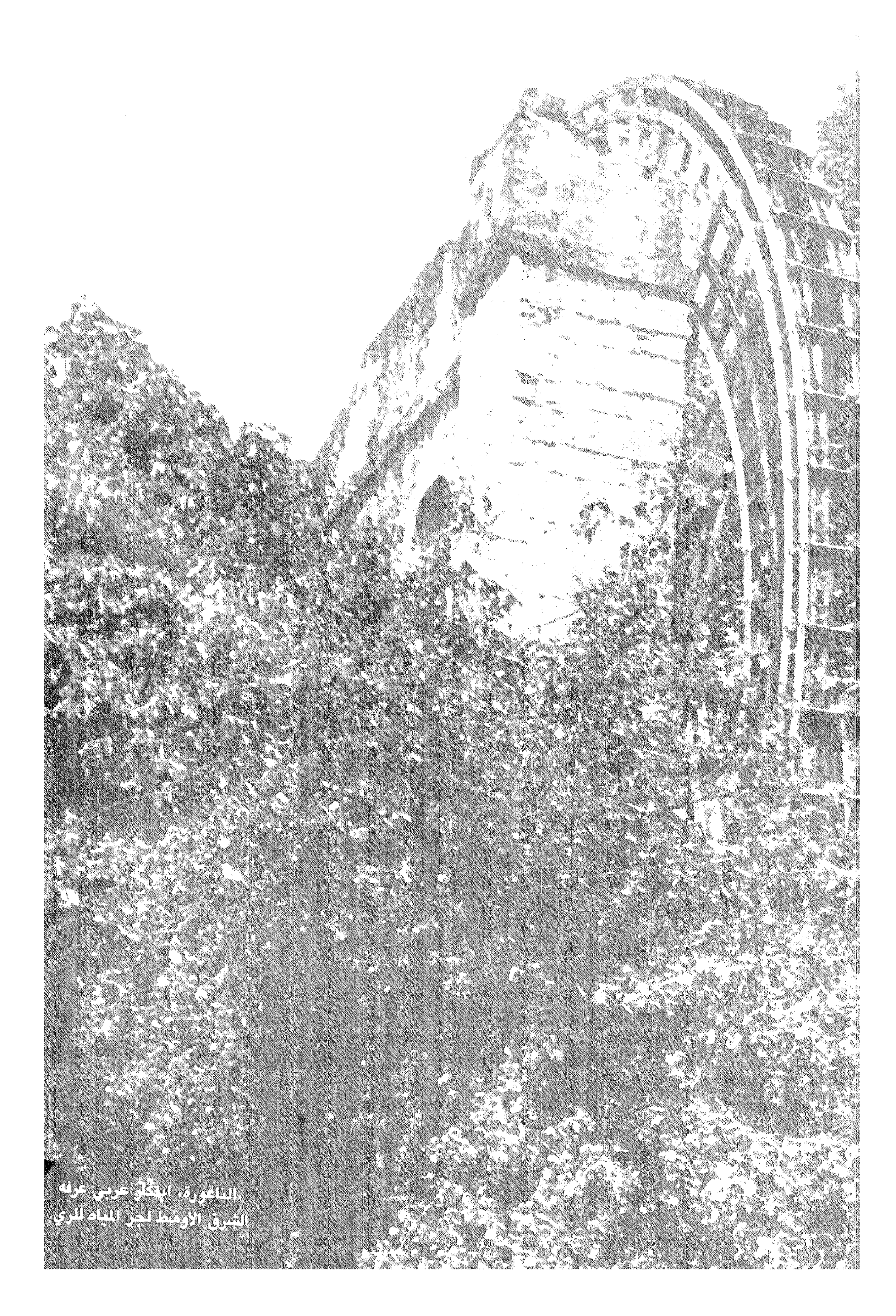
العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق اشتراكي: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

اشتراك لمدة: ☐ سنة (١٢ عدد)



الناعورة، ابتكار عربي عرفه
الشرق الأوسط لجر المياه للري

موطنها لبنان

أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية

جذورها راسخة في الشرق الأوسط

وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا

